أرذل الفقد..

الكتاب: **أرذل الفقد..**

المؤلف: **سيما**

التصنيف: **رواية**

الناشر: **دار ملهمون للنشر والتوزيع**

الطبعة الأولى: **يناير** 2019

الرقم الدولي المتسلسل للكتاب: ISBN: 978-9948-38-614-8

إذن الطباعة: MC-10-01-1354042

الطباعة : Masar printing & publishing, Dubai

التصنيف العمري: E

تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقًا لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام.

للتواصل مع الدار: 0097143460891

موقع الدار: www.darmolhimon.com

جميع حقوق الطبع و إعادة الطبع والنشر والتوزيع محفوظة لملهمون للنشر والتوزيع، ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي من ملهمون للنشر والتوزيع.

info.darmolhimon@gmail.com darmolhimon @darmolhimon @DarMolhimon

سيما

أرذل الفقد ..

الإهداءات

لأبنـاء نجـد السـابقين.. الذيـن أتعبهـم الركض فـي أزقّـة الحياة، فركنوا للأرض، والتحفت أجسادهم بترابها، وبقيت أرواحهم تتجـوّل بيـن الأزمنـة، ولـم تفارق سِيَرُهُم الألسـنة، وعاشـوا بعـد موتهم شـهودًا علـى الأمكنـة.

لأبنـاء نجـد الباقيـن.. فـوق أرضهـا يتفيَّـأُون غيمهـا، ونخلهـا، ونفدهـا، للّذيـن يحكون لصغارهـا معانـاة أهاليهم، وأسـرار طفولتهم، وجنـون شبابهم، ولوعـات أيامهـم، ومسـرَّات لحظاتهـم.

لأبنـاء نجـد اللَّاحقيـن.. الذيـن يكبـرون تحـت سـمائها.. عـدُّوا نجـوم صافـي لياليهـا، اخرجـوا لشـهباء رمالهـا، وطوفـوا بيـن طيـن بيوتاتهـا، اسـمعوا مـا تقولـه الجـدران، وشـاهدوا مـا تحتفـظ بـه الطرقـات، ابحثـوا عـن نسـخ أرواحكم فـي مجـد أبنـاء نجـد.

لحياة والدي التي أعطتني الثقة بصمتهِ ضِعْفَ ما أعطاني كلامه، لموت والدي الذي أعطاني القوة في آخر وداعه بعد سلامه.

لمجلس أبي، ولأبريق الشاي، ولمنفضة السجائر، ولجهاز التسجيل، وللأغنيات التي نسمعها سويًّا. لكلّ ما رحل مشفَّرًا.. صورًا، وأصواتًا عبر الأثير.

ألا يا فقدًا رذيلًا نزعني الأهل، والعين، والصحبْ
ما تركتَ كتفًا أصيحُ فوقها، أو صدرًا، ويضمني قلبْ
أو حبًّا يكفكف دمعتي، ويلملم شتاتي بحنانٍ، وقربْ
تركتني وحيدةً ضالّةً لا تعرف إلي السعادةَ دربْ

أرذل العمر ...

فتحت عيني بصعوبة هذا الصباح، وكأني اكتحلت بدِبْسِ التمر الليلة الماضية، ما أشبه اليوم بالأمس. التصاق الأجفان هذا يعود بي إلى الوراء بأزمنة، حيث اكتحلت يومها بقيحِ الفقد، أشعر بثقل في جسدي، وخدره، أظن أنيّ نمت نومًا طويلًا، حتى صمت أُذنيّ عن صوت أذان الفجر.

يا الله!

صلاة الفجر أهمّ ما أبدأ به يومي البسيط، ماذا فعلت؛ حتى يسخط الله عليّ، ويبول الشيطان في أُذُنَيَّ، أقحمت سبَّابتي بداخلها، ومسحت منها بقايا بول الشيطان اللّا محسوس، أحاول قراءة الوقت من هذه الساعة الخشبية المعلّقة قبالة سريري، أصرّ جفني، وأفتحه باتّساع.

- أووف ضعف البصر!

العقرب الطويل يشير إلى التاسعة، إذن بعد خمس عشرة دقيقة تدخل عليّ ساعة جديدة، هذا ما استطعت فهمه، وقراءته من على بُعد مرمى بصر.

أحاول أن أنقلب على جنبي الأيمن تجاه باب الغرفة، رفعت يدي إلى أحد أعمدة السرير فوق رأسي، أمسكتها، وانقلبت ببعض مشقة؛ في سنواتي الأخيرة امتلأ جنباي باللحم، تضخم ردفي بالشحم واستدار، ترهّل بطني، وتدلَّى إلى الأسفل، وذَوَتْ رمانتاي المرتكزة اليانعة في ربيع العمر، وصارت حركتي أكثر صعوبةً وتعبًا.

تمتمت، اللهم لا تردَّني إلى أرذل العمر، ثم تحسَّست معصمي وتساءلت: أين وضعت ساعة يدي؟! كنت أرتديها عندما تعتمت البارحة عند شوع.

نظرت إلى الفناء. أشعة الشمس الباردة تتثاءب، وتتمدَّد على جدران بيتي الشعبي وتتوزع في باطنه، لا تخلف الشمس موعدها في هذا التوقيت الشتوي، تعتلي حيطاني من فوق شجرة مزهرة متسلقة إلى بيتي من بيت قصيرتي أم غازي، وفوق ساق الشجرة الطويل الممتدّ تتشمّس عصافير الدخل الصغيرة الجميلة، واللذيذة أيضًا، تغاريد هذه العصافير كفيل بأن يصنع من طين الألم المحترق جرة أمل، أكسرها خلف أيام نحسي وأوجاعي، حتى تقضي سفرًا بعيدًا في ماضي حياتي السحيق بلا عودة، تأخذ مشاعري التي تقطَّعت بين أمي، وأبي، وحبيبي، ونفسي، وتترك لي صور الفقد والمرض، والخراب، تتركها ليس للبكاءِ عليها، فقد جفَّت ينابيع الدمع على مرّ الحزن، لكن تتركها فقط؛ كي لا أنسى مَنْ أنا، وكيف تبدّلتِ الأرض من تحت خطوة طفولتي إلى جمر أحرق موطئ شبابي، ثم إلى رماد أبيض سُفَّ على مفارق رأسي، ووجهي حتى رسم على بشرتي خريطة بخطوط مشوَّهة أخفى بها عبث السنين كنزها.

أظن أنِّي أستطيع الآن تخمين الساعة من موقع أشعة الشمس، يبدو أنها تخطَّتِ التاسعة.

تعلّقت عيني بصندوق حديدي ذي أقفال رُسِمَ عليه قبة المسجد النبوي، ومآذنه باللون الأحمر، والأزرق، وضعته تحت نافذة الغرفة الواسعة بجانب الباب، عندما أنظر إليه أرجو من ربي ألَّا يفتح

بداخلي، ما عدت أقوى على النظر بداخله، ولا أقوى على التخلص منه، يقف أمامي كشاهد على خيبتي، يذكّرني كلّ صباح ألّا أنسى، وأن أعيش وفق ما اختاره ليَ الآخرون.

أتخلص من الأفكار، وأترك لهواجسي حرية السباحة في العدم، عيني تبصر بشكل مباشر إلى الشيء، وما وراء اللّا شيء، حتى تشردقت هواجسي في دقات ساعة الصفاء... " الساعة الآن في الرياض العاشرة.. صباحًا ".

من بعيد صوت حجارة صغيرة تضرب بباب بيتي الحديدي المتآكل بفعل الصدأ، لا بُدَّ أنها شوع فهي صاحبة هذا الفعل، إذا أرادت أن تقول لي شيئًا على عَجَل، تفتح بابها المقابل لبابي على بُعْدِ أربعِ خطوات مساحة السكة التي تشقُّ طريقها بين البيوت، تلتقط بعض الحجارة من الشارع الترابيّ، وترميها على بابي.

نهضت بتثاقل، تناولت شيلتي السوداء من على خطَّاف الملابس المعلّق خلف باب غرفتي لأضعها على رأسي تحرُّزًا من مرور رجل أثناء وقوفي أمام الباب، فتحت بابي حتى وافتني حجارتها في رأسي.

-ضحكت.. ثم تعجبت، كل ذا نوم !

افتحي الراديو بسرعة على الإذاعة، يذيعون الآن أغنيات فوزي محسون .

هممت بإغلاق الباب حتى صرخت:

-لحظة. لحظة، هذه ساعة نستأنس إيَّاها الشيطان في بيتي البارح.

بكل قوَّتها، ونشاطها، وحيويتها، وكأنها لا تبلغ من العمر خمسين عامًا، رمت ساعة يدي علىَّ من مسافة أربع خطوات ظنًّا منها أنى سأرفع يدي لالتقاطها؛ لكني أسقطت ظنها، قبل أن تسقط ساعتي أمامي بمحاذاة ثوبي.

-شكرًا، قلت لها وبحركة صغيرة من قدمي أدخلت الساعة من السكّة للبيت، وأغلقت الباب .

انحنيت إلى ساعتي. تناولتها من على الأرض، أم صليب قويّة، لا يكسرها شيءٌ؛ علَّها تمدُّني بهذه القوة، ثمّ تذكّرت أني خلعتها البارحة أثناء سهرتي ببيت شوع، أتضايق من ارتدائها بسبب ذراعي التي يلفُّها لحمٌ ضِعْف ما كان يلفُّها قبل عشرين عامًا، حين اشتريتها من أول أجرة لي.

اتجهت نحو الراديو البُنِيّ الصغير، وضعته على رفٍّ خشبِيٍّ ثبّت بجدار صغير يفصل بين باب غرفتي، ومطبخي الضيق، فتحته على الإذاعة السعودية، وإذا بصوت فوزي محسون ينبعث، ويبعث ويعبث بالشجن.

يا نسيم الصبح.. يا مارر.. عليه
قولوا كان واحد هنا .. حارس وراح
وإن سأل عني.. تقولو يا نسيم
لا تقول جالس.. باشكي للصباح
تزعجوا ما يسير.. إشلوا بالعذاب
بالضنا بالسهد.. ولاّ بالعتاب
ما راودك في الحلم طيف..
ولا نبّهك شوقي العنيف..

مسكين يا حظي الضعيف.. مع نايم الليل الطويل..

أسندت ظهري على باب المطبخ، وأنا في دورة هيام بموسيقى الأغنية وكلماتها، الهيام والحنين، وعَصْرَة القلب لا تؤمن بمبادئ العُمر، ليس للشيب عندها وقار، ولا للشباب هيبة وإكبار، يأخذني الحنين إلى عمق ماضي حياتي، يمرُّ بوجع القلب، ويتّجه إلى غصّة الحب، وكأن شوع تأخذني من هواجس السرير حتى تشاغلني بالأغاني.

مسكين يا حظي الضعيف مع نايم الليل الطويل، تعلقت هذه العبارة بذهني كثيرًا، وكأنها تصف حال حظي مع نيام في ليل الرحيل الأبديّ.

الحظّ مقامرة النصيب مع القدر، متى ما كان نصيبك عالمًا بقواعد اللعبة، وانتصر على القدر كان حظك رابحًا وافرًا، ومتى ما كان نصيبك جاهلًا بقواعد اللعبة، وانهزم أمام القدر كان حظك عاثرًا خاسرًا.

نصيبي المهزوم من اليوم الأول لولادتي، من أعطاك الحقّ لتراهن على حياة أمي، متى لعبت بها مع القدر بغفلةٍ منها، لم تمهلها لمداعبة أصابعي، وأنفي وشعري، وملامستها لجلدي، ولم تمهلني لألتقم ثديها، أبحتَ لِيَ المراضع من بعدُ، وحرّمت عليّ أمي من قبلُ.

خمسٌ وخمسون في مرتع أقداري، كبرت أنا.. كبرت جِدًّا، وما زالت أمي فتاة صغيرة لم تكمل عامها الخامس عشر، في رحاب المقابرِ تقبع، وعلى ضفاف الموتِ تسمع.. وجعي، ووحدتي، وأنّاتي.

كيف لفتاةٍ صغيرة ضعيفة انهزمت خوفًا أمام عظمة عزرائيل أن تكون أولى تجاربها في الحياة الموت، ما كانت ستجابه، وما كانت ستتمسك بالحياةِ وتصارع، شغلها حضور الموت عن آلام المخاض، ما أن وضعتني حتى مزقتها كل ممزق، نظرت لبحر الدم الذي فاض بين فخذيها الضعيفتين المرتجفتين، وما أمهلها فقدان الوعي أن تبكي آلامها، حاولت القابلة إفاقتها. مسح جبينها المتعرّق، وإبعاد خصلات شعرها المبللة التي غطت وجهها الصغير الشاحب، لكن عبثًا ما أفاقها إلَّا أمر ربها، وحشرجت روحها، كان الموت غصّة في حلقها ما استطاعت ابتلاع روحها، وما استطاعت لفظها، بقي بصرها معلقًا في سقف الغرفة، لم تقوَ على وداع أحد، ولم توصِ بي لأحد، ذهبت وهي ترتعد من أمومتها القاسية.

تُرَى. هل دعت عليّ أمي عند ربها ساعة موتها أن أكتوي بنارها التي أذقتها؟!

هل كرهتني أمي؛ لأن نصيبي قامر مع القدر على وجودي في الحياة، وانتصر القدر!

لن ألومها لصغر سنها إن فعلت، ربَّما لو عادت للحياة لعاملتها بقلبها، قلب الأم الذي لم يأخذ ولم يعطِ، لكنه تضخَّم جِدًّا من الحنان، والحب، والوحشة.

أنتِ وحيدة في الموت تائهة بالغياب، وأنا وحيدة في الحياة تائهة بالوجود، حاجتي إليك بقيت وليدة لم تكبر على مدار العمر.

عـودي، ولـو ليلـة أتـذوّق بهـا دفءَ قلبـك علـى جليـد العمـر المتحجّر يذوب، طالما في طفولتي أطلت النظر بمشهد حُنُوّ الأم على أطفالها، ورعايتها لهم، وبقيت أنا واقفة متفرجة خارج المشهد، لا أنتمي إليه، ولا ينتمي إليّ.

عودي، ولو ليلة أرتمي بها في حضنك، وأبكي عجايا، ويُتْمي ولَطْمي، أعرف أن حضنك أصغر من حجمي، ومن عمري، ووجعي ودمعي؛ لكنه سيحمل كل هذا بلطف الأم التي. وإن غضبت عَفَتْ، وإن حَنَقَتْ رضِيَتْ، وإن خاصمت صالحت.

وأنا سأصفح عنك لعنتك لي، التي ضيّعتني، وما أضاعتني، وسأسامح على وجع فقدِك وفقدِ من بعدك.

اعلمي أمي الصغيرة أنك ستواسين عجوزًا تكالبت عليها الحياة، وأخذ القدر منها ما أخذ، وتركها في عراء الدنيا ترعى نصيبها الضعيف.

قطع هاجسي الطويل المثقل بحمل الوحدة ورائحة العجز صوت سيارة تقف بمقربةٍ من باب بيتي.

مسحت أدمعي التي تُكْرِمُنِي بالهطول عند عبثي بذاكرة الفقد.

اليوم الثلاثاء لا بُدَّ أنه أخي عاد من جدة؛ زويد ابن جارة جدتي لأبي رضعت معه وتآخَيْنَا، يعمل سائقًا عند إحدى عوائل الأكابر في الرياض، واستأذنهم متى ما وجد الوقت للعمل على سيارتهم الفولفو الحمراء لحسابه الخاص، وأذنوا له.

اشتغل زويد بالكارالذي يجيده "قيادة السيارات"، وعمل على خط الرياض- جدة، يحمل معهُ مسافرين من الرياض إلى جدة يوم الأحد، ثم يعود يوم الثلاثاء بمسافرين من جدة إلى الرياض، يقضي زويد أيام الأسبوع بالعمل، والقراءة ويقضي أيام إجازته الثلاثة مسافرًا بين نجد والحجاز.

رفعت شيلتي السوداء من كتفي، ووضعتها على رأسي، ثم أسدلتها على نصف وجهي باستثناء عيني التي أبصرُ بها، فتحت له الباب قبل أن يطرقه، وأخرجت رأسي من خلفه..

- حيا الله أخيي، الحمد لله على سلامتك.

-حياك الله أخيتي الله يسلمتس.

-متى وصلت؟!

- الحين، جيتس أسلم عليتس، وأسلم الأمانات، الكيس الأصفر لتس، والأزرق كيس شوع.

- تفضل، ادخل نتقهوى قهوة الضّحويّة.

-والله أني مستعجل، زادك الله من فضله، بسير عليتس إن شاء الله قريب.

هذه عادته، يأتي على سفر، ويذهب على عَجَلٍ، يعدني بأن يعود، ويعود عودًا رشيقًا خاطفًا؛ لكثرة أشغاله، كبر زويد، وكبرت به الأوجاع، والأمراض المزمنة، يصمّ أذنه عن صوت نفسه الذي يشحذه الراحة، والاستقرار، حينًا أعاتبه لصحته، وحينًا ألومه على نسيانه لنفسه في زحام الحياة، يضحك، ويقول جملته التي حفظناها عنه: العمر للمكدة.

من حين لحين أوصي أخي زويد ببعض الصحف، والكتب التي لا توزّع إلَّا في جدة، وتوصيه شوع بأسطوانات بكم.

الثقافة، والموسيقى، والكتب مزدهرة في الحجاز أكثر منها في نجد.

تسجّل الأغاني على الأسطوانات، وتوزّع فور صدورها في مصر، وبعدها بفترة قصيرة تباع بجدة، كذلك الكتب.

طالما كانت جدة الميناء التجاري، والثقافي، والإسلامي النابض بالحياة.

تنفق شوع جُلّ مالها على الأسطوانات وزينتها الشخصية، فهي تسمع لمطربي مصر والحجاز، عبد الحليم أو حليم كما تحبّ أن تتغنّى باسمه، وتتمنّى مقابلته، فايزة أحمد، وأم كلثوم، وطارق عبد الحكيم، وفوزي محسون.

تُمرّن صوتها بالغناء معهم طوال الليل، حتى أصبحت الفنانة الشعبية الأولى في حيِّنا، تحيي أعراس المنطقة واحتفالات أهلها، شوع لا تغني بصوت مصدره حنجرتها؛ بل تغني بصوت مصدره عمق قلبها، صوتها رخيم ودافئ، حين تغني أغنيات حزينة تُبكي لها العين، وحين تغني أغنيات الفرح ترقص لها الروح.

أخرجت الصحف التي تحتوي على صفحات أسبوعية تهتمّ بشأن السيدات، هذا النوع من الصحف لا نجده في الرياض إلَّا بشقّ الأنفس، أو لا نجده أصلًا، المرأة في الحجاز تختلف كليًّا عن المرأة في نجد، النساء هناك متحرِّرات متعلماتٌ مثقّفاتٌ عاملات قلَّما نجد امرأة لا تحمل هذه الصفات.

يتّصلن بالإذاعة. يشاركن آراءهنّ. يراسلن الصحف بتجاربهنّ، ومشكلاتهنّ حتى تنشر للقرّاء، وتكون التجربة عامةً، ومفيدةً للجميع، يكتبنَ الشعر، والقصص على الصحف والمجلات، ويطبعنَ كتبهنّ الخاصّة. لا. بل ويؤلّفنَ الأغاني.

ديوان الأوزان الباكية أخيرًا "ثريا قابل" في بيتي، مسحت على غلاف الديوان الشاعري براحة يدي بطمأنينة، وابتسامة هادئة، وشوق كبير لقراءته، قداسة الحب تفوح من هذه المرأة، فهي لا تعرف إلّا أن توقظ كلّ شعورٍ نائم، وتنفخ في كل إحساس ميت، تضع قلوبنا في جَلَبَةِ ولادة الحب، وسكونِ موته.

العيون الوالهة
عشقًا
هي ذاتُ العيون التي
تلعن الحبّا
وتصفع الأمسا
وترسل من عُلاها
احتقارْ..
يا لَعمري!
ليتهُ ما كان عمرًا
ليتهُ كان حطامْ
في الترابْ
مثلَ حبي
مات بالأمس وليدًا
أو كقلبي
دفنتْه يدايْ

أرذل الصُدف ...

بعدما تفرغ المساجد من مصلّي صلاة العصر من كلّ يوم ثلاثاء، أذهب مع شوع إلى السوق، في هذا الوقت تكون الشوارع مكتظّة بالرجال، والنساء يخرجون لقضاء حوائجهم، أطفال العوائل الثرية يخرجون للّعب، وأطفال العوائل الفقيرة يخرجون للعب وللعمل أيضًا، بعد زوال شمس الظهر القويّة المنصَبّة على الرؤوس، يعود التجار إلى محالّهم. يفتحونها مستقبلين الزبائن، والمتسوقين، والزوّار من الأصدقاء، والأقارب بعد استراحة الغداء ومقيال الظهرية.

تقفز شوع من شارع إلى شارع بلياقة عالية، وخفّة، وكأنّها ظبْيٌ يسابقني للوصول، تلتفت إليّ، وتضحك على بدانتي تقول لي بصوت يُسمع الموتى، والصُّمّ الدعاء.

-تدربي لين توصلين.

تقف بين الحين، والآخر في الزّقاق، والعوايز تنتظرني أصل إليها لاهثة النفس، مشينا من حيّ الشميسي الذي نسكنه قاصدين شارع الثميري، الوجه المخمليّ للرياض، والقلب النابض، أحياء الشمال شارع المعقلية، وشارع العطايف، قصر الحكم التاريخي السياسي. مقر الإمارة بناء رصين واسع، جامع الإمام تركي بن عبد الله أو كما يقال الجامع الكبير. مئذنتان عاليتان تضربان في كبد السماء، ساحة الصفاء، وساعة الرياض التي تتوسّط الساحة لا تقلّ شهرةً عن ساعة "بيج بن اللندنية" وأهميتها لدى السكان الأصليين للرياض، وللقادمين لها من أرجاء المملكة، شكّلت هذه الساعة شكلًا حضاريًّا للمدينة، عبرت للسكان عن أهمية الوقت، وعكست عنهم، وعندهم الانضباط بالوقت.

مبـانٍ عاليـة مسـلَّحة ذات ألـوان مشـرقة. تضفـي علـى منـاخ الرياض القـارّي ذات اللونيـن الأزرق الصافـي فـي السـماء، والبيـج الترابي على الأرض، تدرج ألوان مبهج للعين والقلب، وتكسـر الصورة النمطيـة للتطـرف المناخـيّ.

الهندسـة والعمـارة ذات طابـع جديـد علـى سـكان نجـد، بيـوت الأكباريـة تشـبه قصـور الباشـاوات فـي القاهـرة، نوافـذ واسـعة، شُـرَفٌ علويـة، وسـفلية تحتـوي علـى جلسـات خارجيـة، عـدة كراسٍ تتوسـطها طاولـة زجاجيـة دائريـة أو مربعـة.

داخـل أسـوار البيـوت حدائـق تلبـس أثوابًـا سندسـية خضـراء مطـرَّزة بالـورود الملونـة ذوات أغصـان طويلـة متراقصة بفعل الهواء، ولـو أن ريـاح السَّـمُوم تراقصهـا فـي معظـم أوقـات السـنة، لكـن العنايـة البالغـة تبقـي جمالهـا حاضـرًا بشـكل أو بآخـر، فـي منتصـف سـاحة البيـت حوضٌ مائِيٌ كبيرٌ جِبْسِـيٌّ أبيضُ مزخـرفٌ، بداخله ثلاثُ نوافير منقوشـة، الأولـى كبيـرة مرتفعـة فـي وسـط الحوض، وعلـى يمينهـا وشمالها اثنتان أصغرُ منها حجمًا وأقلّ ارتفاعًا، أبواب البيوت كبيرة، وحديديّـة مزخرفـة، ويغلـب عليهـا اللَّـوْن الذهبـيّ عاكسًـا تـرف وثـراء أصحـاب البيـت، ذات ذرفتيـن تفتـح علـى مصراعيهـا كاشـفةً جمـال البيـت للمـارّة، وكأن أهالـي هـذه البيـوت يسـمحون للنـاس باسـتباحة النظـر إليهـا، وامتـاع أعينهـم بهـا.

بصوتهـا العالـي قطعـت شـوع تمتّـع ناظـري بالمُـزارع الـذي يُقلّم سـيقان، وأورق شـجر كثيف العشـب داخل أحد القصور، أزهار خفيفة جِـدًّا، وباهتـة. حمـراء وبيضـاء وأوراق سـميكة جِـدًّا مجعّـدة وشـديدة

الاخضرار ولامعة، بمِقَصّه الكبير يقصّ الشجر على هيئةِ حائط شجري يفصل الحديقة عن ممرّ السيارات.

- وطفاء بشتري هالبيت الحمر لتس، وهالقصر الأبيض لي، واحطّ لتس عندي غرفة لمن بغيتي تمرحين عندي.

- وراء ماتشترين لي قصر مثلتس يكافي.

-أنا وراي عرس يالحبيبة أبي رجل إن ماطمع بجمالي يطمه بقروشي، غيري نظرتس للعرس واشتري لتس قصرين، وأطق وأغني بعرستس للصبح.

لا تنفكّ شوع من توزيع أملاك الناس، وبيوتهم عليّ وعليها، تشعر نفسها بالثراء ولو بأحلام اليقظة، وأظن أن هذا يكفيها.

الشوارع في شمال الرياض واسعة مرصوفة، محفوف على جانبيها نخلات باسقات غير صنوان، تجاورها أعمدة إضاءة ليلية خافتة، وأعمدة كهرباء ذات أسلاك سوداء متدلية قليلًا. لو رفعت يدي، ووقفت على أطراف أصابعي كما تتحدّاني شوع لَلَامستها.

على ضِفَّتي الشارع مقاهٍ يجتمع بها الرجال من مختلف الأعمار بزيِّهم النجدي، وكبار السنّ منهم يلبسون فوق ثيابهم البشوت الحساوية موشّاة يدويًّا بخيوط الزري الفضي والذهبي، أفخر أنواع البشوت في الجزيرة العربية، وتتربّع على رؤوسهم الشطفة كعرش مذهَّب فوق سَجَّادٍ أحمرَ، هؤلاء الرجال يأتون على كلّ ضامر، ومن كلّ فجّ عميق لاجتماعاتهم الخاصّة، بعيدًا عن بيوتهم ذات الخصوصيةً العائلية، ويتركونها للاجتماعات النسائية، يمضون الوقت بسماع راديو المقهى الذي غالبًا ما يذيع هنا لندن، ولعب الضومنة والكيرم والبلوت.

وهنا كازينوهات.. محالّ حديثة الفكرة والنشأة تبيع المرطّبات، وقوارير البيبسي والعصائر المثلّجة، والأطعمة المعلّبة، أكثر مرتادي هذه المحلات أبناء النعمة، الشباب بثيابهم المكويّة، وأشمغتهم المنشية بنشاء الكوي ممّا يجعلها بحالة ثبات قوي. مقاومة التجاعيد، والأطفال أنوفهم نظيفة. شعورهم مقصوصة، وأيديهم مغسولة، تفوح منهم رائحة الصابون والعطر تميّزهم. أيضًا بالإضافة إلى نظافتهم الملفتة طاقية أم جنيهات التي لا يلبسها غيرهم تقريبًا.

يمضي الناس أكثر وقتهم بجوار قصر الحكم، والسوق الواقع في الشوارع المحيطة بساحة الصفاء، مَنْ يعيش في الرياض من النادر أن يذهب إلى السوق لشراء حوائجه فقط ثم يعود إلى بيته؛ بل يمضي نصف النهار في مقاهي السوق، يلتقي بأصدقائه أو بزيارة معارفه من التجار، وأصحاب المحلات، والبسطات والعربات، أو للتواعد وقضاء المشاوير، يعتبر السوق المكان الاجتماعي الأول وجانب المدينة المكتظ.

محلات صرافة، باعة غراش التحاليل، عيادات طبية خاصة للعيون، وعيادات تطهير الأطفال، وعيادات الباطنية، رغم أنّ مستشفى الرياض المركزي لم يمضِ على افتتاحه سوى عشرة أعوام تقريبًا، ويغطي حاجة المواطنين والأمراء، إلّا أن العيادات الخاصة لاقت رواجًا، وشكلًا اجتماعيًّا آخر، نوع من التبطُّر عند المترفين، ومن يحاول أن يصبح مثلهم.

أتذكر ذات نهار من وقت قديم أصرّت عليّ شوع بأن تأخذني إلى طبيب العيون العراقي الذي التقت به في محل الألبسة الرجالية

تحت عيادته في إحدى عمائر شارع جبر الخواطر، جُنَّتْ بالرجل، ودّت لو أنها تعمل معه بدون مقابل، أو ينفخ الله في حظها وتتزوجه.

رآها تتجوّل بين معاطف الرجال، وقمصانهم، وأحذيتهم، تقول لي دائمًا: " بتزوّج ذاك المصري المتعلم المتربي يلبس كرفته، ويأخذني لمصر أغنّي على المسارح"، كانت قدماها تأخذانها إلى حيث تمتع ناظريها، ويأنس قلبُها بخيالها الواسع المتطلِّب.

أشار لها بيده، أختي، أختي، حتى التفتت إليه بوقار المرأة المتأنقة، بغطاء أسودَ شفاف أكثر ميلًا لإظهار ملامح الجمال النجديّ، بشرة حنطيّة عليها دفقة سمراء، خنساء الأنف تزيّنه بزمام كرستالة ذات لمعة برّاقة، وكأن نجم الثريا يظهر في الشَّفَقِ قبل الغَسَقِ، شفاه ممتلئة كبيرة متطابقة، ربّما دلّت على صراحتها، وطيبتها، وحبّها لذاتها الذي لا يخالطه أنانية، عيناها كمرجانتين سوداوين في باطن صدفتين شديدتي البياض، تسبح عليهما لمعة تحكي طباع المرأة المستقلّة القوية ونوعًا ما اللّعوب.

سألها: أختي عيني، خاطر الله تساعديني دا اختار القميص.

تعلَّقت عيناها بنظراته المباشرة، مال رأسها، وفغرت فاها، ارتخت يداها التي ترفعها بمحاذاة صدرها، وهي تمشي تمايعًا، ودلالًا.

سلهمت، وقالت بارتجافة زلزلته سعادة وخفة: لبيه لبيه دا اساعدك وراء ما ساعدك عيني.

دارت بينهما أحاديث، وهي تنتقي لهُ قمصانه، أحاديث حول ذوق المرأة، وكيف يضيف على هيئة الرجل لمسة جمالية أنثوية خاصة، الرجل الذي ترتبه أنثى دائمًا ملفت للانتباه.

- أتشكرتج هواية أختي، ما تعرفين من يابحر أنقذتيني، ماعرفتج بنفسي، الدكتور عامر، دكتور عيون في العيادة اللي فوق هالمحل.

تشرفين في أي وقت أفحصتج ومن يعزّ عليج.

لا أعرف لِمَ لَمْ تفكر شوع بوالدها الكفيف؟ وفكرت بعينَيَ الخرساء، لم تكمل تسوُّقها في ذلك النهار، وقفزت من السوق إلى بيتي تخبرني عن الدكتور عامر الذي سلبها ما تبقّى من اتّزانها.

-اكبعي بشتس وتعالي معي.

-وين هو له؟

-" بوديتس دكتور يشوف عينتس"، تقولها، وهي تمسك بذراعي، وتجرّني نحو الباب.

تعجبت من أمرها المفاجئ، وهي التي تعرف أن جدتي لأبي طافت بي على أطباء العيادات، والمعالجين الشعبيين، وليس لعيني علاج، قُضي أمرها بقضائها على شبابي وجمالي، وحظي.

أتتني راكضةً لاهثةً، وكأن مَلَكًا نزل عليها، وبيده معجزة دوائي، أو أنها التقت في طريقها بواهب العيون الذي يهبها لمن فقدها!

حاولت أن أجاريها، وأقنعها أن الذهاب الآن للدكتور عامر بعد عرضه مباشرة لن يعكس عنها إلَّا صورة المرأة الخفيفة التي تطير خلف ظلّ رجلٍ كورقة في مهبِّ ريح عاصف.

ساومت شوع على ذهابنا غدًا صباحًا، ما كان لي إلَّا أن أقبل أوامرها عليّ، فهي لن تهدأ حتى تفعل ما يريح ضميرها وقلبها، كما أنها طالما أشعرتني بأنها ولية أمري والشخص المسؤول عني، ومَنْ يهتمّ لمصلحتي، أشعرتني دائمًا أن الله بعث عائلتي الميتة فيها.

عادت في صباح اليوم التالي باكرًا قبل وقت استيقاظها، بكامل أناقتها وجمالها، وكأنها لم تنم البارحة، طرقت باب بيتي، وما زلت نائمة في سريري، استشاطت غضبًا حين رأتني بهيئة النائم، أخذتني من يدي لأغتسل كطفلة تعدها للمدرسة، ثم لغرفتي لألبس، أخرجت لي أجمل وأحدث أثوابي، وأمرتني بارتدائه، عندما وصلنا العيادة لم يكن الدكتور عامر حضر بعدُ.. انتظرناه في غرفة انتظار المراجعين.

ما أن أقبل الرجل حتى نكزتني شوع بكوعها في خاصرتي.

- أااي شواتسلي!

- هذا هو. هذا هو! فزَّت من كرسيِّها تجاهَهُ. سلَّمتْ عليه، وصافحته. كادت أن تقبِّلَهُ لولا لطف الله بنا، نهضت بعدها واقتربت منها.

- هلابج أختي يا صباح الخير تفضلي. تفضلي.

- ضحكت، واقتربت منها همست بأذنها، يقولتس أختي!

- ربتس يبدلها يالجاهلة.

دخلنا معه. ولم ننتظر بعده ليس من أجل معرفته القصيرة بشوع، ولقائهما وليد البارحة من رحم الصدفة، لكن العيادة كانت خالية تمامًا من المراجعين.

خلع نظارته الشمسية، ووضع نظارته الطبية، نظر إليّ نظرة اخترقت عمري وثقلي وعقلي، وعنوستي، ووجعي، وعور عيني، عيناه لا تخطئ تصيب نظرتها القلب مباشرة، ماذا لو أنه لا يضع نظارة مظلّلة على عينيه لاحترقنا أنا، وشوع بحرارة نظرته، وقع مني كل لوم لمته صديقتي على خفة عقلها، فغرت أنا فمي عند حسنه المتكامل.

قامته طويلة، وكتفان عريضتان متباعدتان، كأن بينهما مسيرة من بيت المقدس إلى البيت الحرام، لونهُ حنطي مائل للبياض، وبدلته الزرقاء، وقميصه الأبيض.كلّ هذا أضاف على وجهه هالة هادئة كالبدر في ليلة تمامه، ذقنه أسود كجناحي طائر أسطوري يفرد جناحيه مستعدًّا للطيران، تملأ وجهه من العارض للعارض، شعره ناعم، وغزير مسرّح إلى اليسار، ثم إلى الوراء. خصل الشيب وزّعها الله على رأسه بعناية تامة تعكس دقة ما أعطاه الله، وحباه من جاذبية وجمال.

مزيج الصندل، والعنبر والمسك الذي يفوح منه كلّما اقترب، تبقى رائحةُ عطره عالقةً في المسافة التي يتركها بيني وبينه، ربّما أعطتني رائحته انطباعًا عن شخصه الاجتماعيّ، والعاشق للمتعة، رجولته القوية، وأصالة شرقيته.

قطع تأمُّلي صوتُهُ الرَّخيم، وبلهجته العراقية العذبة قال:

- تدلّلي أختي شبيه أقدر أخدمج؟

-تخدمك الملايكة، وحور العين يا بوي، هذي صديقتي "وطفاء" عينها أكلها الجُدَرِي قبل ثلاثين سنة، لو تقدر تسوي لها شيّ عشان تشوف فيها.

- إسمتج كولش رائع أول مرة أسمع بيه، تعرفين شنو معنى إسمتج؟

-كثيرة شعر الحاجبين والأهداب.

-آني والله شايف حاجب وهدب وعين تقط الطير من السماء لو تعوفيني أباوع عينج الثانية.

رفعت غطاء وجهي عن النصف المفقود من جمالي كما يزعمون، أخفي عيني المصابة عن أعين الناس السليطة، وأكشف الغطاء عن نصفي الآخر بعينه السليمة؛ لتظهر للحياة وتظهر مني جانب الجمال المتبقّي على مر الخسائر، شيءٌ ما يشعرني أن عليّ أن أسمح لعيني أن تتنفس، إنها نافذة روحي على الحياة، تقف وراءها سنوات وجعي وفقدي ووحدتي. اقترب الدكتور بكرسِيِّهِ مني، وهو يحاول استراق النظر من خلف غطاء وجهي الخفيف.

بادرت عنه، وأزلت غطائي، نظر بتمعُّن في عيني الميتة التي لا يكفُّ دمعها عن النزول، وكأنها تنوح على قدرها وتبكي موتها، فتح عليها مصباحًا صغيرًا استخدمه للفحص، حاول أن ينقِّب عن أمل يزفُّهُ إليّ، وهو يعرف جَيّدًا أن لا أمل، فتح عيني بأصابعه، طلب مني أن أنظر بكلّ الاتجاهات، اقترب وابتعد، لكني لم أرَ بعينه طلائع بشرى للحياة، كانت نظرته في عيني تقرأ نعيًا قديمًا كُتِبَ بيد فتاة أقبلت على الحياة، ثم أدبرت الحياة عنها، كُتب نعيُها بدم نجس، وخطٍّ معقَّد. كلمات أقرب للطلاسم صعب فهمها، وقراءتها لكن من السهل الإحساس بخوفها ووحدتها، وانطفاء نصفها الأيسر كمن حكم على قلبها أن يعيش حبيس ظلام أخرسَ أبديٍّ، لن ينجو منه ولن يكبر عليه.

لم أذهب إلى الدكتور وبيدي عصا أمل أهشُّ بها على دعواتي، لم تكن عندي دعوات تخص بصري أصلًا، كانت كل دعواتي أن ينير الله بصيرتي التي أدمت خيبتها قلبي.

أطفأ الدكتور مصباحه، ورجع بكرسِيّه ذي العجلات إلى الوراء.

-شافتج دكاترة قبل اختي وطفاء؟

- شافوني.

- إيش حكولج؟

- ما فيه أمل.

-ماعرف إيش دا أقولج بس ماعدني حجي أزيده عليهم.

نظرت إلى شوع وفي عيني نظرة اللَّائم، ونظرت إليّ وفي عيونها نظرة الآسف.

رنَّ هاتف العيادة، وانقطع الاتصال البصري بيني وبين شوع، استأذننا الدكتور بالرد على هاتفه، بدا لنا أسلوب كلامه أن المتصل امرأة وقريبة له جدًّا؛ لكنها ليست في الرياض في مكان آخر ربّما بعيد عنه، استشفَّينا هذا من أحاديثه، وسؤاله عن حال الطقس، والأهل، والعمل في مدينتها، ووعدها بالعودة بأقرب فرصة محمّلًا بالحب والأشواق.

عاد الاتصال البصري بيني وبين شوع بشكل أقوى متّخذًا حيِّز التبصير والتحليل، محاوِلَتَيْنِ أن نرسم صورة عمّا يدور عبر أسلاك هاتفيهما.

خرجنا من العيادة، وكلّ واحدة منا تجرّ خلفها حبال خيبتها، قطعنا جُلّ المسافة والصمت يطبق على ألسنتنا.

هذه الحال في أول الخيبة، لا يدعُ للمرء مجالًا للكلام يكتفي القلب والعقل معًا بتأمّل الموقف محاولًا فهم ما جرى. كيف سقط كلّ شيء في لحظة من السقف إلى الأرض.

للسّقوط رهبةٌ، وللحطام رجفةٌ، أما الوجع، فيأتي تباعًا يمهل ولا يهمل، وصلنا إلى بيتَيْنَا، بيتي على يميننا، وبيت شوع على شمالنا، التفتت إليّ والتفتُّ. نظَرَتْ، ونظرتُ، انفجرت ضحكاتنا! ضحكنا ضحكًا طويلًا. لم نَقْوَ على كبح جماحه حتى أدمعنا، وتقطَّعت بنا الأنفاس، ثم استدارت كلٌّ واحدة منّا إلى بيتها محاولَتَيْن لملمة الضحكات بابتسامات عرضية، والدخول إلى بيتَيْنَا بهدوء مفتعل.

ربَّما كل ما احتجناه أن نسخر من خيبتنا، ولا ندعْ لها مجالًا لتسخَرَ منّا.

قطع هاجسي الطويل القادم من نهار قديم صوتٌ يملأ سماء ساحة الصفاء أثناء جلوسي مع شوع، صوت الرياض الأول، والحسّ الرّوحاني للمدينة صوت عبد العزيز بن ماجد مؤذّن المسجد الكبير، نداء الفلاح الذي يدخل البيوت القريبة، والبعيدة من وإلى المسجد بسكينة إيمانية، وترنيمة مبحوحة، خالط صوته صوت دقّات ساعة ساحة الصفاء معلنَيْن مَغيب الشمس، ودخول وقت صلاة المغرب، ثم تلاهما الصوت الأنثَويّ للمدينة مشيرًا إلى الوقت في العاصمة السعودية.

- الساعة الآن في الرياض الثانية عشرة بالتوقيت الغروبي.

يجتمع الناس حول الصوت النسائي الذي يصدر من صدر الرياض نابضًا بدقّات الوقت " يعشون " ساعاتهم، منهم من يخرجها من جيبه، ومنهم من ينزع عن يده ساعته السويسرية "أم صليب" نسبةً للشعار الوطني السويسري الموجود على الساعة، هذا النوع من الساعات يعمل بالزّنبُرَك - التعبئة اليدوية - التي تعطيها طاقة من المغرب إلى مغرب اليوم التالي مدة ٢٤ ساعة فقط، ثم تقف عن العمل، حتى تقوم بتعبئتها يدويًّا.

اكتظَّت الجموع وعلا ضجيجها، نساء ورجال، شباب وكبار، مترفون ومعدمون، يخرجون من البيوت القريبة، ويأتون من محالٍّ الأقمشة، والعطورات، والملابس، والزينة، يتركون عربات الهريسة والحلو، يقومون عن بسطات القريض، والخردوات التي تفترش الساحة، وتحيط بها، يتركون تسوقهم وتجارتهم، يبيعون متاع الدنيا ويقصدون المسجد الكبير يشترون به الآخرة.

فلما أفلت الشمس، وجنَّ الليل بزغت أقمارٌ صغيرة تصطفُّ على جَنَبَاتِ الطرق تنيره للمارَّة، أضاءت ساعة الصفاء بوهجها الأخضر الذي يميّزها من بين أيّ بناء مُضاء قائم كعروس تتزين بالريحان في ليلة عرسها.

مع مغيب شمس نهار الثلاثاء نكونُ أنا وشوع قد انتهينا من التَّسَوُّق، وشراء حوائجنا رغم قِصَرِ النهار الشتويّ، إلَّا أنَّ شوع سريعة جِدًّا بشراء حوائجها، تعلمت منها أن آخذ ما يلزم، وأن أدع ما لا يلزم، ليس فقط في السوق؛ بل في جُلِّ أمور حياتي.

اشترينا هريسة من صاحب عربة متجوّل في السوق، يغلب على ظنّي أنه مصريّ، انتظرنا حتى انصرفت جموع المصلّين، وجموع المعشين، وجلسنا تحت جدار الساعة كمن تتنزل عليهم أنوار من السماء ورحمات، كشفنا عن وجوهنا تحدثنا عمّا اشترينا أكلنا حلونا تهامزنا، وتلامزنا على المارة، وأصحاب البسطات ضحكنا واستغفرنا، حتى لسعنا البرد، وعزمنا على العودة إلى بيوتنا.

ما أن وقفت من مقامي على الأرض إلَّا وبي أرى من على مرمى البصر قَدَمَيّ رجل تقف أمامي مباشرة، حذاؤه فخم، رائحة

العود والبخور تفوح منه مثلما مَنْ غَمَسَ ثوبه بزجاجة العود، ثمّ نفضه وارتداه، منتصب القامة، منفوخ الصدر، مرفوع الرأس، يقف بثقته العالية ثابتًا، لا تهزُّه زلازل الأرض، شامخًا أمامي كالساعة التي ورائي، كان ينتظر مني أن أرفع عيني بعينيه؛ حتى أقع به، وأعرف مَنْ يكون دون أن يكلّفَ نفسَهُ مشقّة التحدث.

جرأته دفعته ليقف قبالتي من غير أن يتحرَّز من كشفي لوجهي، ولا من لسان شوع الذي انهمر عليه باللعنات والمسبَّات.

أرذل الحب ...

- يسيتس بالخير وطفاء.

لم تصلني منه كلمات، بل كانت ماسًا كهربائيًّا الْتَمَسَ بي بالصوت، نفض صوته عروقي، نضب دمي، توقَّف عقلي، وجعل قلبي يدور في جوفي كـ"بَلُّورَة براجون" منطفئة ضربت بقوة الكون بـ" بَلُّورَة براجون" أخرى برَّاقة أفقدت البراقة ثبات المنطفئة، وجعلتها تلتَفّ حول نفسها، وتتخبط بما حولها كمن يتخبَّطُهُ شيطان من المَسّ.

حاولت أن أسيطر على العالم الذي قامت قيامته داخلي، وأبدو بشيء من البرود واللَّامبالاة، علّ ثقته الطاغية تفيض عليّ ببعضٍ منها، وأستخلصها لنفسي.

رفعت رأسي، نظرت عيني بداخل عينيه وما ورائها.. جوفٌ بلا قلب، قعرٌ متهالك بنت عليه العناكب قصورًا. ماذا جرى بداخلك حتى اتّخذتْك العناكب مأوًى لها؟! ماذا جرى حتى أصبحت قاحلًا خاليًا كرابع صحاري بلادنا؟! أنفاسك تصفّر داخل صدرك حارّة كلفحات السَّمُوم.

ما زالت نظرتك معلّقةً جامدةً، وقاسيةً. لا أقرأ منها أيَّ شعور، تقطَّعت السُّبُلُ بين عينيك وقلبك، كيفما وأينما نظر، عينك لا تنقل لقلبك صورة واحدة ملوَّنة يشعر بها أو يتحرك لها. أنت لا تبصر سوى بلونها الأوحد المعتم الباهت لون الخذلان والتّخلِّي.

صمتٌ وكأن لم يُخْلَقْ لي لسان، خيط فمي، وتسمّرت قدماي على الأرض كسدرة عجوز غُرِسَتْ هنا مع خلق الأرض الأول، تشوَّشَ سمعي، أرى يَدَيَّ شوع تتحركان بفعل الغضب، وفمها يفتح، ويغلق ولا أسمع شيئًا من ملاسنتها.

نبشت قبر الذكريات. ضربت جثمان حبي وأوجعته، من بين المقابر صحت صيحةٍ واحدة بعثت مَنْ بالأجداث حشرتهم في رأسي وأصدعته.

كان داخلي ينحب، ويبكي ويصرخ بوجهك الجريء، وفعلتك الأجرأ، تمنيت لو أني أرفع يدي، وأضربك على كتفيك، وأدفعك حتى تسقط على الأرض، لكن الشلل المؤقت الذي أصاب لساني، وأطرافي منعي حتى من أن أتَّخذ خطوة نحو الهرب.

ليتك علَّمتني كيف السبيل إلى الهرب، فها أنا بعدما كنت أهرب إليك أحتاج الآن الهرب منك!

تردَّدَ بداخلي صوتُ جدتي بصفاء، وارتسمت على وجهك صوتها، عندما كانت تطحن بالرَّحى الحنطة، والشعير وهي تنشد القصيد، شعرت أن صوتها يصدر من داخلي ويعبر الأثير إلى فضاء الرياض، تردّد إحدى القصائد التي تحفظ، هذه القصيدة تصف حالتي هذه اللحظة معك، وكأنها تقوِّيني على مصابي كما كانت تفعل معي دائمًا.

مل قلب فرّ وافترّ مثل المروحه
لا إلتمس بالكهرباء الماس زود فرها
صاحبي ناوي بذبحي وانا ما أقوى أذبحه
شب في قلبي سنا نار يشوي حرّها

لا أتذكر أني حفظت عنها هذه القصيدة. لعلَّ أداة ما نقشتها بداخلي من حيث لا أعي، ربَّما أراد القدر أن أنشد على خيبتي الماثلة أمامي قصيدة.

تحرّك طرفي وتحرّك معه ما توقّف بي لعدة ثوانٍ، كمَنْ عاد له الوعي بعد أن طالت غيبوبته سنوات، كشيءٍ ذهب، ثم عاد إلى ذهني ينبِّهُني مَنْ أنا، وماذا أفعل هنا، ومن يكون هذا الماثل أمامي، وأنّ عليّ التحرُّكَ حالًا، وأنَّ عيني العوراء لا غطاءَ عليها، تداركت اللحظة. غطَّيت عيني بسرعة، واستدرت إلى جدار الساعة الذي كنت أجلس تحته، كحلقة ملقاة بأرضٍ فلاة.

لو أنه يستطيعُ أن يقرأنيَّ على الأقلّ من عيني المبصرة التي أساء لها، وعيَّرني بها أكثر من أختها الخرساء لما استدرت.

وددتُ لو أن الأرض تسمع لأمنيةِ كلّ منكوب، وتفعلها، وتنشقُّ عن فمها، وتبلعني حتى أسقط بجوف السابع. وأنتهي بهذه السهولة!

أخذتني شوع من يدي، وساقتني وراءها، كفتاة يتيمة، وفقيرة بكت طويلًا أمام دمية حتى جفَّت مدامعُها، ولم تملكْ أمها إلَّا أن تجرَّها بعيدًا عن أمنيتها المستحيلة، أمشي وأشعر أني أمشي فوق سنوات عمري. ضياعي، وشقائي، ووحدتي الغبراء.

كم أخذ الزمن من طاقتي حتى يفرِّغنيّ من أيَّة ردّةِ فعلٍ تبدو عليّ، من أجل أن يفهم الآخر موقفي.

لم أعد أملك إلّا أن أصمتَ، وأقفَ بانتظار قوّة خارجيّةٍ تغيّرُ معادلةَ الموقفِ.

يا الله!

ارتطمت بالصدفة، وابتلعت لساني من شدّة ارتطامي بها، عقلي الذي كان يشوّح بوجهه عن المنطق، والعدم، ويعزو كلّ أحداث حياتي على كَتِفَيْ قلبي المؤمن، حيث يقف أمام إرادة الله العظمى، ثم يَخِرّ ويسجدُ ويحملُ ما تساقَطَ مِنْ حمولِهِ من جديد، وهو راضٍ بها، صار لا يقف عند حدود التساؤلات؛ بل ويذهب إلى ما هو أبعد. يذهب إلى المشي فوق ألغام التفسيرات.

وصلنا باب بيتي وما زالت شوع تتحدث، ولا يمكنني أن أفهم ضجيجها، وصولتها وكأن الله أنبت من جَنْبَيَّ ذراعين طويلتين تطبقان على أذنَيّ حتى تعزلا ضجيجي الداخلي عن الضجيج الخارجي!

سحبت الخيط الأزرق المتدلّي من ثقبٍ على باب بيتي الخارجي، وسحب هو بدوره زناد القفل من الداخل وانفتح الباب، دخلت وكمْ كنت أتمنى أن تذهب شوع لبيتها من هنا ولا تدخل معي، لن تسكت هذه المرأة، حتى أفسر لها كلّ ما حدث.

وقفت في منتصف حوش داري الصغير، ووقفت شوع خلفي تستنطقني حرفًا تُهَدِّئ به من معمعتها، استدارت حولي، أمسكت بيدي، قالت بعينين متسائلتين: قولي لي ولو كلمة بماذا تشعرين؟

ضممتُها إليَّ، أشعر أني توقّفت في وسط الحياة تمامًا يا شوع، بين جثامين الذكريات التي تستسقيني شربة الخلود، ورضيع النسيان الذي يأبى هو وقلبي فطامه.

تداويت؛ بل قضيت عمري بالتَّدَاوي، ولم يشفِ دوائي دائيَ، أو يخفيه.

أَرْذَلُ الْفَقْدِ...

أذَّنَ المؤذِّن أذانَ النباه، وما زلت مستلقيةً على جانبي الأيمن منذُ عدنا من السوق بعد صلاة الأخير، دماغي مشوّش جِدًّا. تارة أتأمل الحاضر، وتارة أتذكّر الماضي، وثالثة تنسَلّ عليّ أوجاعي وآلامي من كل حدبٍ وصَوّبٍ؛ حتى أبكيها واضعةً يدي على فمي لا أصدِرُ صوتًا يوقظ شوع من نومها، وتقلق عليّ، وتعاود فتح باب الأسئلة الذي أغلقته في وجهها بمشقَّة، آثرت النوم معي هذه الليلة على أن تَدَعَنِي أنام وحيدة، بها أو بدونها لم تخفق عيني في النوم دقيقة انقضى جُلّ الليل، ولم أشعر بعيني ترمش رمشه واحدة، كانت جامدة باردة ساكنة بلا حياة، أو روح، وكأني أُخرجتها بسَأَم من الثلاجة، وألقيتها في تجويفها فقط من أجل أن أُبْقِي على خسارة واحدة!

وضّبَتْ شوع لنفسها من الجهة اليسرى لجانب سريري فرشًا ومطارحَ وافرة متراكمة فوق بعضها البعض؛ حتى تعطيها إحساس السرير المريح لنومها، حاولت أن تسامرني أول الليل تجُرّ من فمي كلمة شاردة، أو ضحكة كاذبة، لكن لا جدوى، ما استطعت مجاراته، ولا الالتفات نحوها، ضَجِرَتْ من صمتي حتى غالبها النُّعاس، كانت تجاهد عينيها ألَّا ينتصر عليها النوم؛ لكنه غلبها بتواطؤ الجهد، والتعب.

أدليت بكلتا رجليَّ من على السرير إلى الأرض، رفعت ظهري متهيأة للنهوض، أردت أن أتوضَّأ، وأصلي قبل أذان الفجر التالي، لعلّ ركعتين من الوتر تربطان على قلبي بعماد الله، وتثبته، وتقيم انحناءة،

هـذا العمـاد طالمـا تسلّقت عليهـا للسمـاء دعـواتٌ وابتهـالاتٌ محفوفـةٌ بالأمنيـات علـى طبـق مـن الرجاء، والتوسل من متعبِّدة وحيـدة وفقيـرة إلّا مـن ربهـا، بـأن يتقبلهـا، ويفتـح لهـا أبـواب الاستجابة، وطالمـا تنـزل من عند اللّه على قلبي طمأنينة ورحمة، وتباشير تغمر وحدتي، وتغني فقـري، وتعزِّي أحزاني.

هممـت بالنهوض، وفجـأة أوقفنـي شـيءٌ دافـئٌ انسـاب علـى فخذي، وبدأ يتقطع ويقطـر علـى الأرض من عنـد مفصـل ركبتـي، لا أظـن أنـي تبوَّلـت علـى نفسـي، شـرَّقت بـي هواجسـي وغرَّبت؛ لكنـي لـم أغـبْ عـن الوعـي، ثـم إن جريـان هـذا السـائل أغلـظ مـن البـول، الضوء مطفـأ، ولا أسـتطيع تمييـزه إلَّا بمـا ينقـل عنـه إحسـاس جلـدي، لملمـت ثوبي، وحشـرته بين فخذيّ، عسـى أنـى أقدر على حسـر تدفُّقه، صككت رجليّ على بعضهما، وبينهما ثوب يمتصُّ شيئًا مَجَّهُ بطني دفعة واحدة، مشيت بخطوات متراصّة نحو الزِّرّ الكهربائي لضوء الغرفة، لم يخطر في أقرب، وأبعد ظني أني سأرى ثوبي يسبح في بقعة حمراءَ من الدم، لقد قطعتني العادة ممّا يقارب الثمانية أعوام لِكِبَرِ سِنّي، كيف لرحمي أن يستعيد ذاكرته الآن.

فـي حيـن يَأِسَ قلبـي المغلق مـن أن أفتحـه لـزوج، يَأَسَ جسـدي المفتـول بـدوره مـن أن ينجـب طفـلًا، أنَضَبَ رحمـي على نفسـه؟ ونسـي مع الوقت ماذا يمكن له أن يعطي، شاخ ودخل في سبات أقرب للموت.

تساءلت بكلّ ما في العالم من تعجُّب!

مـن أيـن لـي أن يتدفَّـقَ كلّ هـذا الـدم، وكأنـي طرحـت طفـلًا الآن؟! تناولت بعض الخرق القديمة من خزانة ملابسي، هذا شرشف للصلاة تغيَّر لونُهُ من أَدائي صلاتَيِ الظهر والعصر في سرحة البيت

تحت الشمس، والتحافي به وقت مقيال الظهرية في السرحة، وهذا مِلْفَعٌ ملوّنٌ لم أعدْ أرغب بارتدائه، مزّعت الخرقتين إلى خِرَقٍ صغيرة أضعها موضع الدم لتقيني اتِّساخ المكان، والتلوث به.

أخذني هذا الشعور إلى الطفلة التي تحوَّلت لامرأة بفارق دقائق بين المرحلتين العمريّتَيْن المتباعِدَتَيْن بحكم عدة قطرات من الدَّم تساقطت منها، وهي تقفز بين البنات والصبيان فوق مراحل لعبةَ مخطَّطَة على تربة الشارع، بعد هذا العمر فهمت أن لعبة أم خطوط التي خسرت جولتها ذلك النهار لم تكن إلَّا رسمًا لقدري.

على مدار المراحل التي قطعتها في حياتي كان لخساراتي نزيف، هل قدري أعمى بصر، أم أعمى بصيرة؟! لم يفرق يومًا بين اللعب والحقيقة.

كنت في ذلك اليوم الصيفي، أقفز على قدم وساق بين المستطيلات المخطَّطة برماد حطب الطبخ الذي نجمعه من مطابخ بيوتنا. ممسكة بضلع بعير بين أصابع قدمي التي أقفز عليها، أشرع ذراعيّ بشكل أفقيٍّ حتى أحقِّقَ الثبات، في غالب القفز كنت أهتزُّ وأتوازن حتىً أتمكن من الوقوف منتصبة القامة، حتى وإن تحركت غرّة شعري، ودخل شيءٌ منها في عيني، كنت ألفح برأسي يمينًا، أو شمالًا، ولا أطلب من يدي المساعدة.

وفي بعض القفزات تلتوي قدمي، وأسقط، وأعاود الوقوف بسرعة، أكابر على ألم الالتواء من أجل أن أتخطَّى كلّ المراحل، وضلع البعير بين أصابع قدم واحدة وساقي الأخرى مثنيَّة، وأكسب اللعبة متحديةً الصِّبْيان، والبنات بملء الكفين قريضٌ ملوّن مخلوط بعجوة المدينة.

آه على روح التحدي التي قُبضت بعد خسارتك لي، وآه على ذلك النهار الذي مزَّق خارطة طفولتي.

كان توقيت نزول عادتي الشهرية لأول مرة فاضحًا جِدًّا، لا أظن أنّ شخصًا ممَّن كان في ذلك الشارع نسي الموقف، ضحك من ضحك، ودُهِشَ مَنْ دُهِش، وعاب من عاب، أنهرت باكية، وسقطت على الأرض. كنت أظن أنني سأموت، صرخت بعلو صوتي وبكيت " مابي أموت.. مابي أموت! " كانت يداي تحفران بتراب الشارع من الخوف لا أعرف لِم كنت أحاول أن أتمسَّك بالحياة بكلِّ تلك القوة؟!

أحاطت بي دائرة بشرية من أطفال السوق، من كان يلعب معنا، ومن كان قريبًا، ومن كان بعيدًا، ركضت حَصّة لجدتي، وأبلغتها أن العادة وافتني أثناء لعبنا أم خطوط في السوق، تناولت جدتي قطعتين من الأقمشة التي كانت تشتغل على تفصيلها، وتطريزها فساتين لإحدى نساء الحارة لتستر بها بدنها الممتلئ، وقطعة أخرى تسترني بها وتخفرني عن أنظار الشباب والرجال.

كانت صديقتي وجارتي حَصّة لديها أختٌ أكبر مني، ومنها بسنتين، قد بلغت مبلغ النساء من الحيض قبلي وقبلها، وأحاطت أختها خبرًا في أمور العادة وأشياء أخرى.

أخذتني حَصّة وجدتي للبيت، كانت أمي لطيفة تهلِّلُ وتصرخ بالتبريكات، تقبلني على رأسي، وتمسح على ظهري، وتدعو من كان حاضرًا من النساء والأطفال على عشاء عزمت على إقامته غدًا بهذه المناسبة العظيمة.

أدخلتني جدتي للمطبخ رأسًا، وكان باعتقادي أنها ستأخذني لأغتسل وترسل حَصّة لأم فلاح الطبيبة الشعبية لنسوة الحارة، لتكشف على أمري، وتعطيني "سفوف" أو "لهوم" يوقف دمي ويمنع عني الموت.

أجلستني جدتي في منتصف مطبخها البَرِح، وأمرت مرزوقة الخادمة المملوكة أن تحضر لنا شوال الرز، وشوال السكر، وأيضًا شوال القمح، بكيت بشدة، ضغطت بكلتا يَدَيَّ على بطني من الخوف الذي حرَّك الألم المفاجئ، كان بداخلي حنق على جدتي عظيم، كيف لها أن تفرح، وتدعو لعشاء، وتأخذني للمطبخ، وكأنها ستسلخني فور موتي وتقدمني غدًا للمعازيم والضيوف!

طلبت مني أن أضع يَدَيّ في الرز والسكر، والقمح قالت لي: إن لمستي لمؤنة البيت ستجعلها مباركة هنيئة مريئة طيبة وسائغة!
وإن ما حدث معي ليس إلَّا تحوُّلٌ في حياة بنات حواء سبقتني إليه كل النساء، وستلحق بي كل البنات الصغيرات.

واستني، ومسحت دموعي، وناولتني شرابَ منقوعِ الكمّون، والنعناع ليخفِّف آلامي، قالت لي كلامًا لم أفهم معناه، ونسيت نصفه يومها؛ لكن عندما كبرت تذكَّرتُهُ حرفيًّا وفهمته تمامًا.

" يابنتي، عندما كنت بعمرك أو أصغر منك قليلًا كان معي عمّك سعد، وكنت حاملًا بوالدك، زوّجني والدي فور بلوغي عمر التاسعة، وقبل أن أبلغ مبلغ النساء بعام كامل كنت طفلة مثلك تمامًا، ناداني والدي من الشارع الذي كنت ألعب به مع أبناء عمومتي، ناداني بملابسي المتَّسِخَة، وشعري المنكوش من أثر اللعب مع الصبيان إلى مجلس الضيوف، ثم أمرني أن أسلّم على الرجال وأقبّل رؤوسهم، كان عددهم ثلاثة رجال اثنان منهم بعمر والدي، وواحد أصغر منهم بعمر أخي حسين الذي يكبرني بعشر سنوات، أشر لي والدي بأن أجلس بجانبه، ثم التفت على الرجال وقال لهم: هذي أكبر ما عندي إن صلحت لكم زوجناها، التفت الرجال على الشاب الوسيم المهندم الذي يمسك بأطراف ضحكته علي، ويرمقني بعين خجولة من آخر المجلس سألوه عن رأيه، ثم قال: إيه موافق. أبيها، أخذني أبي لأمي وقال لها: جهزوها عرسها بعد بكره.

- أجهشت بالبكاء فجأة، شككت أنها تلمِّح لي بالزواج قلت لها: يعني بتزوجيني يمه لطيفة؟!

- لا يا بنيّتي اسولف عليتس بقصتي بس لا ترتاعين، مازوجتس بأغلى الأثمان.

- قالت مرزوقة بحماس المستمع: عمتي كملي سالفتس!

أرادت جدتي أن تحور الكلام عن مساره؛ حتى لا تنجرّ إلى كلام لا يقال بحضرتي، غمزت بعينها لمرزوقة، وعضّت على شفتها؛ لتسكتها بشكلٍ أنيقٍ، ثم وبّختها وقالت:

- أشوف حلت لتس السوالف قومي شوفي شغلتس ورانا باتسر عزيمة مطنطنة!

قامت مرزوقة من مقامها، وفمها محشوّ بكلام كثير.. حلطمات، واعتراضات انتفخ منها خَدَّاهَا، ولم تُخرِجْ من فمِها حرفًا غير تنفيسها لأنفاس الغضب، كان احترامًا مقمعًا بالخوف من أمي لطيفة.

أخذتني جدتي إلى "الروشن" الخاص بها، رفعت الفرش، والمطارح التي كانت تسندها على الجدار الطِّينِيّ بجانب الدّكَّة المحشُوَّةِ بالقطن، والصوف. كنا ننام عليها معًا، وأخرجت من فتحة الخزانة المربَّعة المحفورة داخل جدار "الروشن" صندوقًا حديديًّا كنت أراه لأول مرة، ولا أعرف بأمره، وأنا التي ألبس، وأدرس وأنام وأصحو معها بغرفتها هذه، ما كنت أرى غير صندوق لوازم الخياطة الذي يحتوي على الأقمشة والخيوط، وإبر التطريز، والمقصّات بجانب ماكينة سنجر اليدوية التي تخيط بها فساتين نساء الحي، وبناتهنّ في باحة البيت تحت ظلال المصابيح الباردة.

بدا لي وقتها، وقبل أن يصير هذا الصندوق إلى أملاكي، وأول ما أفتح عليه عيني وآخر ما أغلقها عنه، أن له قيمة عظيمة عند جدتي، ويحوي أشياءَ ثمينةً، وإلَّا ما كانت خبَّأته بعناية وتحرُّز، فتحته بفرحٍ، وكان حضور طاقة سعادتها تزاحم طاقة وجعي، وحزني وخوفي منْ يوم القريب، وموتي في أيَّة لحظة.

كانت جدّتي تودِعُ به أملاكها من مجوهرات عرسها، وأخرى ورثتها عن أمّها، وجنيهاتٍ ذهبيةً، وأوراق مِلكِيّة بيوت، ومزارعَ خارج الرياض.

أخرجت أمي لطيفة من الصندوق فستانًا لونُهُ زهرِيّ بمقاسي تمامًا، طُرِّزت عليه زهور ذهبية من تحت الصدر، ومن فوق الخصر، وسحَّاب طويل من الخلف، وأبتين ذهبيتين حول فتحة العنق، وأكمام مزمومة من الكتفين إلى المرفقين، وواسع فيما بينهما، وحزام ذهبي عريض يلفُّ على خصري، ويُرْبَطُ من الخلف.

أخذ الفستان قلبي، وعقلي، وأنساني أمرَ الدَّمِ الذي لم أعرف له مصدرًا، ولم أفهم له سببًا.

" هذا الفستان يابنتي خطّتُهُ لك، عملتُ عليه منذُ بدأت عليك علامات التغيّر والنضوج، منذُ أن لحظت أن ملامحك تبرز، وجمالك يظهر ويَشُدُّ العين والقلب إليه.

أوقفني أمام مرآة صغيرة معلّقة خلف باب "الروشن"، وقفت خلفي، ووضعت الفستان من أمامي على صدري، وأكملت حديثها، وهي تتحسّس أجزاء جسدي: وجهك يابنتي بدأ يصفو، وينير ويستدير، بشرتك تمتس وتشع نضارة، صار في عينيك لمعة الشباب واكتحال الفُتُوَّة، وشفتاك تمتلئان وتزهران، أصبحتِ عبلة الذراعين، مرتكزة الكاعبين، وردفاك تأخذان تقوّسًا بعيدًا عن انحناء خصرك، عرفت أنك ستصبحين امرأة قريبًا، لقد استعددتُ لهذا اليوم كثيرًا، وانتظرتُهُ طويلًا، حتى وإن فرغت منه سأستعدّ ليوم عرسك".

وما كنت أعرف أنَّ جدَّتي قضت الباقي من عمرها، وهي تستعدّ ليوم عرسي الذي سقط عمدًا من حسبة الأيام.

أخرجت من الصندوق الحديديّ صندوقًا خشبيًّا متوسط الحجم، وقالت لي: هذا الذهب والجنيهات التي في هذا الصندوق ستغنيك، وتغني أبناءك وأبناء أبنائك، ستلبسين وتتزيّنين، وتملكين كلّ ما أملك.

كان لجدَّتي أربعة أبناء من دون بنات، لم أكن لها حفيدة فقط، لقد كنت البنت التي لم تنجبها، وكأنَّ الله أكمل نقصها بي، وجبر كسر أمي بها.

طرق طارقٌ على باب الروشن وكانت ثلاث طرقات متباعدة، وأخريين متلاحقتين، هذه الدَّقَّات كانت جرس أبي، وأسلوبه الخاص في الاستئذان للدخول، لملمت أمي لطيفة أسرارها، ورفعت المزلاجَ الخَشَبِيّ، وفتحت باب الروشن لأبي، سلّم على جدَّتي وقبَّل رأسها.

- تقول مرزوقة باتسر عندنا عزيمة، خير إن شاء الله منهو له العزيمة.

- أبشرك. وطفاء غدت مَرَة.

- لاااه، مبروك يا بنيّتي جعلي أشوف عيالتس، الحين عاد غديتي مَرَة الله الله بالصلاة والصيام واللعب بالشارع مع الصبيان ما عاد نبيه.

ثم قال، وهو مدبرٌ ويضحك: " اليوم سوي لنا العشاء".

أخفيت وجهي بين الوسائد خجلًا من أبي وأنا أداري دمعتي، شعرت بأن الجميع يسخر مني، ويخدش طفولتي وحيائي، كرهت ما أنا فيه، وما صرت عليه، لا أحد يشعر بكارثتي! كلهم يتباشرون، ويتغامزون ويتلامزون، وأنا الباكية الدامية، كدت أن أُمزق ثيابي، وأن أُقطع شعري بِيَدَيَّ. حين أمرني والدي بأن أجلس في البيت، وأمتنع عن اللعب في الشارع، هذا يعني أن ألبس عباءة، وأغطي وجهي عن أصدقائي الذين هم بعمري أصلًا، وألَّا أخرج من الدار إلَّا مع جدتي أو أبي.

كان يوم نياحتي الأول، أنوح على الشارع، وأصدقائي حتى يشتَدّ عليّ الوصب، وينسيني إياهم، وما أن تخفّ أوجاعي، وتعود ذاكرتي لهم أنوح عليهم من جديد.

تعلَّقت مشنقةُ الطفولة في عرض الشارع، وشنقت طفولتي أمام الملأ حتى نزفت دمًا طاهرًا بريئًا. اختلط بغبار العابرين واللَّاعبين، والكادحين، وعُجِنَ بتراب أقدامهم حتى تشكّل منه امرأة عمرها إحدى عشرة سنة!

في صباح اليوم التالي أيقظني صوت مرزوقة من بعيد، وهي تقصد أبياتها الشعرية المفضَّلة لقصة حبٍّ ملحمِيَّةٍ كما حكتها لي

لا يا خلف يالفغم وأين انت عنا
ليتك ضحى العيد عندي تشوفي
خضبت لك روس الذوايب بحنا
ومن الغيا خضبت حتى الكفوفي

أقبلت عليَّ تتراقص، ومعها آنيتان، بإحداهما عجنت السدر، وأوراق الريحان والورد المجفَّف، والمسك والظفر، وبالأخرى مسحوق الحِنّاء المخلوط بماء الورد، وكان معها أربعُ قطع من قماش الشاش القطني مقصوصة بشكل مربعات كبيرة.

دنت مني، وهمست باسمي بدلال، افتعلت النوم وصدقت، أخذت أوانيها، ووضعتها خارجًا، ثم عادت وجلست فوق الدِّكَّة التي أنام عليها بالقرب من قدمَيَّ، وبدأت تعبط وتدلك وتنادي باسمي، لتوقظني من غير كَدَر، ثمّ صارت تحدّثني وتغريني بما صنعوا لي وما سيصنعون.

يئست من أن تحرّكَ بي ساكنًا، فعاودت على إنشاد القصيد، كانت مرزوقة تحفظ معظم ما تحفظه جدّتي من الموروث الشعبي، القصائد بحكاياتها، والروايات الحقيقية والخرافة، هي بطبعها حكَّاءة، وتغزل من كلمتين بسيطتين حكاية عظيمة، وحين يفتح بحضرتها موضوع نجدها أقوى المنصتين، وبغيابها أشدّ مَنْ يسترق السمع، لها معرفة بما نخبرها، وما نُسِرّهُ عنها.

أنشدت قصائد طفلة بنت الدويش عدة مرات هذا الصباح، كانت تحبها كما لو أنها عاشرتها، قالت لي ذات ساعة صفا بيننا أنها حلمت برجل سنافي كما حلمت طفلة بحبيبها السنافي، لكن الأحلام مهما بلغ عظمها تبقى طيورًا صغيرة، وشفّافة، ولامعة تجيد الرفرفة برقة فوق حاجاتنا، ولا تجيد الهبوط عليها.

شعرت أن لهذه القصائد قصة رائعة وخالدة، رفعت رأسي لها، وطلبت منها أن تحكي لي قصة القصيدة، بدا على وجهها الأنس والسرور، أكثر ما تحبه مرزوقة أخبار الحكايات والقصص، ربَّعت رجليها على الدكة، وجلست بانتصاب. تنحنحت وقالت: "كان يا مكان.. في قديم الزمان.. وسالف العصر والأوان، في مدينة قريبة خلف الهضبة الفسيحة، تعيش فتاة ذات حسب ونسب، وتملك مالًا، وجمالًا. تقدّم لخطبتها أبناء العم، ومن لا يحمل نفس الدم، الفرسان والأعيان، والأغنياء والأمراء، لكن قلبها أشاح عن الجميع، وتعلق فكرها بالرجل البديع، كان رجلًا كريمًا شجاعًا جسورًا، شهمًا جوادًا بأصله فخور، صيتهُ سابق وفعلهُ لاحق، فارسٌ تحلّي بأكرم الصفات، شاعرٌ نظم أبلغ الكلمات، لقَّبوه بالسنافي، وهو للوعد وافٍ، أرادت طفلة أن يكون السنافي زوجها، وأن يقع بحبها، وجمال وجهها، دون أن ترخّص كبرياءها، أوتجرح عفافها، فكرت وفكرت، واستعانت بجاريتها ودبرت، وفي اليوم الموعود امتطت الجميلة القعود، وسارت للماقفة سوق البدو الموجود، حيث تباع وتشترى بين الناس الأنعام والجلود، أمرت جاريتها بأن تقف، وتنادي بصوتها وتهتف، مَنْ يسوم القعود؟ حيوان قوي جَلُود، اجتمع كل الرجال وثمَّنوه بأغلى الأموال؛ لكن الجميلة المختبئة بالغبيط. تدّعي أن الثمن بسيط، قالت الجارية لن نبيعه إلَّا لخلف الفغم ذلك الفارس الشجاع الشهم، تناقل الناس الخبر، وبإذن الفغم وقع السبر، أقبل خلف ممتطيًا جواده للسوق وصاح الناس: أقبل الرجل الخلوق، سمعت طفلة باسمه، وشاهدت بعينها رسمه، نادى الفغم بالناس من قال: خلف بين الأجناس، فتحت

الجميلة الشف، وبدا وجهها، وحسنها انكشف، رأها خلف، ولحُسنها أَلِفْ، أمرت طفلة جاريتها بالتحرك والابتعاد، وما كان من خلف إلَّا التدارك والانقياد، ثم سأل الجارية: مَنْ صاحبة القعود الذي بالسوق موجود، قالت: صاحبة وطبان الدويش عمها الذي بكنفه تعيش، ذهب خلف لعمها بصفته خطيب، وطلب الزواج بها. وكانت له نصيبْ".

لم أستطيع أن أتخيّل القصة، وأنا مغمضة العينين، كانت عيناي مفتوحتين لأخرهما، متعلقتين بسقف الجريد، كنت محشوةً بالسعادة لأجلهما.

أتخيل السنافي الفارس، وأرسم صورة للطفلة الجميلة، أعجبت جِدًّا بذكائها وثقتها بنفسها، كان إدراكي أضعفَ من أن يعِيَ أن النصيب يؤخذ بسهولة، ويعطي بتحدٍّ.

- شرايتس أقص عليتس قصتن ثانية، وأنا أسبحتس وأمشط شعرتس وأحنيتس.

لم تسكت يومها مرزوقة.. حكت لي جُلَّ ما تحفظه من قصائدَ وروايات.

كانت قد جهَّزت لي ماءً دافئًا أستحمّ به، وخليطًا من ورق الطلح، والشنان، والسمح المزبدة بالماء لتفركَ بها جسدي وتغسله، قبل أن تتكعب النظافة والرائحة العطرة بمكعب أبو عنز الصابوني. نغسل به أجسادنا، وملابسنا، وأوانينا، كانت الأعشاب مصدر اغتسال، ونظافة طبيعيٍّ وجَيّد.

استحممت بالأعشاب، واختضبت بالحناء، وتلفلفت يداي وقدماي بالشاش القماش القطني الخفيف كثير الثقوب، وامتشطت شعري بالسّدر، وزُيّن بأوراق الريحان. ومسحوق الذرير البرتقالي خُطّ على مفارق رأسي، وُضِعَ شيءٌ من المسك والعنبر وزهر العصفر، وصبغ برتقاليّ، ثم لبست فستاني الزهريَّ الجديد، رقتني جدتي، وقرأت عليّ المعوذتين، والأذكار الطاردة للشياطين، والعائنين، والحاسدين، وعلقت بداخل صدر الفستان حجابًا كتبت عليه آيات، ودعوات ورجوات، ثم سقتني ماء العزائم المكتوبة بالزعفران، وماء الورد وماء زمزم، تبخَّرت بالبخور الهندي، وتطيَّبْت بالعود العربي والصندل والمسك.

كانت أبواب المنزل مشرعةً منذُ زوال الشمس، اجتمعت صديقاتي، وجاراتي وبنات عمومتي لنلعب سويًّا داخل أسوار الدار، لم تكن لعبة طبق لولو، ولا لعبة العرائس التي تصنع لي جدتي الكثير منها من فائض قصاصات الأقمشة، تعني لي الكثير كانت عيناي على باب الدار ترقب الشارع ومن لا يزال يرتع ويلعب في رياض الطفولة المباحة.

تحت ظلال مصابيح بيتنا جلست منيرة أخت حَصّة الكبرى معها فتيات بعمرها يسررن القول لبعضهن، ويتضاحكن فيما بينهن.

لأول مرة أشاهد فرحة لم أشهد مثلها في الشارع من قبل، فرحة تختلف عن فرحة الانتصار، والتحدّي، واللعب كانت سعادة من نوع آخر، غامرة، وفاضحة إعادة تشكيل ملامح هيلة بشكل أكثر رقة وأنوثة وجمالًا، وجعلت لبقية البنات أحلامًا وأمانِيَّ تتراقص بينهم كشياطين عشقٍ، وحسد.

قالت لي حَصَّةُ بعد زمن إن هيلة كانت تقرأ رسالة كتبها لها حبيبها ضاوي ابن العم "أبو ضاوي" صاحب دكان البهارات في حي الفوطة الذي كنا نسكنه في حينها، كان ضاوي يعمل مع والده في دكانهما الخاص الصغير، وهو عبارة عن جزء اقتسماه من بيتهما بُنِيَتْ حوله حيطان طينية، وفُتِحَ له بابٌ خارجي على السكة لاستقبال الزبائن وبه باب داخلي مطِلّ على بطن البيت يدخل ويخرج منه أصحاب الدكان، هناك التقى ضاوي بهيلة، وسرق من عينيها أولى نظرات الإعجاب، وبادلها أولى نبضات الحب بين الخيش المملوءة بأوراق الغار والليمون الأسود، وحبوب الكزبرة المجففة، وأعواد الديرم، وبين كثبان العصفر البرتقالي، والحنَّاء شديدة الخضرة، والزنجبيل المائل للون الأصفر، والشاي السيلاني، ربطات من الثوم والبصل والفلفل الأحمر معلقة على باب الدكان التي كانت بطوله تقريبًا، كان هواء الدكان مشبعًا بعبقِ القهوة المحمّصة، ورائحة الهيل القويّة النفّاذة، والقرنفل، وخليط البهارات الخاص بأم ضاوي.

أرسل ضاوي رسالته مع أخته شما صديقة هيلة ومنيرة، وضمنها بخبر طالما انتظرا وقوعه. "غدًا أبي سيتقدّم لخطبتك لي"، كان يسوق لها بشرى اجتماعهما الأبديّ. كما ظنّا وقتها على الأقل.

كان دخل ضاوي من عمله مع والده ضعيفًا جِدًّا، كما كانت الحياة العامة ذلك الوقت ضعيفة وزهيدة، ودخله لن يكفيه لآخر اليوم إذا قُسِّمَ على اثنين هو وزوجته، كان ضاوي شابًا طموحًا، ومحِبًّا جِدًّا لهيلة أراد أن يلبسها الذهب، والحرير، ويجعل لها بيتًا كبيرًا تحسدها كل بنات الرياض عليه، يقول لها على عَجَل حين يقفان في آخر السِّكّة، أو عند باب الدُّكّان، ويبنيان حلم الحياةً معًا، أنتِ سيدة بيت التاجر الشيخ ضاوي.

تم وعد ضاوي لهيلة بالوقت المحدَّد، وخطبت هيلة في اليوم التالي -من عزيمة جدتي العبثية التي لم أقتنع لليوم بمناسبة إقامتها- لكن والد هيلة كان يعرف بحال ضاوي الضعيف، وتردَّد في قبوله زوجًا لابنته حتى تبرّع العم "أبو ضاوي" وقال لوالد هيلة: "ضاوي زوج فراش، وأنا زوج معاش" تكفّل العم "أبو ضاوي" بنفقة هيلة بدلًا من زوجها، وأقام لها عرسًا رقصنا فيه حتى ما يقارب منتصف الليل بقليل، مضت أشهر على زواج الفراش، لكن أحلام ضاوي بالمعاش والتجارة أثقلت رأسه، وأراد أن يكون كما يحلم تاجرًا في صنعته وصنعة والده من قبل، قرر ضاوي السفر للكويت للعمل وكسب المال؛ ليبدأ تجارته الخاصة.

رحل ضاوي، وترك زوجته في بيت أهله يرعونها، ويرعون حملها الأول الضعيف، وعد ضاوي هيلة ألَّا يغيب عنها طويلًا، وأنها لن تلد إلَّا بحضوره، وهو من سيسمي طفلهما الأول، ويؤذن بأذنه اليمنى، ويقيم إقامة الصلاة بأذنه اليسرى، ليحميه الله من أم الصبيان ساحرة الجن التي تخطف من الإنس أطفالهم الرُّضَّع، تسحبهم ليلًا بأرجلهم من جحور أمهاتهم، وتقضم رؤوسهم الصغيرة اللذيذة.

بعد وصول ضاوي للكويت بأيام أرسل خطابًا يطمئن به زوجته ووالديه وإخوته على نفسه ، كتب لهم بسعادة أن التاجر الهندي الذي تعرّف عليه في سوق التجار القريب من البحر، أقنعه أنّ الهند الموطن الأول للبهارات، وأنها أفضل مكان يبدأ به تجارة التوابل، وأنه فكّر، وعزم على الإبحار معه للهند للعمل والتعلم!

ضمن رسالته برسالة خاصة لزوجته أعرب فيها عن حبه وشوقه وتوقه لها، وأن غيبته ربما تطول؛ لكن قال لها ألّا تخاف، ولا تقلق؛ لأنه سيعود في أقرب وقت لها، ويلبسها ذهبًا بالدقة الهندية المميَّزة، وأن معاشها سيصلها كلّ شهر من تعب زوجها وكدحه إلى أن يعود ويبدأ تجارته في الرياض.

قُبض قلب هيلة. ولم ترتَحْ لكلمات ضاوي.. شعرت بشيءٍ خفيٍّ بين سطور رسالته، وأن غيبته ستطول جِدًّا، ندمت لأنها لم تتعلّق بشماغِهِ وثيابه، وتذهب معه لآخر الدنيا، خافت من أن ينساها، وينسى حملها، وتأخذه الغربة، والتجارة ولا يعود، كانت وحدها مَنْ يعرف عُلُوَّ سقف طموحات ضاوي وأحلامه.

بمرور الوقت القصير بدا على ملامح هيلة الذبول من القلق والخوف، والوحدة والتعب والحمل الشاقّ، أضفى الحزن على جمالها لمسة أُنْثَوِيّة عميقة، وطوَّقت هدوءَها عزلةٌ باهته، كانت أم ضاوي امرأة سليطة لا ترحم. قست على زوجة ابنها كثيرًا بالعمل داخل المنزل، وأبعدتها عن أهلها بحجّة أن المرأة تبقى ببيت زوجها إلى أن يموت، وأنها و" أبو ضاوي" مسؤولان عنها، وعن حفيدهما بغياب ابنهما، استغلّت "أم ضاوي" ضعف هيلة وأخلاقها العالية، ولم تضع اعتبارًا لجود أهلها، واحترامهم لغيبة زوج ابنتهم، وسكوتهم عن أفعالها بابنتهم، كانت هيلة حين تشتكي لأمها، وتبكي في الزيارات المتقطعة، وتحكي لها عن ثقل الحياة الملقى على عاتقها، ولا يبدر من والدتها سوى كلمات تثبِّت بها ابنتها، وتقويها على وحدتها.

مضى على أول وآخر مكتوبٍ أرسله ضاوي لأهله، وزوجته شهور، ومضت شهور على مكاتيب هيلة التي لا تصل إليه.

خلال هذه الشهور وضعت هيلة في بيت "أبو ضاوي" حمْلها. كان صبيًّا يتمتع بالصحة الجَيِّدَة والجمال، منذ أن اقتربت ولادتها ساءت حالتها النفسيّة أكثر ممَّا كانت عليه، وعود ضاوي لها لا تفارق رأسها، مع كلّ طارق يطرق باب دارهم، كان قلبها يقفز من صدرها، ويقف خلف باب البيت يتلو دعوات وصلوات، كانت تستبشر بالضحكات على الوجوه لأيِّ سبب يخصهم، وتظن أنها سعادة الناس بعودة زوجها، عيناها متعبتان، مترقبتان لا تهدآن. ولا تنامان.

ولدت هيلة ابنها، وهي تبكي ألم الفراق، لا ألم المخاض، أوجعها الفقد، والغياب وجرحها كثيرًا، كانت القابلة التي وُلد على يدها ضاوي الصغير امرأة حكيمة، قرأت أوجاع هيلة من آهاتها، ولمست جرحها المفتوح ومصدر آلامها، فلم تكتفِ بوضع الطفل على صدر أمه من فوق ثيابها؛ بل أصرّت على إدخاله في جيب صدرها، علَّ ملامسة بشرتها لبشرته الحارَّة تهدّئ قلبها، ويعود إليها شيء من قوتها التي فقدتها في غياب زوجها، وأشارت عليهم أن يسمُّوه "ضاوي" على اسم أبيه؛ حتى لا ينقطع ذكره من البيت، احتضنت هيلة الصغير إلى قلبها بقوتها المتعبة الضعيفة، شعرت بحركة شفاهه السريعة الباكية النَّهِمة على صدرها. كأنه يفتش عن رابط جديد يربطه بأمه أطول من الرابط الذي فقده قبل عدة دقائق.

لا يكاد أن يقطع رابط بين الأم وابنها حتى يتَّصل بها بشكل آخر أقوى وأعمق، علاقتهما أبديه تولد مع ولادة الفتاة بشكل فطريٍّ،

حتى تتبلور بهيئة الأم داخل المرأة الناضجة، إن علاقة الأم بابنها لا تولد مع ولادتها له، ولا تنتهي بحشرجة الأرواح في الصدور، علاقة كهذه صادقة غير مشروطة. باقية ومستمرة لا تتوقف عند عتبة الموت بل تتخطَّى هذه العتبة الطويلة القاسية، وتمتدّ بنفس القوة، والعمق إلى ما بعد الموت، إن الأموات من الأمهات لا يحتفظن بقلوبهن في الأجساد، وينزلن بها للقبور حتى يطعمنها دود الأرض في السفر الأخير؛ بل يتقطع القلب الواحد، ويتوزع في صدور الأبناء كبذرة طمأنينة، وحبٍّ، وذاكرة حيَّة لا يصيبها الخرف والنسيان.

تعافى جسد هيلة بسرعة بعد الولادة، وكأن هذا الطفل كان الدواء لأوجاعها، والأنيس لوحشتها، ملأ مكان والده بقلبها، أنساها بعض الأوقات خوفها وقلقها، انشغل عقلها بالطفل، رعايتها له أخذت الحيّزَ الأعظمَ من تفكيرها، ولو أن في نهاية اليوم وسكنى الناس إلى أزواجها في هدوء الليل، تتقلَّب أفكارها على مواجعها، وتحيي بداخلها ألمها الأول، لا تملك إلَّا أن تدخل طفلها النائم بين جناحيها، وتكفكف دمعات تساقط بعض منها على خدّ الصغير، تُتمتم على مسمعٍ من ربها، وقرب أذن ضاوي: " الله يردّ أبوك الله يردّ أبوك "

اعتنت أم ضاوي بغذاء هيلة جَيّدًا؛ ليعطي جسمها ضاوي الصغير أكثر ممّا تعطيه أيَّة مرضع أخرى، شغف قلوبَهم حبُّ الصبي، رغم أن أصغر طفل لأم ضاوي ذو خمسة أعوام؛ لكن منزلة ضاوي الصغير كانت كبيرة، وتليق بحبِّ الحفيد الأول، ولتكن هيلة بصحة ممتازة عند عودة ضاوي الأب ليُشبع به سغب غيبته.

رمَّمَ عظمها الكسيح لهوم الحلبة الذي كانت تسفُّه فجرًا على الريق، مع العسل المذاب بالحليب، وحفَّز جريان اللبن في عروق صدرها، في هذا الوقت يعود أبو ضاوي، والأولاد من المسجد، وتتناول العائلة فطورها الصباحيّ، دلّة القهوة المُهيَّلة بحبات الهيل، وأعواد القرنفل، ومراصيع البُرّ، والسمن أرغفة من دقيق القمح الكامل تعجبن بالحليب والخميرة، تصبّ العجينة الرخوة على صاج ساخن رغيفًا، بجانب الآخر حتى إذا سخنت، وظهرت على سطحها فقاعات هواء علامة جودة العجين ونضوج الجزء السفلي، تقلب على الصاج لتتحمّر من الوجهين، ولأنه وقت ما بين نهاية الشتاء، وأول الربيع، وموسم جني الفقع أو بنت الرعد كما أحبُّ اسمها؛ هذا لأنها ثمرة عناق الأرض بالأمطار الغزيرة الرعديّة يحبُّ أبو ضاوي أن يأكل المراصيع مع قطع فطر الكَمْأة المطبوخ بمرقة الفُلفُل والبهارات، كانت جدتي تسمي الكَمْأة: " لحم الأرض " وتقول فيها بيتًا شعبيًّا أثناء تنظيفها من تربتها:

هي بنت البُرّ والبُرّ حاويها .. منغنغة بالدّهن وعظام ما فيها

لأربعين صباحًا، كان فطور هيلة، وغداؤها وعشاؤها يشبه فطور العائلة، وغداءهم وعشاءهم بمزيد من الإضافات العلاجيّة، مع شيءٍ من الاختلافات النوعية، أعادت وجبة الغداء الدَّسِمة الحياة لوجهها، فبخلاف عجينة الفطور الرخوة الخفيفة، عجينة الغداء قاسية متماسكة وسميكة، كانت أم ضاوي تضاهي النساء في الطبخ، وبالأخص في طبخ المطازيز.. لها طريقتها الخاصة في صنع أقراصٍ بحجم واحد ، أما أمي لطيفة وبقية النساء، فكن يقطعن من العجينة

قطعًا صغيرة بمقدار حجم البيضة، يكوِّرْنَها ثم يفردْنَها بأيديهن؛ حتى يخرج كلّ قرص بمتانته الخاصة، وشكله الخاص؛ لكن أم ضاوي كانت تفرد العجينة كاملة بواسطة المفردة الخشبية، ثم تقصّ الأقراص بفوهة كأسٍ معدنيّة صغيرة محفورٍ عليها نقوشٌ وزخارفُ، فيخرج كلّ قرص مطابقًا للآخر، تطبخ أم ضاوي بقدر كبير العقود مرقة اللحم، والخضار حتى تنضج، ثم تأخذ بقدر صغير من العقود الربع تقريبًا، تضع عليه أقراص المطازيز المعجونة خصِّيصًا بحبوب الرشاد، هكذا كان الدواء يصنع بالغذاء.

على مَرِّ الهَجْرِ الطويل ذَبُلَ حبّ هيلة لضاوي، وشوقها انكمش في زاوية باردة من زوايا قلبها ذي الخمسة فصول، احتشر الركن الأكبر من قلبها بالبرود، والظلمة معًا كجبل جليديٍّ نسيت الشمس منذُ زمن أن تطلع عليه!

أصبحت تتعامل مع غياب زوجها، كما تعامل غيابه معها، توقفت عن كتابة رسائل لا تصل، وحتى عن السؤال عنه، وارتقابه في العيون والضحكات، صبَّت حبها وحنانها ورجاءها على طفلها، وغلّقت الأبواب!

لامتها النساء، وبالأخص مَنْ لم تستطع الخروج من دائرتها الضيقة التي حبست نفسها بها، وتقبَّلت قفل الحكم الاجتماعيّ معلّقًا على أبواب حريتها الفردية، ومن لم تستطع قول لا لواقعها الواقع تحت أقدام عادات السابقين، وتقاليد الآفلين، ولامها كلّ مَنْ لاحظ عليها تغيير اتجاه ما كانت تحمله لضاوي،

كان الجميع ينتظرون منها أن تفني نفسها بانتظار زوج الفراش المسافر للبحث عن المعاش، الذي هو بدوره ترك لها فراشًا تفترشه أطيافٌ باردةٌ تجمَّدت تحت وطأة الغياب، توَسَّدت الوحدة، والجفوة حتى تصلَّبت عضلة ذكرياتها المَرِنَة، والتحفت أصواتًا تنخفض بصخب، وتعلو بهدوء تلاشت عبر المدى البعيد. تمرّدت هيلة على الطواعية المفروضة، وخرجت من حداد الغائب الذي لن يعود، كانت تردُّ على مَنْ لامها بكلمتين، ونظرتين من غضب: " حطّ إحساس. تأخذ إحساس"!

صار وجودها في بيت "أبو ضاوي" يضغط على أعصابها، تخنقها معاملتهم الجافة معها، وكأن كلّ جميل يسدُّونه لها من أجل ضاوي الأب، وضاوي الابن، وبعد أول زيارتين شهريتين لأهلها بعد ما انقضى نفاسها، وسمحت أم ضاوي لهيلة بأن تزور أهلها يومًا كاملًا مع كل غُرّة هلال، تأخذها أم ضاوي لأهلها صباحًا، ثم يعود بها والدها، أو أحد إخوتها إلى بيت " أبو ضاوي" مساءً، كان لابُدّ من وجود صاحب يحميها من المجهول في الطريق القصير الخالي من المخاوف عند ذهابها وعودتها، وفي أحسن الظنون. كأنَّ هذه المرأةَ والأمَّ طفلٌ لو ضلَّ الطريق، لن يستطيع العودة للمنزل بمفرده، كانت الوصاية على هيلة شديدة جِدًّا بحجّة غياب الزوج، الوصيّ والوليّ.

الى أن حدث ما كسر آخر قيود الوصاية عليها، كسر القيد هذا، كسر في هيلة خوفها وتردُّدها مع كثير من التَّشَوُّه النفسيّ الذي غيَّر خارطة الانضباط العصبِيّ، وأعطاها الحقَّ في أن تخطُوَ خطوةً عارضها البعيدُ، والقريبُ قبل أن تتلفَّظ بها.

كان وجود رجل بعمر والدها، ومقامه خلف الأبواب المواربة يسترقُ النظر إليها يشعرها بالريبة، وإن وقعت عينها على عينه لا يرتعب ولا يخجل، بل يقف ويطيل الوقوف معبِّرًا بحركة أو اثنتين عن رغبته بها، كانت تجد وخز عينيه يخترق ردفيها حين تنهض، وتمشي من أمامه ملبِّيَةً أوامرَه التي لها مآربُ أخرى، أو حين يطلب منها أن تنحني للأرض لمناولته شيئًا يستطيع هو تناولُهُ؛ لكنه أحبَّ أن ينكشف له شيءٌ من صدرها بعدما أصبحت تلبس ثيابًا بفتحةِ صدرٍ أوسعَ من قبل الرضاعة.

وفي عِشاءٍ تدحرجت به شمسُ النهار نحو مغربها كاشفةً عن الهلال المُعْتَم بضياء أشعتها الباهتة، خرجت هيلة من دار "أبوضاوي" خروجها الأخير بفجعتها الأولى وكسرها الأعظم، لم ينتظرها ضحى اليوم التالي تمشي تحت ارتفاع شمسه في طريق زيارتها لأهلها، لم يُطِقِ الصّبرَ ذلك المساء، فلفظ هيلة على قارعة الخسارات.

إن الرجل الكبير الذي فقد سيطرته على شهواته الشيطانية حتى تسبَّب بكارثة فطرت القلوب، منذُ أن تغيَّرت نظرته نحو الفتاة التي علَّقها ابنُهُ بزواج مشلول.

ما عاد ينظر لها بنظرة الأب، تبدَّلَت نظرة الرعاية، والحُنُوّ في عين الرجل منذُ دخل عليها ذات صباح على غير وقت عودته، وهي تُرضع "ضاوي الصغير" في إحدى حُجرات المنزل، وقد لمع نور النهار القادم من نافذة الحجرة على صدرها المكشوف، تعلَّقتْ عيناه بها، وتعلَّق فكره المريض بجمالها العذريّ الذي حفظ الغيابُ قوامَهُ، ولم تُهْتَكْ روعَتُهُ.

ازدحمت في صدرها مشاعر متضاربة. شعور الخوف، وإحساسها بالقرف، ووساوس لا تنتهي، صارت تخاف من أن تخرج أم ضاوي، ويختلي بها الرجل الكبير في الدار، وخافت من أن ينكشف أمره لزوجته، وتُحمِّل هيلة غلطة "أبو ضاوي"، كانت تظل يقظة طوال ليلها؛ خيفة أن يتسَلَّلَ إليها وهي نائمة، وما أن تطلع عليها الشمس حتى تنام دون أن تسمع بكاء ابنها الجائع وصياحه.

في أحد الصباحات بعد أن وضعت رأسها متهيّئَةً لنوم بعد ارتقاب ليلة كاملة، بكى ضاوي بكاء الطفل الجائع، سحبته أمُّهُ نحو صدرها، وألقمته ثديها، ودخلت في نومها العميق، مرّت ساعات يُفترض أن الولد فيها قد شَبِعَ، وحانت الآن ساعة الرضاعة والوجبة الثانية في يومه الثالث والتسعين، انقضت مثلهنّ ساعات، والأم تغطُّ بنومها وثديُها مسدَلٌ على وجه الصبي، اقترب وقت صلاة الظهر، والطفل لم يَصِحْ جائعًا وهيلة لم تستيقظ من أجل ابنها الذي كوّمه الموت تحتها على مدى نصف نهار.

دخلت أم ضاوي عليها الحجرة تستفقد زوجة ابنها التي تسبقها عادةً في إعداد الغداء للعائلة ورشّ المجبب، وكنس الدار، فلم تجد في الغرفة سوى روح أنهكها الخوف والترقّب قد سقطت في بئر التعب المظلمة العميقة، وجسد طفل دفن وجهه على ثدي أمه قبل أن يدفنوه وحيدًا تحت التراب.

مات ضاوي الصغير مختنقًا على صدر أمٍّ وحيدة خائفة، وُلِدَ هذا الطفل بقدر واسم أبيه، ثم مات قبل أن يلتقيا.

- وطفاء.

دخل صوت شوع المنادي من الغرفة. قطع هواجسي القديمة، بعثر الصور، وأسكت الأصوات.

جاءها ردّي همهمة، وأنا أنظر إلى ما وراء المدى.

- هاو! وشبتس طلعت الشمس وانتِ قاعدتن بالحوش بجنب دريشة الحجرة ومسرحة، ما نمتي!

- اليوم وشو!

- لا منتيب صاحية! اليوم الرُّبُوع.

لم أُعِرْ استغرابها، وتساؤلها انتباهًا، بقي تفكيري منشغلًا بهيلة بعدما أصرَّت على والدها أن يفكَّ حبالها، ويطلقها من "أبو ضاوي" زوج المعاش بالنيابة عن ابنه الغائب زوج الفراش، يا لقدر هذه الفتاة! انفصل مصيرها عن نصيبها، وانقسم على اثنين، رجل راحل ورجل عابث.

ليس على امرأة مثلي ناقصة عقل ودين وعزباء. لم تكمل نصف دينها الآخر بالزواج وعاشت جُلّ عمرها وحيدة، خالف بها القدر سُنن الحياة، أن تتساءل لِمَ يجب على فلك المرأة أن يدور حول مركز الرجل؟ ماذا يعطي الرجل أكثر ممَّا تعطيه المرأة؟ هي تقدر كما هو يقدر، وتقدم أكثر ممّا يقدم، ما الثقل الخلقي الذي يجعل الرجل عملتها ذات الوجهين، وجه القوة ووجه الضعف، تربح وتكسد تجارة حياتها برضاه وغضبه، هو المتحكِّم بمصيرها والمقرر، لعل طواعية المرأة ورضاها بتقديم الرجل على نفسها أعطاه هذه القوة والثقل والأهمية، وربّما تكون من أخطاء الأمهات الفادحة في تربية الأبناء على التفاضل.

خرجت شوع من الغرفة لساحة البيت، وجلست بين الباب والنافذة، أسندت رأسها على الجدار الذي أسند عليه ظهري، تتأمل معي الشروق البارد، وبضعة غيمات شاردات في سماء الرياض.

هذه السماء كالأرض شهدت على أعمارنا وأعمالنا، نأتي عليها، ونرحل كهذه الغيمات من أن تتشكّل إلى أن تأفل، وهي في عناية السماء، مسافاتها الوحيدة مضمار الأفق الفسيح، في وقت معلوم تطوى لها المسافات، وفي أجَلٍ مكتوب تتباعد، مصيرها أن تلتقي في نهار صيفيّ أو ليل شتويّ، ربما تتوائم مع بعضها وتمطر خير اللقاء، وربما تغيّر الرياح مساراتها، وتأخذها بعيدًا من جديد، وكأنها لم تلتقِ، نحن البشر يا وطفاء يحدث معنا فوق هذه الأرض ما يحدث للغيمات تحت هذه السماء.

التفتُّ نحوَهَا وسألتُها:

- ليش تقولين لي هالكلام؟!

ليس من عادات شوع أن تخرج لأحدٍ بثوب العقل والرَّزانة، لكن عندما لا تستطيع معالجة الأمور بالسخرية والمزاح تلجأ إلى المنطق نادرًا من الأحيان.

- لأن اللي صار معنا البارح ما يسويه غير شخص واحد، إنتِ تعرفينه ماضي وحاضر، وأنا أعرفه وصف وسوالف.

أدرت وجهي عنها، وداخلي يغرق بالكلام والشكوى والنواح، لكن لساني لا يقوى على أن يخرج كل هذا دفعة واحدة، والكلمات فقدت حاجتها للسماع، أحبت البقاء بداخلي متماسكة محافظة على

المعنى والشعور، على أن تبعثرني بين مسافاتنا، ثم إن ذهني يلِحُّ عليّ بالتشاغل عن هذا كله.

- تعرفين من كنت أفكر فيه!

- مَنْ؟!

-هيلة وضاوي.

- ضاوي اللي له دكاكين الأعشاب، والبهارات في الديرة.

- إيه، قصيت لتس قصته في السوق.

- وش جابهم لتس الحين، ولا بس تبين تتهرَّبين مني.

-غريب قدر ضاوي يا شوع سافر فقير، ما يملك إلّا زوجة وولد، ورجع غني خاسر الزوجة والولد.

- فكري بنفستس، وخلي عنتس الناس.

لملمت أفكاري وهواجسي، وآهاتي كمِعزة مزروبةٍ في حظيرة ترعى صغارها في مرعاها الضيق، وتخشى عليهم من الوقوف على أبواب الربيع، نهضت عنها هاربةً منها قاصدةً المطبخ، وما أن عبرت أمامها حتى شهقت من ورائي ملاحِظَةً النزيف الذي ظهر أثره على ثوبي.

- صرخت بي، وطفاء. تنزفين؟!

معرفتها بأمر نزيفي هذا جعلني أتجمّد مكاني، وأنا التي كنت سأخفي الأمر عنها حتى لا تقودني بيدي إلى طبيب نسائيّ، أو معالِجة شعبية.

- شفتي رجع شبابي!

- تعرفين، وساكتة ما قلتي لي.

- كنـت بقولتس سـبقتيني وعرفتـي، يـاالله تعالـي ميـر زينـي الفطـور بدالـي.

تركتها تتحلطم خلفي، وتلقي على مسمعي بعض الكلمات: " إيه تراتس بتقولين لي لو أني ما عرفتس زين صدقت، مير تشوفين وين بوديتس".

قررت أن أنسي ما حدث البارحة دقّه وجُلّه، أوله وآخره، علانيته وسرّه، وأن أستقبل يومي هذا، وما يأتي من بعده بوطفاء جديدة، ولهذا أعدت التفكير بأن أقبل العمل الذي ألصقته بي شوع دون موافقتي أو استشارتي.

إن العمل عبادة يملأ وقتك بوقته الخاص، ينكب الذهن والجوارح على أداء شعائره، ويطهر الروح من عوالق الحياة، يجعلك تتنفس الرضاء إلى جوفك، وتزفر عن صدرك المنغِّصات، جعلني عملي قريبةً من الناس كقرب البصر، وبعيدةً عنهم، وكأنما بيني وبينهم حجاب. كأنهم ينظرون إِلَيَّ، ولا يبصرون .

عملٌ ليس بجديد عليّ بطبيعة أمره؛ لكني هجرته في زمن تغيَّرت فيه النساء وصرْنَ بيومهن أكثر حداثة من أمسِهِنّ على طريقة معيشتهنّ الأكثر انغلاقًا، تمدُّنَ نساء مدينتي على بعض أمور حياتهنّ مع التمدُّن المعيشيّ الذي اجتاح الرياض، بعدما كسد سوق الربعيَّات، أصبحت العروس بغير حاجة لوصيفة ترافقها أسبوع عرسها الأول، تخفف عنها رهبة الزوج بملازمتها جُلّ وقتها، ومؤانستها والحديث معها بعد أن تنتقل من بيت أهلها إلى بيت أهل زوجها.

تقوم الربْعِيّة على شؤون حياة العروس، وخدمتها وأيضًا القيام بواجباتها اليومية، تفرش فراش نومها وزوجها بعد صلاة المغرب في سطح البيت وترشُّهُ بماء الورد البارد، تُحَضر عنها وتُحْضر لها ولزوجها فطورهما، وغداءهما، وعشاءهما، وتجهِّز لهما المياه التي يستخدمانها في استحمامهما متعدّد المرات خلال اليوم والليلة، وإن كان الشتاء سخَّنت لهما الماء وجعلتهُ دافئًا هانئًا.

غدًا في ليالي الجُمع عادةً يكون لدى شوع عرسٌ تغني فيه، أرافقها أحيانًا عندما أكون بمزاج جيد، وترغمني غالبًا عندما أكون في مزاجي السيِّئ، قد ألحّت عليَّ كثيرًا أن أعود معها إلى إحدى مِهَنِيَ القديمة، ومع رفضي القاطع إلّا أنها لا تيأس مني، تعرف جَيِّدًا كيف تحتال عليَّ، وتأخُذُ منِّي ما تريد، وتلزمني بما تحبّ أن تراني عليه.

قد أبرمتِ اتفاقًا مع والدة العروس التي ستقيم عرسها على أن تفصِّلَ فستان ابنتها خياطة ما بشكل مختلف عن فساتين العرائس المعتادة.

استطاعت إقناع العروس، ووالدتها بأن تظهر بيوم عُرْسها كزهرةِ قطن ناعمة وهادئة وبيضاءَ؛ لأن اللَّوْن الأبيضَ رمزُ العذريَّة، والطهارة والحبّ – في وقتٍ كانت كلمة حبّ تدغدغُ الحياءَ والمُحَيَّا معًا بنفس تأثير الخجل تشعل الغضب-.

وأن تزيِّن رأسها بتاج من الورد الأبيض معلّقةً على أطرافه طرحةً بيضاءَ خفيفةً تنسَدِلُ على رأسها، وتغطّي وجهها، ونحرَها إلى أسفل كتفيها، وتلبس فستانًا أبيضَ بالكامل ضيّق الصدر. واسع الخصر. منفوش الجِرْم. بأكمام شيفونيَّة شفّافَة، أخبرتني شوع أنها كانت تصف لهم الفستان التيً ادَّعت أنى سأخيطه للعروس، وهي تتمايل أمامهم وتتراقص، وأنّ جمالها وغنَجَهَا سيطر على عقولهنَّ، وأقنعهنّ بأن الفستان سيكون كفستان شادية، وهي تلعب دور زينب، وتغني" شبّاكنا ستايره حرير" في فيلم الهاربة.

في الحقيقة شوع كانت تتخيّل نفسها مكان العروس برشاقة شادية وخِفَّتِها، وهذا ما دعاها لتوريطي بأحلامها، معتقدةً أنها

تصنع صيتًا لي عبر عملها، وعلاقاتها الاجتماعية المتجذِّرة، إيمانها بي حِملٌ يحْمِلُني، وأحمله، كأنها أمي التي لم أعرف في حياتي كيف سيكون رضاها، وبأيَّة شدة سيأتي منها الزعل، لكن أعرف جيّدًا أني أريد أن أرضيها، وأفديها، أو أبي الذي يحب أن يختال بي عندما يضرب على صدره ويقول: أنا أبو وطفاء. أبوها، كانت بداخلي رغبة أن أصل إلى حُسن ظنها، ومحلّ ثقتها.

لم تكتفِ شوع بمقايضة أجرها بفستان العروس؛ بل اشترطت عليهم أن تصاحب العروس وصيفة بأيامها الأولى، رغم أن أهل الرياض تركوا هذه العادة من زمنٍ بعيد، لكنها بشكلٍ أو بآخر استطاعت إقناعهم، والاتّفاق معهم على خمسين ريالًا في الليلة الواحدة لمدة ثلاث ليالٍ.

تتفوق شوع بعقد الصفقات وربحها، خمسون ريالًا في الليلة مبلغٌ مبالَغٌ فيه جِدًّا على ربعيَّة انتهى زمانها بعزّ عطائها، لم تعد الفتاة بحاجة إلى مساعدة خاصة تفرش فراشها في سطح المنزل، وترشُّه بالماء ليبرد، بعدما ترك الناس النوم في السطوح، دخل "الكونديشن" غُرَفَ النوم والمجالس، أصبح جَوُّ الغرفة في عزِّ القيظ كجوِّها في عزّ المربعانيَّة، ودخلت إمدادات المياه البيوت والحمَّامات، بحركة دائرية بسيطة على صنبور الماء تغتسل، وتستحمّ، وبحركةٍ بسيطةٍ تعاكسها بالاتّجاه ينتهي كلُّ شيء.

في سالف زماني كنت أقوم بشأن العروس كلِّه، من قبل ليلة دخلتها بليلة إلى أن تُتمَّ أسبوعها الأول، وإذا كان أهلها ميسوري الحال أتممت معها شهرًا كاملًا.

قبل الزواج بيوم كنت أذهب إلى بيت أهل العروس بعد العشاء قبل أن تدخل العروس فراشها، أدهن جسمها، وأدلك عضلاتها بالزُّبدَة البلديَّة الممزوجَة بقطرات الحليب الدافئة، ورشَّات القرفة الناعمة، تنعم جسدها، وتلمِّع بشرتها، وتريح أعصابها، إذا كان أهل العروس معسوري الحال، ولا تفوح رائحة الزبدة بيتهم إلَّا كلّ عامين مرة، أذيب لها قطعةً من شحم ليّة الخروف أرخص ثمنًا، وأوفر دهنًا، ثم أمهِّد جسمها مهدًا بقماش قطنيّ كمَهْد الطفل الرضيع؛ لترتاحَ عضلاتُها وتقوى عظامُها، وأحشو باطن كفّيْها بالحنَّاء المعجون بمنقوع الليْمون الأسود، والشاي، وقليل من عطر المَحْلَبيّة، وماء الورد إن توفَّر، وأغلق عليه يَدَها، وأضع ما تبقَّى فوق أصابعها، وأظافرها، وألُفُّ فوقها قطعتين من القماش، وأربطه حتى لا يتساقط الحنّاء بعد أن يجِفّ، ثم أدْخِلُ العروس فراشَها، وأعود لبيتي.

إذا كانت العروس فتاةً راكزةً، وذات فهم وحسٍّ بالمسؤوليّة قضت ليلها تتقلّب على فراش القلق والخوف، أمَّا إذا كانت طفلة لا تَعي من الزواج إلّا فستانًا وعُرْسًا، وزينة نامت بين يديَّ، وأنا أدلِّكها من فرْط اللَّعِب والتّعَب.

وفي ضحى يوم العُرْس قبل صلاة الظهر بساعتين تقريبًا، أحمل حاجياتي إلى بيت أهل العروس لأجِدَهُم في حالة تأهُّب، واستعداد يعملون بسكينة، وخفّة حتى لا يزعجوا عروسهم النائمة، وبعد صلاة الظهر. أوقظ العروس من نومها إذا ما استيقظت لتستحمَّ وتغتسلَ بالماء الدافئ، والاعشاب العطْريَّة، وتفرك جسدها بخليط من الحنَّاء، والكركم ليتوحَّد لوْنُهُ، ويزيل من عليه الجلد الميت الذي تخمَّر بزبدة البارحة، وأصبح من السهل إزالته.

بعد حمَّام العرس المعطَّر بالمسك أَقَرّبُ حِقّ العاج الذي يحوي أدوات تزيين الشعر وآخر يحوي أدوات تزيين الوجه، أبدأ بتزيين شعر العروس، أدهنه أوَّلًا بدُهن البقرة لينعمَ ملمسه، ويلمع منظره، أضع المشاط على الشعر بالكامل، وأمشّط بالمشط الخشبي ذي الأسنان المتفرّقة حتى تغيّر رائحة المشاط رائحة الدهن، تتخدَّر كتفاي، وتتنمّل يداي من مشط الشعور الطويلة جِدًّا، لا يوجد فينا فتاة أو امرأة بشعر قصير، فالمرأة لا تقصّ شعرها إلّا عندما يمسَّها جِنِّيٌّ عاشق متعلّق بجمال شعرها، فاذا قُصَّ الشعرُ شُفِيَتْ وخرج منها مَنْ تلبَّسَهَا.

أفرق رأسها من المنتصف بعود المفارق الخشبيّ، وأمشّط كلّ جهة بعناية، وأملأ مفارقها بالذرير، ليبرز المفرق ويجمل مكانه، وبعدها أبدأ بتضفير الشعر على طريقة "باب الطبيشي". عشرُ ضفائر من الخلف، واثنتان على جانبين على صوابر الرأس، وأعلِّق على الضفائر خيوط الريحان.

تلبس العروس ثوب عرسها الأحمر المطرَّز بحرير الزّري الهنديّ الذهبيّ على طريقة "سفرة سعود"، دوائرُ كبيرةٌ على شكل سفرة الطعام النّجْدِيَّة مزخرفة من الداخل بالشعار السعودي "سيفين ونخلة".

ثم تضع العروس الحُليَّ، والذَّهَبَ من أعلى رأسها إلى أخمص قدمَيْهَا، تلبس فوق هامة رأسها غطاءً من سلاسلِ الذهبِ توضعُ على الشعر تتدلّى منها جنيهاتٌ ذهبيّةٌ على جبين العروس، ومن حول رأسها، وتضع "المرتهشة" طوقًا يطوِّق رقبتها بالكامل

على شكل مربعات متراصَّة من الذهب بداخل كلّ مربع فصٌّ أحمرُ وآخرُ أخضرُ وثالثٌ أزرقُ إلى نهاية الطوق خيطان من خيوط القيطان الذهبية، تُرْبَطُ بها من الخلف، وينزل من كلّ مربع سلاسلُ ذهبيةٌ. بين كل سلسلتين جنيهٌ ذهَبِيٌّ، تتدلَّى السلاسلُ المعلَّقَة على طوق "المرتهشة" من الرقبة إلى النّحر، ثم تنحدر من النّحر الى أسفل الصَّدْرِ، و تلبس في كلّ يد ستَّةَ معاضِدَ. في اليُمنَى ستَّةُ معاضدَ من دقّة عبدالغني، واليُسْرَى ستَّةُ معاضِدَ من دقّة الدركتر.

كانت العروس لا يقال عنها عروس جميلة حتى تكون مُمتلئةَ البَدَنِ، تجد المعاضد لحمًا تستند عليه، وتصطفّ فوقه، فأول ما تسأل عنه الخاطبة (عسى عليها لحم) هذا السؤال الذي يمكن له أن يقيم عُرْسًا، أو لا يقيمه، كان الامتلاء البدنيّ للفتاة مقياسًا للجمال والتَّرَفِ، فالفتاةُ التي لا تغور عيناها فوق خَدَّيْها المرتفعين عند ضحكتها لا تعتبر جميلة، والفتاة التي لا توجد على كفِّها أربع قرصات ليست مدلّلَةً.

أكثر ما كانت تتوق إليه العروس بيوم عرسها حمل المكحلة، والاكتحال بالكحل العربِيّ وفعل ما تفعله النساء المتزوجات بعدما كان حكم عيب الاكتحال للفتاة العزباء كحكم الحرام، كان إخراج الميل من المكحلة، ووضعه بين الجفنين، وسحبه للخارج أمام المرآة الصغيرة أكثر ما يغري الفتاة، حركة سحرية جماليّة تضفي على وجه المرأة نورًا، وتعطي عينيها جاذبية أخّاذةً، وعمقًا ساحرًا.

عندما تكتمل زينة العروس تجلس في غرفة خاصة مجهّزة في بيت أهلها لهذا اليوم، تلبس عباءتها الحريرية الجديدة التي اختارتها أمّ العريس مع ما اختارته للعروس من أقمشة جهازها، وذهب عرسها، وهدايا عائلتها: بشوت، وشمغ، وأحذية رجالية وعباءات، وأقمشة نسائية، تكون الغرفة قد نظّفَت من قبل، وفُرِشَتْ بأثاث جديد ومطارحَ، ومفارشَ جديدة، يزف والد العروس وإخوتها العريسَ لأبواب غرفة الدخلة ويباركون لهما ليلتهما ثم تستقبله الربعيَّة وتُجلِسُهُ بجانب عروسِه، وتصب للعريس فنجال قهوة مع تبريكاتها وتهليلاتها، يخرج العريسَ من جيبه جنيهًا فرنسيًّا، ويضعُهُ في يد الربعيّة مكافأةً لها على ما قامت به في تجهيز عروسه له، تدعهما الربعيّة يقضيان ليلتهما بسعادة وسط سعادتها العالية بالجنيه الفرنسيّ.

منذُ عشر سنوات لم أرافق عروسًا في يوم زواجها، وبعد عرسها لسبعةِ أيام، ومنذُ خمسة عشر عاما لم أخيّط قطعة قماش بأخرى، عدا ما ألبس أنا وشوع، وما أقصِّر من ثياب والدها "أبو جمعة" الذي مع كلّ عام يزداد تحدُّب ظهره، وينقصُ وزنُهُ آخذًا بطريق ضعفه السمع والبصر.

تناولنا أنا وهي فطورًا هانئًا، بدوت لها قويّة، متماسكة، منشرحةً وأكثر من طبيعية، كانت تضحك معي بارتياب، وتستمع لحديثي الساخر، وعقلها يظن بي الظنون، تحاول أن تنظر إلى عمق قلبي علّها تلمح عاصفة تائهة في سماء هدوئي؛ لكني صرت ضبابية أكثر من أيِّ وقت سابق، لم يعد باستطاعة عَيْنَيْ شوع، ولا باستطاعة عيني الواحدة أن تنظرَ إلى عمق قلبي، أظنُّ أن صدمة اللقاء المباغت ضغطت على نقطة العمق أسفل قلبي بقوة حتى ارتفع، وتساوَى العمقُ بالسّطح.

هل أنا بهذا شُفيت وطمرت بئر آلامي، وانتصرت على زمن التِّيه والوحدة؟ أم أنَّ الزمنَ التَفَّ على رقبتي، ثم سقطت في بئري، وهذه ليست إلَّا سكرات السقوط للهاوية، ماذا عن وجع الارتطام، ماذا سيكسر وكلُّ قائم انكسر وسُحِقَ، واندثر.

لم تَدَعْني شوع ألمسُ شيئًا في بيتي، كانت تخدِّرُني بمعاملتها اللّطيفة حتى أنصاعَ لرغباتها الدفينة. حال ما أنهينا فطورنا رتَّبت هي منزلي ونظَّفَتْه، على أسس الدورة اليومية للترتيب، والتنظيف. كانت تحبّ في الصباح أن تسمعَ مختلف الإذاعات، وهي تقوم بالأعمال المنزلية، وبالأخصّ تحبّ أن تسمع إذاعة القاهرة، وتنشد الابتهالات والتراتيل الصباحية التي تعطي صوتها سلامًا، وروحانيّة طاغية، كأنها تقرأ من كتابٍ مقدَّسٍ مُنغّمٍ.

قل ادع اللّه إن يمسَسْك ضرٌّ ووجّهْ ناظريْك إلى السّماءِ
فعند اللّه إنْ تسألْه أجرٌ. وعند اللّه موفورُ الرّجاء.
وقل يا رب لا تسأل سواه يبدّلْ بعد عسرِ اليوَمَ يُسْرا
وإن عاد عدا فادفعْ أذاه ، بذكر اللّه تلقى الضعفَ نصرا
قل ادعُ اللّه لا تيأس لخطب، ولا تحزن على آلٍ ومال
وثِقْ في كل نازلة بربٍّ يبدّلُ إن يُرِدْ حالًا بحالِ
قل ادع اللّه سِرًّا أو جهارًا وقل يا ربِّ لا تسأل سواه فعينُ اللّه ليلًا ، أو نهارًا تراك، وإنّ عينَكَ لا تراه. قل ادع اللّه ،،،

فاح طيب القهوة المُهَيّلَةِ بحبَّات الهيل، وأعواد القرنفل، ومياسم الزعفُران في أرجاء البيت تحمله إليّ نسمات البرد بكل دفءٍ

وحبّ، لا شيءَ يعادل عندي فنجال قهوة الضحى كأنه توقيع الأطراف المتخاصمة في عقد صلح أبَديّ.

أعدَّت شوعُ قهوةً كالشَّفَقِ كما تحب أن تشربها بمواصفاتها ومقاييسها، تقول لي دائمًا: عندما تقدَّم لكِ القهوة انظري أوَّلًا إلى لونها. إذا كان كعين غزالٍ لامعة، وفاتحة وصافية، شمِّيها. بعد ذلك إذا وجدتِ رائحتها تعبق في رأسك سمّي بالله واشربيها، غير ذلك صُبِّيهَا على فرش أهلها، وادّعي أنها جَيّدة؛ لكن الطبيب قد منعك من شرب القهوة.

وافق مجيء القهوة مجيءَ أخي زُوَيّد، عاد أخيرًا وافيًا بوعود الزيارات الخاطفة، ناولني تنكة تمرٍ مكنوز، ودَلَفَ إلى الدّكَّة الصغيرة تحت العريش في سَرْحَةِ البيت، حيث أجلس أنا وشوع.

- ما شاء الله مجتمعات، صبّحكم الله بالخير.
- صبحك بالرضا والسرور، تفضل.
- ريحة الكيف واصلتن آخر الشارع.

لاطفته شوع بالرّدِّ، وهي تغطي رأسها، وتنزل شيئًا من غطائها على وجهها، وتصلح جلستها: أكيد يا بوي ذي مونسة كيفي. ثم رحَّبت به، وكأنَّ الرجل نزل عليها من السماء.

-انتِ ادخلي حطّي لنا من هالتمر في سحلة، وانت يابو محيسن تعال أقدمنا اقهويك.

داخلني الشكُّ تجَاه ردّة فعل شوع بتصرفها مع زويّد، كان مبالغًا فيه قليلًا، لكني افترضت حسن النية، وعلقت المسألة على شخصية شوع الصاخبة عادةً.

دخلت المطبخ، وسمعتها تُسرّ لهُ حديثًا، حاولت أن أخرج بسرعة علّي أسترق يقينًا يقطع شكّي، لكني وصلت في وقت لا أسمع فيه سوى رَشْف القهوة.

فتح زويِّد حديثًا يضلِّل به نظرةَ التعجُّب في عيني التي اخترقت عيونهما، بدأ بكلمات الحكائين.

-هاك الحين يوم إننا بزران...، استرسل بالحديث، وشوع تتجاهل وجودي، وتأكل من تمر زويِّد، وتصغي بكلّ حواسّها لقصة إعداد القهوة أيام الفقر، والجوع، وندرة البُنّ وكأنها لم تَعِشْ معنا في نفس المدينة!

" كان جدي لأبي -مغفرةٌ من الله ورحمةٌ تتنزَّل عليه- وعلى والديَّ، ووالديكم، كان مقصدًا للكرم، مضربًا في الرجولة، وبيته مفتوح للقاصي والدَّاني، ودِلالُ قهوته لا تَبْرُد ونجره لا يسكت، وديوانه لا يخلو من الرجال، كانت عادة جدي أن يضع "فثال القهوة" بعد طبخها في كومة أمام باب المجلس كنوع من الفخر، وإبراز ما تمَّ حمسه، وطبخه من القهوة العربية للناس، ومكانة أهل البيت ووجاهتهم في القوم "

لاطفَتْه شوع باستدراك:

- يوم إنهم سألوا مليحة بنت ناصر اللّحيدان وش راس مال أبوتس عقب ما مات خذتهم لكومة الفثال وقالت هذا راس مال أبوي.

علّق زويد:

- والله من الكرم مَرَة بنت رجال.

جلست في طرف الدّكّة، وأسندت ظهري للجدار، وأخذت أراقب تصرُّفاتِهما، وحديثهما، سكتا فجأة، وضعا فنجاليهما على الأرض معًا، اقتربت منهما بنية أن أسألهما عن حالهما الغريب هذا، وما أن فتحت فمي حتى قال زويد -لا إله إلّا الله! مر ملك. مر ملك.

ثم قام زويد من مقامه بخفَّة لم أعهدها عليه من قبل، وقال: أنا بالسيارة أنتظركما. ثم خرج.

قامت شوع هي الأخرى بسرعة وقالت لي: ألبسي عباتس عجّلي.

- وين؟!

- محلن قريب باخذ من غريضات وابيتس معي.

- تعبانة أنا ما قوى أروح، وعندي شغل وخياطة.

- مناب مبطين يا بنت الحلال وقفة.

انسقت وراءها طواعيةً مني؛ حتى أصل معها إلى الباب الذي تخفي خلفه غرابة أمرها.

ركبت بالمقعد الأمامي لسيارة الفولفو الحمراء على يمين زويد، وركبت شوع في المقعد الخلفي، فتحنا نوافذ السيارة مع فتح زويد لجهاز التسجيل المرفق في السيارة، أدخل زويد في بطن السيارة شريط كاترج سجَّل عليه أغنية السد باح لسلامة العبد الله، كانت شوع تحب أن تسمع الأغنيات عندما تفتح النافذة بالكامل، وتخرج وجهها لسفسفة الهواء الذي يقلب شيلتها الخفيفة على بشرتها ويداعبها بنعومة.

سلامة العبد الله صوتٌ يغني الإحساس المثقل بالشجن؛ إن ليُتْم بصمةً على روح اليتيم تضمن للناس أن بداخل هذا الطفل عالمًا بناؤه مختلف. قواعدهُ إحساس وأركانه شاعريَّة، سمعت لسلامة العبد الله حوارًا إذاعيًّا قبل عدة شهور يحكي عن بداياته وقصة طفولته، ويتمه والارتحال من حائل مدينته ومسقط رأسه إلى جانب عمته في مكة بعد وفاة والده، وزواج أمه، وانتقالها إلى الرياض، ثم انتقاله مع عمته من مكة إلى الطائف وعمله هناك وهو ما زال طفلًا، تعلّم العزف على آلة السمسمية، ثم العود وهو في سنّ الثالثة عشرة في فترة العمل، من رحم هذه القصة الحزينة خُلق في سلامة إحساس يصيح حبًّا شَجِيًّا في مسامع الناس بكلمات شعبية قريبة من أذن وقلب المستمع البسيط والعادي، كأنَّ غناءه يسمع مباشرةً من القلب، وليس للأذن دورٌ في ذلك.

كانت شوع محافظة على هدوئها، ومكانها قرب النافذة. طوال السكة تستمع للأغنية استماع مستمع معقّد بالحالة الطربية الراهنة. خرجت عن حالتها الطربيّة فجأة، ودخلت من أوسع أبواب الغرور وقالت:

- لولا الحيا من الله، ثم زويد كان حلفت إن هالأغنية مغناة فيني.

خشم سيف، وصافي السحر بالعين
يذبح وفي يمناه رمح الهلالي

والخد برق يجهر المستخيلين
أحمر عطر صنعة عزيز الجلالي

والغرة الحلوة تحفّ لحجاجين
واللّي ورى الغرة شبيه الهلالي

ضحكت بسخرية وتندّر، وضحك زويد من بطنه حتى اهتزّت كتفاه، اغتاظت شوع وشاطت بكفها نحونا معلقةً بقولها: مالت .

قاد زويد سيارته على الطريق الشميسي الواسعة باتّجاه الشمال، ثمّ أدار المقود شرقًا نحو الديرة، بدأت تظهر على الأفق القريب شُرَفُ الأبراج الأربعة الدائرية كأنها تيجان على رؤوس المُلوك، ثم ظهرت شرفات الرمي مربّعة الشكل، كان الرماة يرمون منها ببندقيّاتهم البارود على العدُوّ من أعلى البرج إلى أسفله، بدأت تتكشف لنا أسوار القصر الكبير، حصنٌ طينِيٌّ عالٍ رصين، كشيخ عربي ظهر على سيماه الشموخ والعراقة اختار أن يجلس على هضبة تتوسّط الجزيرة العربية، ويحفظ أرضها لمن يستحق أن يجلس على يمينه؛ ليعطيه مقاليد حكمها، لو أن هذه الأسوار تحكي لقالت شعرًا ملحَمِيًّا في معارك دارت حولها، حاولت أن أرفع ناظري، وأطيل عنقي علّي ألمح من بعيد البوابة الرئيسية للمصْمَك.

أذكر أن أبي قال لي ذات قصة: إن رمح الملك عبد العزيز ترك أثرًا على الباب في معركة استرداد الرياض، وما زالت سِنَّة الحربة باقية على الباب الخشب، شاهدت بعض السيَّاح يمشون حول متحف قصر المصمك متجهين غربًا، وأدركت أنِّي أخطأت اتجاه البوابة الرئيسة، نساء شقراوات يلبسن فساتين ضيقة من الصدر، وواسعة عند محيط الخصر، بلا أكمام تقريبًا تظهر مِفْصَلَ الكتف بالذراع ويلتحفن فوق ظهروهن بأوشحة من الصوف تقيهِنَّ لسعة البرد، ومن أسفلها قصيرة تكشف من سيقانِهِنَّ إلى نصف السَّاق، لا أعرف علامَ تتغذَّى هؤلاء النسوة لو أنى ألف يدي حول خصورهن لَلَامَسْتُ بكفِّي كتفي الأخرى من شدة نحافتهنّ، ثم إن سيقانهن بها غضاضة كسيقان طائرِ نحام أحمرَ يمشي بطريقة أشبه بالقفز فوق أحذية الكعب العالي، أتذكرُ أن شوع حاولت ذات مرة أن تقلِّدَهُنّ وترتدي حذاءً بكعب عالٍ، ذهبت إلى العرس والحذاء بقدميها، وعادت من العرس وهو بيديها!

- تشوفين يا خيتي هالمواقف اللي على يساري، والله يا فيها كافتيريا تزين كوب قهيوتن إيطالية مع حليبه اسمها كتشينو.. شيشينو.. والله ما ادري وش سمّتها عمتي الصغيرة المهم إن عليها ذاك الطعم المسكت.

- فيذا في شلقا!

- إيه والله. أوقف أجيب لتس واحد.

- خلّ عنك يا خوي، والله ما به مثل قهيوتنا المعطّرة.

شاركتنا شوع الحديث، وما زالت محتفظة بشيءٍ من غيظها:

- من راح شلقا ما عاد يلقى، رُح إنت واختك عشان ما عاد تعودون، يا كافي ما كني وراكم تعزمني معها.

زويد أشدّ العارفين بممازحة شوع من بعيد، وببرود أعصاب، أحيانًا يتجاهل وجودها وأحيانًا أخرى يضحك على حديثها بسخرية، دون أيَّة مواجهة، أو مناكفة كلامية؛ لأنه يعلم جَيّدًا أنْ لا مناصَ له من لسانها، ويدرك مدى طيبتها التي لا تسمح لها بلبس أقنعة، مندفعة بمشاعرها ومكشوفة بردود أفعالها، عندما تضحك، تحزن، تغضب، تحبّ أو تكره لا تداري نفسها بالخفاء من أجل أن تحقِّق فوزًا على صعيد آخر.

عبر زويد "دروازة المريقب" أو بوابة الشميسي، البوابة الجنوبية الغربية للمدينة، والتي تنقلنا من الرياض القديمة المحاطة بأسوار أو "حوامي بن دواس" قديمًا إلى حي المرقب أحد أول الأحياء الجديدة الناشئة خارج الأسوار، أعاد بناء هذا السور ابن سعود عندما استعاد الرياض، بناه خلال أربعين يومًا، وأنشأ تسعَ بوَّاباتٍ رئيسية كبيرة تسمى بالدراويز تحيط بالمدينة من كل الجهات، وعدة نقوب أصغر من البوابات لدخول الراجلين وخروجهم.

كان زويد لا ينفكّ يروي لنا القصص التاريخية عند مرورنا بمَعْلَم قديم أو نُصب جديد، عرفت منه أن أرضنا زاخرة بالحضارات، وقد سكنها أقوام سادوا وبادوا، تعلّق أخي بستائر التاريخ، وعلق ذكر التاريخ على جدران ذاكرته، ومعلّقات لسانه، أذكر أنه كان شابًّا يافعًا بعدما عاد من مصر مع ابن طليح، وزوجه، وأبنائه، شاهد بعينه الحضارة الفرعونية قائمة، وخالدة، وحاضرة، وقد تنفَّس هواء النيل

وتعرّف على بعض الشباب من العوائل التي تعمل في بيت الشيخ بن طليح هناك، تحدث معهم ومعنا باللهجة المصرية، وطافوا به في مكاتبات وسط البلد، ومقاهي "ميدان طلعت حرب"، أخبرني : أن المقاهي في القاهرة لا تشبه المقاهي في الرياض، وقال بالحرف: " فيذا ما تشوفين إلا طقة عقل وبراطمن سود من التتن، أما هناك تجلس على الطاولة الحمراء والشقراء والسمراء يحتسون مع المثقفين المؤلفين والفنانين.. لا ويكتبون ويغنون ويرسمون معهم"!

ثم اقترب مني يومها وأَسَرّ إلَيّ أنه رأى امرأة قدمت إلى المقهى، وسلّمت على رجل كان ينتظرها وقبَّلته من خدّيه، كما أقبّل أنا شوع عند السلام! خجلت جِدًّا من صراحته معي، لم أستطع النظر إليه، وتجاهلته وكأني لم أسمعه؛ لكني لم أنقم على قوله هذا معي؛ لأني أعرف قلب الطفل الذي بداخله، لم يستطع زويد أن يخفي دهشته، وبقي الموقف عالقًا في عقله حتى وجد مَنْ لا يعاتبه في قوله، وألقاه عن قلبه واستراح.

لقد عاد إلينا مندهشًا، ومعجبًا، تغيَّر شيءٌ بداخله، أظن أنه هو نفسه يجهل ما هو، أصبح يتعمَّد فتح مواضيع تختلف عن تلك التي تشبه الشابَّ الشعبي العادي، وتحاكي اهتماماته اليومية، أسعار البضائع، موديلات السيارات، زهد الرواتب.

صار يتباهى بمعرفته، وقراءته، وجلوسه في مجالس الشيخ ابن طليح الذي فتح له بيته ومجلسه، واعتبر زويدًا أخًا أكثر منه موظفًا عنده، كان الشيخ لا يرضى على من يعمل معه أن يكون قليل الثقافة والمعرفة حتى وإن كان بسيط التعليم، لم يسمح لزويد بأن يبقى

على سجِيَّتِهِ البسيطة، وخلفِيَّتِهِ الباهتة؛ بل قدَّم له العمق المعرفي، وطريقة تفكير متعددة الوجوه، ابن طليح كان، وما زال شيخًا بكلّ ما تحمله الكلمة من معانٍ، وأحد رجالاتِ واجهة المجتمع. شهم، متعلم، متدين، مثقف، وكاتب.

كان زويد أيام جاهليته شابًّا شغوفًا بالعمل وجمع المال، بعيدًا عن المعرفة والانفتاح، يتهرب من مجلس الشيخ في اجتماع المشايخ والشباب من المثقفين، وحتى بعض الفنانين كما كان يتوافد عليهم كلّ من هو مهتمٌّ بالطرح الثقافي، الفني، الشعبي، الأدبي، بعيدًا عن التمييز التعليمي، والقَبَلي والمهني، يهرب زويد من المجلس ليقف خارجًا مع باقي الشبان من السائقين الذين يشعرون بازدحام أدمغتهم من فكرتين خارج إطار شؤونهم اليومية، ورحلاتهم البرية، وصيدهم الطيور، والضبان والجرابيع، كان يشاركهم أبريق الشاي، والأحاديث البسيطة، والمبالغات السطحيَّة، والكثير من التخاريف الإنسيَّة والجِنِّيَّة؛ لكن إصرار ابن طليح أن يجعل منه شخصًا آخرَ أتى أُكُلَه.

سفره وتردده الدائم على مصر برفقة الشيخ فتح له أفقًا آخرَ، انتشله من قلة المعرفة وحطَّ بِهِ عند بسطة العمّ مدبولي الذي يفترش أحد أرصفة وسط البلد بشرشف طويل منقوش عليه مربعاتٌ زرقاءُ، وأخرى بيضاءُ، يبيع العم مدبولي الكتب في مختلف المجالات، والمعارف رغم بساطة مكتبته التي تتّخذ الرصيف رفًّا، إلَّا أنها تطوف بك العالم بزخارة تنوُّعِها، كان رجلًا قد أحبَّ القراءة، وآمن بأن التعلم لا يتوقف عند أبواب المدارس والجامعات؛ بل إنَّ ما بين ضفّتَي الكتاب ما هو أكثر من التعلم، كان يقول لزويد: " الكتاب كنهر جارٍ عندما تغوص فيه، ولا تجد من كنوزه ما تجنيه تكون على الأقلِّ قد تعلَّمت السباحة، وإن لسان الناس كتابٌ على الأرض، فلا تهمل قراءته، ولا تصدق كلَّ ما تقرأه فيه ".

يجلس العم مدبولي على صندوق خشبي تحت عمائرَ شاهقةٍ تجثو بين الطرقات والميادين، عمائر مبنية على الطراز اليوناني من عُلُوّ. لها نوافذ عديدة، وشرفات حديدية، وزخارف جبسية، ومن دُنُوٍّ محلَّات القهوة والحلويات، والأكلات الفرنسية. ذات واجهات زجاجية وديكورات خشبية، وثريات ذهبية كعناقيدَ تدلَّت من جفنات العنب.

تختلط أجواؤها بالموسيقا الكلاسيكية، والدخان الكثيف الذي يعبق من الأفواه، ومن بين الأصابع، وبأحاديث البهوات الأجانب بلهجتهم العربية المكسورة مع ضحكات البشاوات المصريين العالية التي تولد بالقلب، وتكبر بسرعة الصوت حتى تصل الأذن، بدلاتهم أنيقة، وربطات أعناقهم ملفتَة، ومناديل الجيب الأماميّ لمعاطفهم لا بُدَّ أن تكون بنفس لون ربطة العنق، وخامتها.

ومع صفِّ أزرار المعاطف يصطفُّ شنكار ذهبيٌّ يتّصل بسلسلة طويلة معلّق في نهايتها ساعة دائرية من الذهب قيراط ٢٤، لها غطاء مزيّن، ومنقوش غالبًا باسم صاحبها، الذي يخرجها ليس لمطالعة الوقت فقط؛ بل للتباهي بها من جيب الصديري تلك القطعة التي تُلبس تحت المعطف، وفوق القميص تغطّي الصدر، ومفتوحة من الأمام ولا طَوقَ لها ولا كُمّيْن، تعرف المصريين بطرابيشهم الحمراء التي يضعونها فوق رؤوسهم بشكلها المخروطي، وكأنها قلاعٌ. تتدلَّى من خلفها خيوطٌ حريرية سوداء، أما الأجانب، فكانوا يلبسون قبعات فيدورا الإيطالية.

يجلسون حول الطاولات الصغيرة تحمل بجانب القهوة التركية وحلويات البيتيفور والكيك - الذي كان زويد يحمل لي منها علبًا مغلَّفةً كهدية من رحلته - تحمل منفضة أو اثنتين يتكئ على جنبيها سيجار" روميو وجولييت" الكوبي الفاخر، وحاملات خشبية صغيرة ذات أربعة أرجل للغليون المفلتر الجذّاب.

بسطة العم مدبولي التي أصبحت بعد وقت قصير "مكتبة مدبولي" التي لا يعلو على صوت الحرية فيها صوت، وصيتها يصدع في داخل القاهرة وخارجها، صارت الملاذ المعرفيّ عند زويد، وأصبح لا يفارق رفوفها الحديثة، التي يجلس فوقها دهرٌ من الزمن وعقولٌ سادت على البشر.

قال لي ذات مرة: إنه وجد نفسه بين كتب التاريخ، وما يقرأه يشتعل في مخيِّلته بالصور الحيّة، والأصوات العابرة للزمن.

كان زويد يروي لنا أثناء قيادته السيارة إلى حيث دبر وشوع، كما قرأ في سلسلة مقالات تاريخية عن صحيفة الرياض الصادرة حديثًا تاريخ هذه المدينة منذُ قبل الميلاد وكأن الصحيفة باسم المدينة تحكي تاريخ المدينة:

" على مرّ الأزمنة الغابرة البعيدة، والسحيقة كانت هذه الأرض تسمي جوّا اليمامة وبها بلدة حجر، أو حجر الخضراء كما يطلق عليها قبل الإسلام لكثرة مراعيها واخضرار أراضيها وكثرة خيراتها، نزلها قومٌ من العرب البائدة قبائل عاد وثمود يقال لهم:" طسم وجديس"، وكان لهم ملكٌ ظالمٌ متمادٍ في الظلم يدعى "عمليق" من طسم، استنجدت به امرأة من جديس يقال لها هزيلة طلّقها

زوجها، وأراد أخذ ولدها منها، فخاصمته إلى عمليق وقالت: أيّها الملك حملته تسعًا، ووضعته دفعًا، وأرضعته شفعًا؛ حتى إذا تمت أوصاله، ودنا فصاله، أراد أن يأخذه مني كرهًا، ويتركني بعده ورها، فقال زوجها: أيها الملك إنها أعطيت مهرها كاملًا، ولم أصب منها طالًّا، إلّا وليدًا خاملًا، فافعل ما كنت فاعلًا، فأمر الملك بالغلام، فصار في غلمانه، وأن تُباع المرأة وزوجها، فيعطى زوجها خمس ثمنها، وتعطى المرأة عشر ثمن زوجها، فقالت هزيلة:

أتينا أخا طسم ليحكم بيننا ..... فأنفذ حكمًا في هزيلةَ ظالما
لعَمْري لقد حكّمت لا متورِّعًا ..... ولا كنتَ فيمن يُبْرِمُ الحكمَ عالما
ندمت ولم أندم وأنى بعترتي ..... وأصبح بعلي في الحكومة نادما

وصل قولها هذا إلى عمليق، فاغتاظ منها، وقرر أن ينتقم من جديس، أمر ألَّا تزوّج بِكْرٌ منهم، وتقدم إلى زوجها حتى يفترعها، فلقوا من أمره بلاءً، وجهدًا وذُلًّا، ولم يزل يفعل ذلك حتى زوّجت الشموس، وهي عفيرة بنت عباد أخت الأسود، فلمّا أرادوا حملها إلى زوجها انطلقوا بها إلى عمليق لينالها قبله، ومعها الفتيان، فلمّا دخلت عليه افترعها وخلّى سبيلها، خرجت الشموس إلى قومها في دمائها وقد شقّت درعها من قُبُلٍ ودُبُر والدم يبين، وهي في أقبح منظر تقول:

لا أحدَ أذلّ من جديس ..... أهكذا يُفعل بالعروس؟
يرضى بذا يا قوم بعلٌ حُرٌّ ..... أهدى وقد أعطى وسيق المهر

وعندما سمع أخوها الأسود قولها، وكان سيّدًا مطاعًا في قومه خطب بهم: يا معشر جديس إن هؤلاء القوم ليسوا بأعزّ منكم في داركم إلّا بملك صاحبهم علينا وعليهم، ولوا عجزنا لما كان له فضل علينا، ولو امتنعنا لانتصفنا منه، فأطيعوني فيما آمركم، فإنّه عزّ الدّهر.

وقد حميت عزّة جديس لما سمعوا من قوله، فقالوا: نطيعك؛ ولكنّ القوم أكثر منا.

فقال: إني أصنع للملك طعامًا، وأدعوه وأهله إليه، فإذا جاؤوا يرفلون في الحُلَلِ أخذنا سيوفنا وقتلناهم.

فقالوا: افعل، فصنع طعامًا، فأكثر وجعله بظاهر البلد ودفن هو وقومه سيوفهم في الرمل، ودعا عمليق ملك طسم وقومه، فجاؤوا يرفلون في حللهم، فلمّا أخذوا مجالسهم ومدّوا أيديهم يأكلون، أخذت جديس سيوفهم من الرمل، وقتلوهم وقتلوا ملكهم، وقتلوا مع ذلك عجزهم وذلّهم.

أما من بقي من طسم، فقصدوا حسّان بن تُبّع ملك اليمن فاستنصروه، فسارمعهم إلى اليمامة، فلما كان منهم على مسيرة ثلاثة أيام قال له أحدهم: إنّ لي أختًا متزوجة في جديس يقال لها اليمامة تبصر الراكب من مسيرة ثلاثة أيام، وإني أخاف أن تنذر القوم بك، فمُرْ أصحابك فليقطعْ كلّ رجل منهم شجرة، فليجعلْها أمامه.

فأمرهم حسان بذلك، فنظرت اليمامة، فأبصرتهم فقالت لجديس: لقد سارت إليكم حمير، قالوا: وما ترين؟ قالت: أرى رجلًا في شجرة معه كتف يتعرّقها، أو نعل يخصفها؛ وكان كذلك، فكذبوها، فصبَّحهم حسّان فأبادهم، وأتي حسان باليمامة، ففقأ عينها، فإذا فيها عروق سود، فقال: ما هذا؟ قالت: حجر أسود كنت أكتحل به يقال له الإثمد، وكانت أوّل من اكتحل به.

كان شخير شوع المتقطع قادمًا علينا من مقعدها الخلفي بعُلُوٍّ وانخفاض كأنه أصوات قطط صغيرة تلعب مع بعضها بعضًا، يبدو أنها لم تحب الحديث في التاريخ كما تحب الحديث في الفن الغنائي، والأحلام الوردية والزواج، ففضَّلت أن تسند رأسها إلى الخلف وتغمض عينيها في سباتٍ عميق.

توقَّف زويد عند بيت كبير جِدًّا أشبه بحوش مسوَّر له بوابة كبيرة مفتوحة على مصراعيها تكشف للمارّة خارج الأسوار ما خلفها، كان يقف على الجهة اليمنى للحوش صفٌّ بشريٌّ طويلٌ. رجال ونساء وأطفال فيهم الشبَّان والشيبان.

كما بدا لي من النظرة الأولى أن على معظمهم آثار التعب، والمرض. ثيابهم رَثّة، وشعورهم شَعْثَة، جلودهم مغبّرة، كان أغلبهم تظهر عليه وعثاء السفر. يبدو أنهم توافدوا من ضواحي الرياض، منهم مَنْ يستند على الآخر من شدة الإعياء، ومنهم مَنْ يصيح

بصوت تقشعرّ له القلوب والرؤوس والأبدان، ويفزّ له الطير من الغصن للسماء، وفيهم مَنْ يتقيَّأ، ويتقوّس على معدته مدنّسًا ثيابه، ملوِّثًا رائحة المكان، ومنهم من يسقط صريعًا حتى نسمع رأسه يدقّ على الأرض المبلَّطة، يتكهرب، ويتبعثر، ويتخطَّاه الناس سارقةً دوره في الصف حتى يفيق من نوبته، ويعاود الوقوف في الصف من جديد، ومع هذا الزحام يقف على الصف رجال يأمرون الناس بالحفاظ على لحمة الصف، وإلَّا لن يدخل إلى ابن مطراخ أحد منهم.

وكان من الجهة اليسرى كمٌّ كبيرٌ من البراميل البلاستكية الزرقاء كُتِبَ على بعضها ببخَّاخ من الطلاء الأحمر زيت، والبعض الآخر مكتوب عليها ماء، لا أعرف إن كانت فارغة، أم ممتلئة؛ لكنها مغلقة، ومن تحت كلِّ غطاء مقفل توجد قصاصة بلاستكية أقرب ما تكون أكياسًا، أو سفرة الأكل، وكمّ هائل من صناديق كرتونية، وعلب بلاستكية لمياه صحة المعبَّأة من حجم لتر، يبدو أنهم يفرغون المياه الصحية في البراميل، ثم يعاودون استخدام القوارير البلاستكية، فيعبِّؤون بعضها "ماءً مَقْرِيًّا" وبعضها زيتًا ليتم بيعه للناس!

التفت زويد للخلف، نكز شوع بيده، وصاح بها:

- شوع. قومي وصلنا لمقرى ابن مطراخ.

أخذتني الريبة والدهشة، والتساؤلات: ما حاجتها عند ابن مطراخ، كنا نسمع باسمه يتردَّد كثيرًا على ألسنة النساء ذوات نفوس يغشى على إيمانها السَّوِيّ للعين والحسد وسواسٌ محكمٌ باعتقاد تامّ أن ما أصابها لم يكن ليخطئها، وما أخطأها سيعود لها ويصيبها، وليس لها منه مَفَرٌّ إلَّا للموت، أو أن تردَّ عن نفسها البلاء بتعويذات مسجَّعَة تسجيعًا تستنكره اللغة، وحجابات مخيطة بعُقَدٍ صغيرة،

وكبيرة كُتِبَ بداخلها أسماء لا يتسمَّى بها الأنس، وزيوت مقطّرة على يديّ ابن مطراخ المباركتين حارقة للشياطين وطاردة للعائن، والحاسد.

سمعنا به. رجلٌ أعمى ينفث على الرجال بجماعة تلتفُّ حوله كحلقة يقرأ عليهم جملةً من آيات القرآن بصوت طِينِيٍّ خشن لهُ صفير، أما النساء، فيقرأ عليهنّ فرادى ويطيل!

عندما سألوه عن سبب الاختلاف محتجِّين على التفاوت بين الجلسات العلاجية بين النساء والرجال قال: إن المرأة تتسلَّط عليها الشياطين، والعيون الحاقدة، والنفوس الحاسدة أكثر من الرجل بسبب قلَّة عقلها، ونقص إيمانها؛ لكن أنفاسه الشافية، وشذرات ريقه الهَنِيّ الذي يرشقه على صدورهن المفتوحة أمام نظره المفقود تحصنُهُنَّ ممّا يوسوس بقلوبهنّ، ويلقي بهنّ بأحضان الحزن، ودهاليز الاكتئاب.

يقرأ ابن مطراخ بالمجّان حبًّا بالمساكين، وتواضعًا منه للمريض الفقير قبل المريض الغَنِيّ، وجلبًا لبركة الشفاء التي قد يمحقها حب المال في سبيل فعل الخير، وطلب الأجر؛ لكنه يبيع الناس وصفاته العُشبِيَّة العلاجية، وزيت شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء مباركة زيتونة. لا شرقية ولا غربية. أيقظه عليها نفرٌ من ملائكة السماء، وأمروه أن يعتصر منها ما يشاء، ويخلطه بزيت الدنيا، فتتغيّر صفاته إلى الزيت المُنزل، ثم يضاعف بركتها بتلاوته القرآن عليها، ويبيعها للناس يدهنون به أجسادهم، ورؤوسهم، وأن زيتها صالحٌ أيضًا للأكل وللشرب، وأوصَوْهُ بأن يتصدّق للضعفاء والمساكين بالمال حتى يزكّيَه الله، ويطهرَه ويتقبَّلَهُ.

أوقفت أفكاري وصرخت بها :

-شوع قومي حاتسيني، هذا المحل اللّي بتاخذين منه غريضات!

بدأت تتجاهلني، وهي تئِنُّ من الألم، وتتحسّس رقبتها:

-اللّه يصلحك يا زويد تمشي على بيض! شبعت نوم، وانكسرت رقبتي ما وصلنا. ترى المدى ثرمداء.

وبعدما أصررت عليها أن تعطيني جوابًا واضحًا أفهم منه سبب مجيئنا إلى ابن مطراخ أخذت تواري نظراتها الكاذبة، وتداري عينيها ألّا تقع بعيني، وتفضح حججها الواهية، وهي العارفة أن حيلتها هذه لن تنطلي عليّ، ثم لاطفتني بقولها وهي تنزل من السيارة:

-لي يومين، وانا أحس بتسه وفي أمرن ما يعلمه إلّا اللّه بس ما نيب أحب احتسي، عاد قلت ما يمنع آجي للشيخ ينفخ عليّ نفختين واشتري ماء وزيت.

قال زويد: أجل، أنا بنتظركم فيذا لا قضيتو اظهرو ولا تبطون عليّ.

أدخلت يدها بين ذراعي وصدري، ضمتها يدي إلى صدرها، وساقتني بدربها، التفتُّ نحوها محاولة أن أظهر لها أنها غير مقنعة بتاتًا!

-انعبوتس وين التسه وانتى قبل البارح تزهلقين عند دكتور العيون والبارح تنطلين بالسوق.

أكملت دربها، وقد صمَّت أذنيها عن صوتي، إنها لا تعلم أنه بمجرد توقُّف زويد عند "مقرى بن مطراخ" كشف اللّه لي نيَّتها،

ومرادها وما دبّرت وما تخفيه، كانت تعرف جَيّدًا أني لست من النساء اللّاتي يهوين التردُّد على القُرَّاء، أو حتى الأطباء، فكانت تتحايل عليَّ كطفل عنيدٍ لا يقوى والداه على إجباره، وأشدّ ما يخيفهما عليه عناده.

امرأة لطفها خَفِيّ، وحبها صادق، أُخُوَّتُهَا كنزٌ، وصداقتها ممتعة، وقفنا في الحوش مع الناس في آخر الصف. كان يدخل على ابن مطراخ مجموعة رجال، ثم امرأة، ثم مجموعة رجال، ثم امرأة!

عندما جاء دورنا أثارت شوع أن أدخل قبلها؛ لكني رفضت وبشدّة إلَّا أن ندخل معًا قدمي على قدمها، كاد الرجل الذي ينظِّم الصفوف، ويدخل الأدوار أن يصرفنا دون لقاء الشيخ؛ بسبب الوقت الذي أضعناه ونحن نتعازم على الدخول، لكنّ" شوع" لم تَدَعْ مجالًا لرفض الرجل، تمسكنت حتى خفض لها جناح الذُّل من الرحمة، تظاهرت بأنها لا تقوى على الوقوف حتى تسند جنبها إلى جنبي، وتتَّكِئَ عليَّ.

بعد ولوجنا إلى الحجرة الخاصة بالنساء وجدنا رجلًا مُسِنًّا طاعنًا في العمر يجلس على الأرض، ويلبس شماغًا أحمرَ يضع فوقه عصابة بيضاءَ، له حاجبان متهَدِّلان من اتّكاء الزمن عليهما، عيناه مبيضَّتان في غياهب العَمَى، أنفه عريضٌ. كأنه يتنفس بشكل مضاعف قياسًا بالبشر! مع شفتين ثخينتين لا يقف خلفهما أسنان، فمه فارغٌ إلَّا من لسان يندلق أثناء الكلام، ثم يعود إلى الداخل عندما يبلع ريقه المتطاير، يجلس متربّعًا، ويضع فوق رجليه عصا خُيِّل لي أنه يهُشُّ بها على آلام الناس.

دفعتني شوع أمام ابن مطراخ؛ لكني سحبتها أمامه، وتراجعت خلفها:

- هاو لا تدفّيني على الرجّال. أنا جايبتس يقرأ عليّ، ولا عليتس؟!

- ما اسطي يختي احتسي عليه انتي احتسي على انتس انا، ولا جت القرايه تقدمت ينفث عليّ!

سلمت شوع عليه، واسترضته. بعد ما أرعد صوته بنا يخاصمنا على حوارنا الذي لم يسمع منه إلَّا نَفَسَيْن مرتَبِكَيْن بالحجرة، ممَّا كشف لنا أنه مع ضرر بصره، فسمعه ضعيفٌ! ولا يكاد يفقه إلَّا بتكرار الكلام بصوتٍ عالٍ! اقتربت منه شوع، وهي تلوّح بيدها أمام عينيه؛ لتتأكد من سلامة بصره، وبعد ما اطمأنَّت كشفت عن وجهها، وأنزلت العباءة عن رأسها، وأزاحتها عن صدرها، وجلست براحة تامَّة أمام الرجل، وكأنها تجلس أمامي! وأخذت تشرح له على لساني من أمر الدم الذي دَفَقَهُ رحمي فجأة.

حين انتهى من تشخيص حالتي، ووصف العلاج العشبيّ، وأوصى بالزيت المبارك والماء الطاهر، كانت شوع تلهث من جفاف حلقها في سبيل أن تشرح له الحالة كاملة وواضحة، ثم قال باختصار تامٍّ، وبكلمتين محدَّدَتَيْن:

- ما فيتس إلّا رُوعَة.

رفعت رأسها إليّ، وهي جالسةٌ على الأرض أمام ابن مطراخ، وأنا الواقفة خلفها، رمقتني بنظرة تحقّق بها في تاريخ حياتي كاملًا.

لكنّ ابن مطراخ باغتها، وتناولها بين يديه الكبيرتين، وما استطاعت أن تظهر، وما استطاعت منه مَفَرًّا، بدأ الرجل يقرأ عليها بشكلٍ عجيب ظنًّا منه أنها صاحبة الحالة، كان بمثل طفل يدسُّ وجهه بين نهديْ أمِّه خوفًا وجوعًا! التصق بها شرَّ التصاق، حتى ما كان منها إلَّا أن صرخت به من قمة رأسها. تستنجد بي؛ لكنّي لم أستطع فعلَ شيْءٍ أصابني الذهول، والخوف. استشعرت لو أنِّي مكانها، بعد ما فشل استنجادها بي، دفعته إلى الوراء حتى ارتطم بالحائط، وأخذ عصاه، وضربها على ظهرها، وهي تحاول الهروب منه، هربنا معًا، وصوته يسابقنا بالسّباب واللّعان:

-ملبوستن سكن يالسكنية!

جرينا بخفة تفوق الخفَّة ذاتها، وبسرعة فائقة نسابق بها صوت ابن مطراخ، من خوفنا خُيل لنا أنه نهض من مقامه، ولحق بنا بعصاه، ركضنا حتى توقّفنا أمام سيارة زويد، الذي ترجَّل منها حالًا، مستغربًا ومستنكرًا ، يسأل عن سبب ركضنا، وإن كان هناك ما أرعبنا أو إن كان أحد قد لحق بنا، لم أملك لأسئلته جوابًا غير ضحكاتٍ مرعوبةٍ، كأنما فرَّتْ من قسورة.

ركبت شوع السيارة، وهي تتحسّب على ابن مطراخ، وتدعو عليه بأشدّ الدعوات وتصُبُّ أقسى اللَّعنات، تضرب بيدها على كرسِيِّ السيارة، وتطلب من زويد أن يقود بعيدًا عن هذا المكان بلغة شديدة اللّهجة.

أعتم الليلُ، وقلبي ما زال عند شوع، بعدما عدنا من مقرى ابن مطراخ، افترقت عنها قبالة أبوابنا، دخلت كلّ واحدة منا إلى بيتها، مرَّت على النهار أوقاتٌ، ومضت من الليل ساعات، لم تدقّ بابي حجارتُها، ولم يتّصل بي هاتفها.

لم تكن بحالتها الطبيعية، ولا ألومها على هذا، ودَّعتها غاضبةً، وفي أشدِّ حالات القرف والسأم، تجاهلتني، ولم تردّ علَيّ وداعي بكلمة أو إيماءة، دخلت بيتها، وهي تغلي من الغضب. صفعت الباب بقُوَّةِ القهر الذي بداخلها، أخشى ما أخشاه أنِّي شاركت ابن مطراخ قهرها هذا، واعتديت على كرامتها معه بسبب ضحكاتٍ كانت منْ خوفي ودهشتي، وقلَّة حيلتي، وضعف شخصيتي.

جهّزت عشائي الذي من عادتنا أن نتشارك تناوله أنا وشوع ككلّ مساء أربعاء، عدة أطباق من النواشف ممّا جادَ به مطبخي، جبنٌ مثلث، زيتونٌ أسودُ، عسلٌ، تونةٌ حمراءُ وبيضٌ بلديٌّ مسلوقٌ من إنتاج دجاجات جارتي "أم غازي" التي ترسل إليَّ سلة من الخوص ممتلئةً بالبيض البُنِّيِّ مطلع كلّ أسبوع. تقول لي أم غازي: تراهن نقوة، وتوصيني بأن أكسر بيضة في كأس، وأشربها صباحًا على الريق؛ لتقوّي بدني، وتحمي مخِّي من الخَرَفِ، ولم أعمل بوصيَّتِها، ولن أعمل بها!

وضعت الأطباق إلى جانب الخبز الشامِيّ الأبيض بصينية خشبية كبيرة، وغطّيتها بمنشفة نظيفة تحمي الأكل من النمل، والذباب، ثمَّ صنعت أبريق شاي مخدر، أضفت على الماء سكّرًا مضاعفًا عن المقدار الأصليّ، وعِرْقين من عروق النعناع المُورِقَة ذي

رائحة عطريّة تخفف الألم النفسي، وتهدِّئ العقل، وتريح الأعصاب، ثم أضفت الشاي الأسود السيلانيّ المفتولَ، وتركته على نارٍ هادئة حتى يقلب لونه ويتركّز طعمه، حضَّرته تمامًا كما تحبه شوع، وبكلّ حبٍّ، وألم الذّنبِ، وصحوةِ الضّمير.

وضعت بجانب الإبريق إستكانَتَيْ شاي. واحدة لي، وأخرى تحسُّبًا لمجيء شوع، وثالثة قلبتها، وأدخلتها في عنق الإبريق؛ لكي تحبس البخار، ولا يبرد الشاي بسرعة، خرجت من المطبخ أحمل صينية الشاي إلى برْحة بيتي، هذه الليلة أجلس هنا وحيدة أرعى القمر وأعدّ النجوم، وأقلب إذاعات الراديو بين أصبعين من أصابع الكتمان، علّها على غفلةٍ مني تسحب حبل بابي، وتدخل عليَّ، ونتناول عشاءنا، ونسمع سَوِيًّا التمثيلية الإذاعية ونضحك عليها، كما نفعل في ليالي الخميس الخوالي.

أول مرة سمعنا بهذه التمثيلية الإذاعية كانت قبل عامين على ما أذكر، كنت يومها في بيت شوع. قال لنا والدها: إن اليوم ستذاع تمثيلية على الراديو لأول مرة، كما أُعْلِنَ عنها في الإذاعة طيلة أسبوع، جلست أنا وعائلتها. والدها "أبو جمعة" وأخوها جمعة في مجلس بيتهم كعائلة واحدة متحمسين لما سيذاع، وكيف سيكون، جمعة أخو شوع كان يدرس آخر سنة في المرحلة الثانوية، ويستعد للاختبارات النهائية بتملُّصِه من الدراسة والجلوس معنا حاملًا كتابًا قد طُمِسَ غلافُهُ بكثرة التواقيع محاولًا صناعة توقيع يشبه شخصيته الطامحة، عندما خاصمته شوع على تشويه كتابه قال لها: إنّ هذا التشويه ما هو إلّا الخطوة الأولى لتزيين الشيكات بجرَّة قلمه!

كان جمعة يبدِّد وقت الدراسة بعيدًا عن المذاكرة وقريبًا من ساعة النوم بأمور لا تعنيه، لم يكن جمعة سيكمل دراسته. لولا أن شوع وقفت له بالمرصاد واتَّخذت موقفًا من تكاسله، وتغيبه عن المدرسة، تخاصمه، ولا تتكلم معه. تتظاهر بالبكاء والزعل على مستقبله، وتمنع عنه المصروف كنوع من العقاب، وإذلال عناده للرضوخ، كانت تريد أن يكون بعائلتها شخصٌ واحدٌ على الأقل ذي تعليم عالٍ، وشهادة مرموقة، ووظيفة حكومية تحميه من تقلبات الزمان؛ لكن جمعة يخطط أن ينهي الدراسة فقط من أجل أن يرضي شوع، ثم يؤسس فرقة السامري الخاصة به.

كان للتمثيلية الإذاعية مقدمة بموسيقى، وإيقاعات جميلة، عزفٌ على المزمار والكمان وضربٌ على الدف، والرّق بشكل متناغم وراقص، يأتي صوتا مذيعين. امرأة ورجل على الخلفية الموسيقيةَ يقدمان الممثل، واسم البرنامج:" كل يوم مع عبدالعزيز الهزاع وحمد الصبي في طريق المحبة "، ثم أطفال يغنون أغنية المقدمة بحناجرَ صغيرة صارخة كالزمرات التي يتجوَّل بها بائعو ألعاب الأطفال في الأحياء وبين البيوت " في طريق المحبة لا تخلي الحبة قبة ".

تبدأ التمثيلية بضحكات شخصية "أم ناصر" التي يؤدي دورها بتقليد صوت المرأة المونولوجست عبدالعزيز الهزّاع، ويؤدي صوت الرجل "أبو ناصر"حمد الصبي، في حوار ساخر دار بين زوجة وزوجها حول خبرٍ نُشرَ بجريدة محلية عن رجل في دولة أجنبية صدم كلبًا مشرَّدًا بسيارته عن طريق الخطأ، فسارعت السلطات بحبس الرجل ونقل الكلب للمستشفى البيطري، حفاظًا على حقوق الحيوان، وحفظًا لحياة الكلب، ولردع الإنسان المستهتر، المغرور، المتجبر

والمتعالي على من دونه في دائرة الحياة، ضحكنا كثيرًا على حوراهما الساخر الذي تطرَّق إلى أبعد من قيمة الكلب، وساومه بقيمة الإنسان، إلَّا أني وشوع كنا نتساءل عن اسم الممثلة التي قامت بدور أم ناصر فهي لم تذكر في المقدمة إلى جانب أسماء الممثلين الرجال، لكن أبا جمعة فاجأنا حين قال لنا إن أم ناصر لم تكن امرأة، بل هي المونولوجست عبدالعزيز الهزاع الذي باستطاعته تطويع صوته للعب عدة أدوار في وقت واحد، فبإمكان هذا الرجل أن يكون الأب والأم والجارة، والولد، والبنت، وتقليد صوت بقرة حوشهم، وأزيز باب بيتهم وحنّة ماكينة سيارتهم، تعجبنا كثيرًا، ودهشنا من قدراته.

أخذت شوع تغيِّر صوتها بتضخيمه كرجل، وتنعيمه كامرأة وتصغيره كطفل، وتصنع حوارًا وتطلب مني مشاركتها؛ لكنها كركرت ضاحكة، وأفسدت التمثيلية الارتجالية، سأل جمعة والده عن جواز التقليد فقال له وهو يستعد للذهاب إلى المسجد ليؤذن بالناس لصلاة العشاء: إن رجلًا من طلبة العلم في مسجد عبد الله الشيخ سأل الإمام والخطيب ابن باز أثناء درس كان يعطيه للناس بعد صلاة العصر عن حكم تشبُّه ابن هزاع بأصوات النساء، فضحك ابن باز وقال: ابن هزاع جماعة في واحد.

ومنذ السنتين الماضيتين إلى اليوم نجح عبد العزيز الهزاع في تشنيف آذان المستمعين من خلال أعماله التمثيلية المتتالية، ومعالجة القضايا الاجتماعية بواسطة الأدوار التي جسَّدها وأدّاها في الإذاعة من خلال مسرح الإذاعة، ثم اكتساحه مسرح التليفزيون تزامنًا مع مسرح الإذاعة، حتى أدمنَّا سماع تمثيلياته، وبتنا لا نستطعم لَمَّةَ الشاي إلَّا مع شخصياته المتعددة.

لم أستطع انتظار الأماني، والرجاءات تقود شوع إليّ، أطفأت الراديو، وتناولت شيلتي ووضعت عباءتي على رأسي. حملت صينية الشاي معي واتجهت إلى بيت شوع، طرقت بابهم، وفتح لي جمعة. رحّب بي، وسلم، وتناول صينية الشاي من يدي، ثم قال: كنت في طريقي إليك، كان يظهر على ملامحه حزنٌ، واستياء. ظننت أنَّ خلافًا دبَّ بينه وبين شوع، وأراد مني التدخل، وإصلاحه كعادته معي، هممت بسؤاله عمَّا جرى؛ لكنه سبقني، وسألني عن حال أخته، ولِمَ تحبس نفسها في غرفتها، وتأبى أن تكلِّم أحدًا، وأنها لم تأكل، أو تشرب منذ عادت للبيت ظهر اليوم.

قال محبَطًا: إنه قبل ساعات دخل عليها مغمورًا بفرحته. أراد أن يبشرها بخبر قبوله في مدرسة موسيقى الجيش العربي السعودي، ثم إنَّ المدرسة منحته بعثة إلى معهد الموسيقى العربية في مصر لوظيفة عازف آلات موسيقية عسكرية، لكنها لم تكترث لأمره، وأغلقت الباب على طرف ضحكته، وفي وجه فرحته، استكثر تصرفها معه، فهي مَنْ دفعه للتَّقدُّم لهذه المنحة، وإقناعه بها؛ لأنها تجمع بين حبه للموسيقى، وحلمها بحصول أخيها على شهادة عالية، وسفرها إلى مصرَ معه.

كان يقول بمرارة: هذا القبول كانت تنتظره شوع، وتدعو الله وتتصدَّق من أجل تحقُّقه أكثر مني، أرعدني كلام جمعة عن وضع شوع، أدركت أن الأمر أكبرُ من رشوتها بصينية شاي، وأن الحياة تساوت في عينيها، اكتفيت بالسكوت، وهزّ رأسي بأسف لم أقلْ لجمعة حرفًا أو مقالًا. رَبَتُّ على كتفه، وتظاهرت بجهلي بأمرها وقلت له: سأدخل إليها وأنظر لأمرها.

صعدت السلم إلى السطح، حيث غرفة شوع في الطابق الثاني من المنزل، وجدت الباب مواربًا، فرحت أنه لم يكن مغلقًا؛ لأنها لو أقفلت على نفسها الباب، لن تفتحه لأحد مهما كلفها الأمر، اقتربت من حجرتها بهدوء، وراوزت عيني على شقّ الباب، ثم نظرت إلى الداخل. وإذ بها تجلس على الأرض خلف سريرها، ومتّكئة بظهرها على أحد جنبات السرير تبكي بوجعٍ، وتضرب على صدرها بحزنٍ، وتلعن نفسها بغضب.

انفطر قلبي على حالها، ولا أعرف كيف سأخفف ألمها، وأخرجها من هذا الكرب، لعلي أفتح حديثًا معها؛ لكنّ عن أيّ شيء؟ سأتحدث وماذا سأقول؟ لا أظن أن بالقول سلوى ولا نسيانًا، دلفتُ إلى غرفتها، فصدر من بابها أزيزٌ، عندما سمعته مسحت دموعها، التفتت إلَيّ وفي نظرتها عتبُ الأولين والآخرين، جلست إلى جنبها، وضممتها إليّ بقوة وجعنا وصمتنا..شعورٌ قاسٍ، وعميق أن تحتوي من يحتويك، ويغشاك بلطفه، أن تحمل سقوط من كان يحملك في سقوطك ووقوفك، تساءلت أنا وقلبي: هل بمقدرونا أن نعطي كما أخذنا؟! وددت أن أغمرها برحماتي وبركات الله حتى تشفى، وتنسى وتسلو للأبد كأنْ لم يصبْها وَصَبٌ.

أسندتُ رأسها على كتفي، ووضعت بدوري رأسي على رأسها، وجعلت مسافة الذراع ما بين كتفي وكفي تحتويها إليّ. صمتنا طويلًا، تأمَّلنا شريط الذاكرة، حاولت كلٌّ منا إعادة ترتيب المشهد العام، قصصنا مشاهد لا نرغب أن تعرض على المدى البعيد ضمن الذكريات، ثم أعدنا لصق الشريط بالشكل الذي نرضاه لعلاقتنا.

أثناء دفني لذكرياتي بصمتٍ مني، وحفرها في حياتي بصمت منها جاءني صوتها يتسلق أسوار مقابر الذاكرة مترددًا، وخافتًا، ومتعبًا من البكاء يلتحف على ظهره أسئلة خيطت بعضها ببعض بهيئة رقع على غطاء قديم، وَرَثّ، وجدته مُلْقًى على طريق الخوف علَّها تحتمي به من برد النَّوائب، وتجد في جوابي من اليقين ما يهوِّنُ به عليها بعض المصائب.

سألتني: ما أسوأ موقف حدث معي في حياتي، وهل استطعت أن أنساه، وأتخطَّى عقباته وأعلو درجة تِلْوَ الدرجة، دون أن أتعثَّر، وأسقط، وعلى مَن استندت، وفيمن وثقت، وأين اتّجهت، ولمن لجأت، وهل شفيت وبَرِئَ جرحي؟ أم أني أهملت علاجه بالتناسي حتى غطاه العَفَنُ، والخَمَجُ، وظننت أنه التأم والتحم، وهل لا أزال أحمل ذلك العضو المعطوب بصدري؟ أم بترته بقسوة، وألقيته بلا رحمة، وعشت بلا سلوان؟

شعرت أن الدنيا تتآمر عليَّ، وتدسُّ لي في طيَّات حياتي صُدَفًا لا أطيق تكرارها، ولا أحتمل إلحاحها، وتتصنَّع المواقف لتَتَّخذ الأسئلة، والتفسيرات وسيلة لتضعني في قلب حدث غادرته بلا أسف عليه، وأظُنُّ أنه لم يغادرني مع أسفه عليَّ، فكرت مَليًّا قبل أن يمجّ قلبي بغصَّته، ويسترسل لساني في رواية أحداث متتالية قست علَيَّ، وأبكتني إلى حدّ الخرس.

تـردُّدي، وتهرُّبـي مـن إخبـار شـوع جُـلّ تفاصيـل خيباتـي، لـم يكن انتقاصًا لشخصها،أو عدم ثقة في حفظها لأسراري، لكنه ابتعادٌ مفتعلٌ عن موطن وجعي الذي أقسمت أن أهجره ولا أعود إليه؛ حتى جاء اليوم الذي يخونني فيه قسمي ويعود إلي، ليس حبًّا فيما كان أو ندمًا على ما آل، إنما عبثٌ في محرماتي وزيادةٌ في أحمال خيباتي.

عندما تعرفت على شوع في بداية علاقة الجيرة بيننا التي قد بدأت قبل عشرين عامًا، حينها لم يمرّ على وفاة جدتي سوى أسابيع، انتقلت من بيت العائلة في حيّ الفوطة الذي كنت أسكنه أنا وجدتي، ومرزوقة، ووالدي.

أصرَّ أعمامي على بيع البيت، وتقاسم تركته مع ما تَرَكَتْ جدَّتي خلفها من أموالٍ وبيوتٍ وأراضٍ، كان عند عمومتي رغبة شديدة بطمس كلّ ما يتعلق بحياة أمي لطيفة ونسيانها، والاستمتاع بثروتها، لكن وجودي كان عائقًا لهم، وعالقًا بهم.

كانت أمي لطيفة على حياتها تشعر أن ضياعًا سيصيبني بعد وفاتها لوأنها سمحت لأبنائها الثلاثة اقتسامي مع ما تركت لهم، وهي التي تعرف جَيِّدًا أن عمومتي لا يحفظون لي ذلك الحب الوطيد، مكانتي لديهم لا ترتقي إلى مكانة محبة الأبناء، مكانتي ما دون المحبة بكثير، ربما تهبط إلى حدود الكره!

لم يكن لي، ولا لهم في عداوتهم تجاهي ناقةٌ أو جملٌ، هي مواقف اتّخذوها من جدتي وأبي، وأشركوني معهم رغم صغر سني وجهلي بأطماعهم وحججهم، كانت كل الأحداث تدور حولي، ولا أدور حولها، إلّا أنّي كنت أول مَنْ عصفت به ريحهم العاتية، لم أكن تلك الفتاة الفطنة للمجادلات والمشكلات التي ترشق أذني حواراتها على كل حين، كان فكري بعيدًا تمامًا، يهيم في وادٍ آخرَ مع شخصٍ آخرَ في شيءٍ آخرَ.

كَوَّنَ أعمامي الثلاثة رابطة متآمرة دنيئة تُؤَجِّجُها الأطماع، كأنما عقدوا حِلْفًا ضد أمّهم! باستثناء أبي الذي صَمَّ أذنيه عنهم، وشاح بعقله وقلبه إلى أمه، حَنَقَ أعمامي على جدتي بسبب رفضها مطالبهم، وأبغضوا والدي، وأبغضوني معه بسبب معارضته لهم، ووقوفه إلى جانب أمي لطيفة ضد رغبتهم باقتسام مالها، ومال جدي الذي خلَّفه لهم بعد موته، بحياتها وقبل وفاتها، أرادو أن يرثوا الأرض وما عليها!

منذُ أن خُطَّت شواربهم تحت أنوفهم، وجشَّت أصواتهم في حناجرهم، وصار الرجال يعُدُّونهم رجالًا، احتواهم أخوالهم مستغلين فراغ مكانة الأب بحياتهم، وزرعوا في أدمغتهم اللَّيِّنة أشواكًا يطعنون بها مهنة أمهم، وأعمال الخير التي وهبت مالها وعمرها للقيام بها، وعاهدت زوجها على أن تكمل الدرب من بعده وألَّا يثنيها عن طريقها إلّا الموت.

كانت وما زالت عائلة جدتي عائلةً ثريَّةً عريقةً متعاليةً تنظر إلى صاحبات المهن بالنقيصة والدُّونِيّة، كانَ نسوة عائلتها فارغات،

مغرورات، بدينات، ساذجات، ثرثارات صاحبات غيبة ونميمة، يفلحن بالإنجاب ويفشلن بالتربية، أما الرجال فكانوا أشدَّاءَ جُلَفَاءَ غامضين لا يعبرون عن أنفسهم، ولا يسعَوْن للتفاهم. يديرون حياة العائلة بكاملها، ولا يسمحون لأفراد العائلة بالتّدَخّل، أو الاعتراض.

لكنَّ جدتي كانت مختلفة، لم تلدها ولَّادة كما كان يُفَاخِر بها جدي على حدِّ قوله، أرادت دائمًا أن تصبح ذات مهنة، وذات قيمة، والدتها لم تساعدها على هذا خوفًا من والدها، ووالدها لم يسمح لها بأن تتعلّم حرفة أحبَّتها؛ خوفًا على سمعته، ومكانته بين الناس؛ بل كان يوبّخ تواضعها، ويعاقبها لتوَدُّدِها الدائم للخدم، وتواجدها معهم، ويحثّها على التكبر والتنَدُّر!

بعد زواجها أتعبت إخوتها فكرة أن امرأةً تقوم بأعمال الرجال الاجتماعيّة، ويساندها على هذا رجل بيتها الذي يملك أمرها! ظنُّوا بِجَدِّي الظنونَ، قالوا إن زوجها أضعف منها، ولم يستطع عسف هواها، وكسر شوكتها، لم تكن عقولهم تتخيَّل أن في الدنيا رجالًا يكرمون المرأة كما يكرم الرجل الرجل، لم يحظَ جدي الكريم بمكانة جيّدةٍ تليق بكرمه عند أهلها، ولعلهم احتقروا رجولته، لأنه أعطاها حريتها، ولم يقيِّد رغباتها.

تثاقلوا من امرأة، فما كانت أختهم أن تخطفَ الثناءَ والامتنانَ الذي يستحقونَهُ بكون الرجل أحقَّ بهذا من المرأة، لم تكن جدّتي تسعى إلى المدح، والشكر؛ بل كانت ترده في أفواه الضعفاء الذين يتلفّظون بِهِ أمامها، وتطلب منهم أن يحمدوا الله ويشكروه بذاته فقط.

كانت الخياطة حلمها العَصيّ؛ لأنّ اعتبارات عائلتها لن تنزل من برجها العاجيّ إلى مقابر تضمُّ هياكل الناس؛ لأنهم بيت ثراء، وتجارة، وسيادة أبٍ عن جدّ، فهي ليست بحاجة لعمل تكسب من ورائه تعبًا كثيرًا، وتقبض منه ثمنًا بخسًا، ثم إن اسمها سيتردد كثيرًا على ألسنة العوام قبل الخواصّ، وهذا ما يترفّعون عنه.

يقولون: "خلف كلّ رجل عظيم امرأة"، وخلف كلّ امرأة عظيمة نفسها، وأقول على كل طريق عظيم رجل، وامرأة تعاهدا أن يمنح كلٌّ منهما الآخر أفضل ما عنده، أن تتلاشى فكرة الفرد، وتتماهى في حقيقة الزوج، أن يعطيا ولا يمنُّ بعضهم على بعض، كمن يهب نفسه ما تستحق من المجد والنجاح، بهذا التلاحم الدافئ، زرع جدي بداخل أمي لطيفة الشجاعة والجسارة. كان يفتخر بإنسانيتها، وتواضعها الكبيرين، ويوكل لها جزءًا من أعمال الخير التي يتقاسمان جلّها، ويؤديانها بحبٍّ وكرم، كانت تسمّي أعمالهما هذه التجارة الرابحة، وأحيانًا تجارة الآخرة، لم يكونا بحاجة للمال، وللعمل كما كان المال والعمل والناس بحاجة إليهما.

منحت أمي لطيفة جدي الاستقرار النفسيَّ، والمادِّيّ، والمواصلة في دروب الخير بلا خوف من فقرٍ، أو فاقة؛ بل بناتج عظيم من المودّة والرحمة، أعانها زوجها على الوصول إلى حلمها، وأعانت زوجها على تغذية طموحاته وتسمينها، كان بيتهما لا يُغلَقُ في وجه ضعيف أو مسكين؛ بل يعولانهم ويقومان على حوائجهم، كانت زوجة بعشرة رجال قوَّامون، وكان زوجًا بعَشْرِ مدن آمِنَة.

عمل الاثنان على تدوير المال، فما كانا يُحصّلانه يذهب

مباشرة لفعل الخير؛ بل كانا يتصَدَّقان، ويساعدان، ويعاونان الفقراء بمال عملهما كلّه، لا يدّخران، ولا يصرفان من المال لنفسيهما شيئًا، كما كانت تُعلم الأرامل، والمهجورات مهنة الخياطة ليكتسبن بأيديهن لقمة تقيهنّ.وأبناءهنّ حرارة الجوع وحرقة الحاجة.

ما كان إخوتها وأبناؤها يجهلونه عنها أنها تخيط ثياب للفقراء بالمجان، ولا تأخذ منهم بالدَّيْن، بخلاف الأغنياء الذين تأخذ منهم مقابلًا مجزيًا لتعبها الذي في أحيان كثيرة قد لا يكون نقدًا، بل في غالب الأمر يكون تقديم خدمات، وقضاء مصالح للفقراء معلّقة عند هؤلاء الأغنياء، كانا - رحمهما الله- يتقربان من ربهما الغني بعباده الضعفاء.

لم تنتظر من رجلٍ أن يعطي فقيرًا، أو يساند محتاجًا، أو يحنو على مسكينٍ، كانت تفعل الخير بيدها، وإن لم تستطع، فبلسانها، وإن لم تستطع، فبقلبها وتقول: إن هذا أضعف الإيمان، كانت امرأة متديّنة قويّة بربّها. مستقلّة بذاتها. لم تطرق سمعها لأبنائها، ولم تذلل حريتها لأجلهم، ولا من أجل إإوتها من قبل، ما دام في حياتها رجلٌ شقَّ لها طريقًا بحبه لها، وظلَّلَهُ بإيمانِهِ بها.

حاولت جدتي أن تزرع هذا العطاء في أبنائها؛ لكنَّ أنفسهم كانت بَوَارًا، لا تنبت الخير ولا يثمر فيها الإحسان، اتّسمَ عمّي سعود بالحزم، والتشدد، وضيق الأفق، وعمّي سعد اتّسمَ بحب المال، والبخل، والاحتيال، أما عمّي حبيب فكان رجلًا بغيضًا مترفًا مدلّلًا لا يحسن ضبط ذاته الأنانية، كانت طباعهم تختلف تماما عن دَيْدَنِ والديهم، لم يشبههم في دأبهم من أبنائهم سوى أبي خبيب.

ما كان والدي في طفولته وشبابه محظيًّا بالحبّ، والدلال كالأبن البكر الذي عادةً يكون له النصيب الأكبر في محبَّة والديه، وتقديرهما إيَّاه على مَنْ هُمْ أصغر منه، ولم يكن آخر العنقود صاحب الحب المعقود الذي عادةً يكون له القسمة العظمى من دلال والديه ومراعاتهما إيَّاه على حساب مَنْ هُم أكبر منه، كان أبي الابن الثالث بالعدد والثاني بالحمل يكبره أَخَوَان توءم بفارق حولين كاملين أتمّا بهما الرضاعة.

حكت لي جدتي بعد وفاة والدي وهي تذرف الحسرات على فقده، وتتلذَّذ بالذكريات لذكره، أن حملها به كان وهنًا على وهن، في بادئ حملها لم تكن تعرف أن عَلَقَةً تتدَسُّ في رحمها، وتكبر على عَجَلٍ لتصبحَ مضغةً، ثم إلى جنين، اعتادت نزول دورتها في موعدها طوال الثلاثة أشهر الأولى، وبعد ما تجاوزت المرحلة الأولى من الحمل انتبهت أن شيئًا ما يرفس بطنها بِحِنِّيَّةٍ بالغة، وهدوء يبشِّر بوصول ضيفٍ متخفٍّ في جوف أمه، استدعى لها جدي الطبيبة النسائية الشعبية، وأبلغتهم بأنها حاملٌ بشهرها الرابع، ويجب عليها أن ترتاح راحةً تامَّةً، وأن تقضي ما تبقَّى من أشهر الحمل مستلقيةً على ظهرها، وأشارت على جَدِّي بأنْ يجلبَ لها مَنْ تخدمها، وترعاها، وتهتمّ

بصغارها؛ لأن حملها ضعيفٌ، ويمكن أن تفقده بأيّ وقت، لم يتأخَّر جدِّي ليهيِّئَ لها سبل الراحة، اشترى مرزوقة التي أصبحت بسرعة فردًا من العائلة حتى تخلِّصَ منها التوءم الذي اهتمَّت بهما، وربَّتْهُما بعد مواراة أمهما تحت الثرى.

أما في أشهر الحمل الثلاثة الأخيرة، فكان ينتابها طوال الليل طلقٌ كاذبٌ يخادع راحتها ويقلق مضجعها، خافت أن تضع طفلًا لم يكتمل تكوينه، وأن يولد ناقص الخِلْقَة، أو أن يموت فور ولادته، كانت تضع يدها على بطنها، وتغدق الدعوات، والأماني على أن يكون ما تحمل أنثى، لكن الأنثى التي حلُمَتْ بها أتى بها القدر على هيئة حفيدة.

كانت الولادة تكاد أن تزورها كلَّ ليلة، وتقبل عليها، ثم تصدّ عنها، قالت لها النساء الأكثر تجارب بالحمل والولادة إنَّ حمل الإناث، وولادتهنَّ أكثر مشقَّة، وبرودًا من حمل الذكور وولادتهم، بتحليلاتهنَّ النظريَّة كشفن عن جسّ المولود الذي يتكوَّرُ خلف ثلاث ظلمات، كبرت الأماني في قلب جدتي، ورجحت الظنون، فلما وضعته ذكرًا قالت بخيبة إني وضعت ذكرًا، ظلّ والدي أسبوعًا كاملًا بلا اسم يُشار إليه به! حتى جاء اليوم السابع. يومٌ تسمَّى به الأمور بأسمائها، فيه ذبحت عقيقة أبي شاتان سمينتان، وحلق شعره، ولا أعرف كيف تمكَّنوا من وزنِ شعرِ طفلٍ كزَغَبٍ يغطّي جلدَ طائرٍ بمثل عمره الصغير، وأيَّة قيمة أعطاهم حتى يُثقل هذا الريش الخفيف بجنيهات من الذهب، فرَّقوها صدقات، حمل جدي طفله وأذَّنَ بأذنه اليمنى، وأقام الصلاة بأذنه اليسرى، وبعد ما فرغ من الأذان والإقامة. لمح جدي على وجه والدي ابتسامة صغيرةً تأخذ طريقًا إلى جانب وجهه، ضحك جدي، وقال لجَدَّتي مداعبًا حزنها، لنسَمّهِ "خَبيب". منذُ حمله الخفيّ وولادته التي كادت لا تصل، وابتسامته هذه يبدو عليه أنه لعوب وماكر.

بعد عامين من المناعة الطبيعية من الحمل بسبب الرضاعة. تبع والدي خمسة أرواح انزلقت من رحم أمهم، أصاب رحمها الضعف فجأة، فقدتهم أجِنَّة مصوَّرة. لم تبلغ تمام الخلقة. ولا تمام القوة. كانوا أضعف من أن يتمسكوا بحبال الحياة، قالت لي جدتي:

إن أطفالها الخمسة قد خُلِقُوا بأجنحة بيضاءَ صغيرة! ومَنْ يخلق بجناح ليس ابن الدنيا إنما هو ابن الآخرة؛ أتى ليهبَ والديْه شفاعةً منَ الله، ويعود إلى ربه، ثم إلى جنّته فيحلّق بها عصفورًا فوق قصر بَنَتْهُ الملائكة من طوبِ الذهبِ والفضّة للوالدين الصابرين جزاءً لصبرهما، واحتسابهما لما عند الله، كنت أسألها بتعجُّب: كيف تحمَّلتِ موت خمسة صغار متلاحقين، قالت: أنا لا أنظر إلى الخسائر؛ بل أحصر نظري كلّه في المكاسب، لقد أعطاني الله خمس شفاعات، وأربعة أبناء، مقابل خمسة طيور صغيرة، ثم استعاذت من الشيطان الرجيم، ورتَّلت قول الله تعالى :[إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلاَّ الْمُصَلِّين (٢٢)].

عولجت جدَّتي بكلِّ خلطاتِ الأعشاب الموثوقة، وغير الموثوقة، والفعّالة، وغير الفعّالة، كانت تأمل ببطن أخير يحمل فتاة تحقق حلمها بعد عشرة أعوام، كان أبي خبيب أقوى من إخوته الذين خسرتهم جدتي في طريق المحاولة والتجربة، صحيح أنه لم يصمد كثيرًا، وولد في الشهر السابع؛ لكن قُدِّرَ له أن يعيش، منذُ ولادته أحبَّ الحياة، وتعلق بحبالها وأرادها لنفسه فقط .

جدتي وأبي كانا يداريان عني المشكلات، ويجنباني المواجهات حتى وإن أخذ نصيبي قسمته من ابن عمي أصيل يأخذها أخذًا طيّبًا، لا تشوبه شائبة، أرادا لي علاقة نقيّة لا تلوثها حزازيّات الأطماع، ولا حساسيّات الخلافات، حتى أتت علينا سنة قلبت موازين الحياة، حدث بها ما علق الأمور على منصّات مشانقها، موتٌ وضياعٌ وفقدٌ، جعلتني أكبر مئةَ عام دفعة واحدة، وبداخلي صندوق ألغاز كبير، لم أستطع تفكيكها أو حلّها، ركلتني الحياة نحو جدارالفقد، ودُفِنْت تحته، ثم وضعت صندوق ألغازهم فوقي، وأخفتني للأبد.

رتَّبتْ لي جدتي حياتي الخاصة قبل موتها بشهور، عندما شعرت بدُنُوِّ يومها لم تفكر بشيء سوى حياتي، وكيف سأكملها، وبأيِّ شكل سأقوم عليها، استشارت أمي لطيفة مرزوقة علَّ حكمةً ما تجري على لسانها؛ لكنها أبعد ما يكون عن هذا الطريق أفصح لسانها عمَّا أكل عقلها وقلبها، وضعت يدها تحت ذقنها، وأخذت تستبصر الأمر وتقلِّبه في فراغ رأسها، وكأنّ ألف ألف فكرة تطرأ عليها.

-والله ياعمتي أنا اشوف مالها إلا اعرس.

ثم شقّت وجهها ابتسامة الانتصارعلى الحيرة التي أرّقت جدتي: بجيب لها ذاك المعرس السكبه ولي الحلاوة.

كعادة جدتي حين تسمع كلامًا لا يعجبها أخذت تبحلق في وجه مرزوقة، ثم صفقت كفيها ببعضها في وجه مرزوقة

- نعنبو بليسس البنت تعقدت من العرس واللّي سواه فيها سعود وولده.

وأردفت بحرقتي التي تشتعل بصدرها: تبين ادخلها على رجال ما يعرفها ولا تعرفه بكره يعايرها، ما سلمت من ولد عمها اللّي حبْها فتسْلم من الغريب.

أخذت عباءتها، وصلبت ظهرها، ثم تقوّت بالله على الوقوف، وهي تقاوم ألفَ ألم ينهش صدرها وجسمها.

-انا بروح لْجارتنا أم زويد تشورعليّ، افطني لوطفاء لا طلعت من الحجرة.

أشارت أمي "أم زويد" على جدتي أن تشتري لي بيتي هذا، وأن تنقل ملكِيَّتَهُ باسمي، لم تكتفِ جدتي بهذا؛ بل أوصت عمومتي أن يهبوني بعد موتها من ملكها ثلاثة دكاكين مؤَجّرة في "سوق السدرة" وجميع مجوهراتها، كانت تخشى عليّ الفقر، والضياع من بعدها، فلم أرثْ من أبي سوى عدة ريالات تبقَّت من معاش الأسبوع الذي تُوُفِّيَ فيه، لم يكن لأبي عصبة تعصم الميراث من أن يتفرّق على العائلة، تقاسم معي الإرثَ أعمامي الثلاثة وجدتي، لم يكن الإرث يستحقّ القسمة على خمسة؛ لكنَّ أعمامي علَّلُوا انتقامهم مني ومن أبي بأحقر ما نملك، كانت أفواههم تردِّد ما لا تدركه عقولهم: الحقّ حقٌّ والشرعُ شرعٌ، منحتني جدتي فوق ريالات أبي إرثها منه، وجنيهات ذهب مسبوكة.

كانت جدتي في آخر شهور حياتها تعاني من تكتلات، أورام نَمَتَ، وتكاثَرَتْ حول نهديها وتحت إبطيها، ولم تشكُ من وجع أو تبكِ من ألم، لولا تغسيلي لها بعد موتها وتجهيزها لمقابة ربها في سفرها الأَبَدِيِّ الأخير بمشاركة مرزوقة، وأمي "أم زويد"

ما كنا اكتشفنا أمر هذا المرض الذي جعلها تلقى حتفها، تآكل نهداها كتفاحتين منسيَّتَيْن على رف الخليقة، كان جلدها مبقّعا بقعًا حمراء، وسوداء، حلمتاها غائرتان للداخل، وحولهما صَدَفٌ، ونتوءٌ، وانتفاخٌ، جلدها قاسٍ، ومثقَّب، وأوردتُها ظاهرة، ويخرج منها سائلٌ غريبٌ!

تماسكت أمام مرضها سنة كاملة، منذُ نهيت مرزوقة أن تغسل ثيابها؛ خوفاً من أن تلاحظ هذا السائل على ملابسها، ومنذُ أن جهزت لي فجأة غرفة أخرى أنام بها وأخرجتني من روشنها.

أما المرض الذي راقص قدري رقصة الفقد، وأخذ بقدر أبي نحو المقابر، وألبس فتوتي وشغفي للحياة ثيابَ الزهد، التزمني وسعى للعيش فوق أعبائي، وكرَّسَ أوجاعه بصدق وانسجام مع ذاتي، نحر وِدَاجَيْ مستقلبي في حفلة تنصيب خيبتي، وشَوّهَ جمالي وسرق عيني، لأكون شاهدةً كلّ عمري على عبوديّة المرض، لتحكي ندوب جلدي عن موتٍ مَرَّ من هنا.

تسلَّل الجدري لجسد والدي تدريجيًّا، في أول نهار ذلك اليوم المشؤوم توعَّكَ أبي بهدوء الرجل المكابر على المرض، وفي آخر النهار أصابهُ ارتفاعٌ طفيفٌ بحرارة الجسم؛ لكنه كان قادراً على أن يضحك مع جدتي، ويمازح مرزوقة، ويدلّلَني، ويلاطفني،

وعندما جَنَّ عليه الليل، اشتكى من ألم في رأسه وفي ظهره ثم تَقَيَّأ! رجَّحَتْ جدتي التعب بموازين الجهد الجسديّ، والتعب النفسيّ والوحدة، كانت تقول له دائمًا: إن سبب وجود هاتين الهالتين السوداوين القابعتين حول عينيه من أسفل حاجبيه إلى النصف العلوي من وجنتيه الغائرتين، كحارسين عتيدين يمنعان وصول النوم

إلى جفنيه، سببها الوحدة التي أغرق نفسه بها بعد وفاة أمي، امتنع أبي عن النساء، فربما تَرَهّبْنَ قلبه وجسده، ما حَنَّ لزوجة، ولم تَطَأ فراشَهُ امرأةٌ، ولو على سبيل الحاجة البشرية كسُنَّة كونيَّة، اكتفى ببقيَّة جوعِه على أن يقتات فتاتَ ذكرى اثنى عشر شهرًا عرفها بها وأحبَّها منها، وعاشها معها.

بعد يومين من توعُّك والدي البسيط اشتدّت عليه الحمّى، وبين غمضة عينٍ وانتباهَتِهَا تبقَّع جلده ببثور كبيرة لها رؤوس حمراء، ومفلطحة غطّت وجهه وذراعيه، ارتعبت جدتي ممّا حدث بأبي، وركضت إلى بيت جارتها أم زويد تخبرها أن أبي أصابه مرض الجدري، استقبلتها أم زويد، ووجهها لا يقرأ من شِدَّة الحزن، خطفت الفجيعة انتباه جدتي، ولم تفسّر حزنَ أم زويد، ووجعها هي الأخرى.

ذات المرض أصاب أبا زويد في وقت يتزامن مع إصابة أبي بالمرض، كانت جدتي لا تفارق والدي. ترعاه وتداويه، وتحاول أن تطعمه وتسقيه، ضَعُفَ والدي ضعفًا شديدًا لم يترك الجدري موقعًا في بدنه إلَّا وحفر فيه ودثر، امتلأ فم أبي بالبثور حتى أن المطوع المداوي تعجَّب من حالته، كاد المرض أن يصل إلى جوفه - وأظنه وصل- ظهر المرض في أبعد، وأضيق نقاط جسده وأقربها وأوسعها.

أعتقد أن أبي استسلم للمرض ولم يقاوم، كمقاتل أنهك الأعداء في ميادين الحياة، وقتلته طعنه واحدة، ضعفت إرادته للعيش حتى تمكنت أنياب ومخالب المرض من نهش جسده.

كان يذود بنفسه عني وعن جدتي، ويمنعنا من أن نقترب منه؛ خوفًا علينا من عدوى تصيبنا، كانت أمي لطيفة تقول له كي تمنعه: الأم لا تمرض بمرض أبنائها، الأم لا تسقط، ولو سقطت الأرض، الأم دائمًا أقوى لترعى الجميع.

بدأت تنتشر أخبارٌ أنَّ المرض تفشَّى في نجد، ولم يقتصر على أفراد؛ بل تفاقم الوباء حتى أنه أصاب بيوتًا بكاملها، هلكت أممٌ لا يحصيها إلّا الله، جثى شبح المرض على بلدات الوشم، وسدير،

وجميع بلدان نجد، فاقت أعداد الموتى المئات، ووصلت إلى الآلاف حتى أنه أباد مدنًا بكاملها، كانوا يضعون على النعش الواحد خمس جنائز حتى تكسَّرت النعوش، فخلعوا أبواب المنازل، واستعانوا بالبسط في نقل الموتى إلى المقابر! اشتغل الناس بالإحسان في حفر القبور، حتى أن المحسن منهم مَنْ يقضي طوال يومه في حفر القبور! ولا يقف عن الحفر سوى لأداء الصلاة، أو لأكل عدة لقيمات تعينه على إحسانه للموتى، انشغل الأحياء بالأموات وصار الناس يقيمون الصلوات في المقابر، فلا فرضَ يقام إلَّا ويُصليّ على ثماني جثث على الأقل من نساء وأطفال ورجال، هُجِرَت المساجد، وخلت بيوت من الناس، وأُقفِلَت الأسواق وأُهمِلَت المواشي في البادية، فلا تجد لها راعيًا، ولا ساقيًا!

مرّ علينا أسبوعان صعبان جِدًّا، قطع أعمامي أرجلهم من الدار، تخلَّوْا عن أخيهم المريض، وأمهم العجوز، وابنة أخيهم الوحيدة، لم يبقَ لنا في مصابنا سوى أم زويد التي كانت تعاني ما نعانيه، كنت وجدتي نسند والدي من جنبيه لنساعده على أن يخطو خطوتين خفيفتين، وما كان يستطيع أن يخطوهما، بسبب البثور التي ترتَصّ بباطن قدمه كحبّات عنب انفطرت تحت دعسة رجله، كانت جدتي تبكي وهي تقول: (ليتني أقوى أشيلك يابوي، ليتي آخذ من عافيتي وأعطيك)، كنت أنا الأخرى أردّد لأبي نفس الكلام بنفس الشعور، وبذات الكم من الدموع.

كان يخطو خطوته على الفراغ بعيدًا عن الأرض، ويشعر أنه يمشي فوق شوك من نار، يتأوّه ويتوجّع، ويبكي حتى نصل سطح المنزل بمشقة، كانت جدتي تعرّي أبي تمامًا في ظلام الليل، ثم تغطي عورته بشرشف خفيف؛ حتى تعرض جسمه كاملًا للهواء النقي كنوع من العلاج الذي تمارسه عليه في النهار والليل، قبل الفجر تجهز أمي لطيفة صبخة من السدر، وزيت الزيتون البِكْر، تصبِخها فوق جلدِ والدي بالكامل إلى أن يدخل وقت صلاة الفجر، ثم يغتسل ويستحم، شيئًا، فشيئًا تحوَّلت البثور الحمراء إلى قبابٍ تخزن بداخلها قيحًا وصديدًا. لا تأخذ من الوقت الكثير حتى تكبر، وتتضخَّم، ثم تدفق سائلًا أصفرَ لزجًا يتصبّبُ على الجلد والأرض.

عندما استفحل المرض بالناس، وطاف الوباء البلاد استدعى ابن سعود بإلحاح شديد إرساليّة طبية قد أتت من أقصى شمال الكرة الأرضية من الولايات المتحدة الأمريكية إلى البحرين، ليعطوا العلاج للمصابين، وليقدموا الأمصال للمتعافين، كان على رأس هذه الإرسالية الطبيب الأمريكي بول هاريسون، كان الناس وقتها منشغلين بمصابهم الجلل، انقسم الناس إلى شغلتين: إمّا أنْ يطبّبوا مرضاهم، وإمّا أن ينعوا موتاهم؛ لكنَّ وصول الطبيب الأمريكي غيّر شيئًا في المشهد العام، لم يكن سهلًا على الأهالي أن يتجوّل بينهم رجالٌ رؤوسهم شقراء، وعيونهم زرقاء وخضراء، بشرتهم البيضاء الحساسة استوت من لهيب الشمس حتى أصبحت حمراء تشوبها حرقة سمار الشمس.

كان الأطفال يسعون وراء الاطباء من بيتٍ إلى بيت، يحاولون لمسهم والهرب بعيدًا متضاحكين بفرح أن باستطاعتهم مداعبة الغرباء، رغم الأسى الذي يهدِّد حياتهم، أما الجارات، فكنّ يتسابقن على البيوتات التي تدخلها الإرسالية لينظرن عن قُرُبٍ لملامح رجال مختلفين تمامًا عن رجالهنّ!

بالفهم البسيط للحياة، وبحكم صحرائهم المغلقة عليهم، والطابع العربي الأوحد لم يتخيلوا أن لله في خلقه فتونًا.

كان الطبيب بول هاريسون يزورنا، وبيده حقيبة حديدية مستطيلة عندما يفتحها يرفع ذرفتيها للأعلى، فتخرج منها عدة أدراج متراصّة بداخلها، تحوي أدواتٍ جراحيةً وطبيةً وأمصالًا، ولفافاتِ أقمشة بيضاءَ قطنية، وزجاجاتٍ فارغة ذات أغطية فلّينية، لا أستطيع أن أنسى منظر الأدوات الجراحيّة المرعبة كسكينٍ كبيرة، ومعقوفة للداخل مخيفة جدًّا. لو نظرت إليها لشعرت أنها تقطعك إربًا، وهي فعلًا تُستخدمُ لبتر الأطراف المتآكلة المعطوبة جرّاء مرض "الغرغرينا"، وملقطٍ طويلٍ برأسين دائريَيْن مجوَّفيْن. يستخدم لعمليات البواسير، كان الطبيب يدخل هذا الملقط لمكان الباسور، ويسحبه حتى يتقطع، ويستأصل من مكانه، كان الناس يتغامزون، ويهتامزون على مريض البواسير ويقولون: إنه رجلٌ كتب الله عليه الولادة.

رجف قلبي من هول منظر الكُلّاب، هذه الأداة التي لا تخلو حقيبة طبيب منها، لم تكن غريبة بالنسبة لي عندما رأيتها في حقيبة الطبيب الأمريكي، فمُطَوّع حيِّنا يستخدمها أيضًا في علاج آلام الأسنان، والتخلص من الضّرس الذي أرَّقَ صَفْوَ صاحبه، كثيرًا ما يخطئ المطوع، والمريض في تشخيص مصدر الألم؛ لأن ألم الأسنان يعُمَّ الفَكَّ، ولا يخصُّ الضرس، أذكر أن مريضًا خلع ثلاثة أضراس في أسبوع واحد؛ لأنه أخطأ تحديد المصدر مرتين! كان المطوع يربط المريض بشماغِه، أو يستعين بمَنْ يمسِكُ يَدَيْه ورجليه ويثبته على الأرض، وآخر يفتح فم المريض الذي يغلقه الخوف، والرهبة على أصابع المطوع! كثيرًا ما عانى المطوع من عضّ المرضى له، يمسك الكُلّاب الحديدي ذا الأسنان الحادّة الضِّرْس المراد خلعه، ثم يحرك المطوع يده يمينًا، ويسارًا محاولًا زعزعة ثبات الضرس، ونزعه من مكانه حتى أنه إذا خلعه، وجدت على الضرس أنسجة لحمية عالقة على الجذور الداخلية، على صيحات المريض وفوران الدماء من فمه ينتصر المطوع على الضرس، ويلقي به في صحن حديدي حتى تسمع رنينه.

كشف الطبيب بول هاريسون على والدي، وجمع ما جمع من صديد وقيح الجدري بزجاجات إسطوانية نحيفة؛ ليستخدمها كمضادات يحقنها من لم تصبه لعنة الجدري لينجو منها للأبد، بدأ الطبيب بالتلقيح ضد المرض من بيتنا؛ لأن والدي من أوائل المصابين، فاعتبرت الارسالية والدي موردًا ينهلون منه الأمصال!

قرَّبتني جدتي للطبيب الذي كان يتكلم العربية المحْكِيَّة باللّكْنة الأجنبية، وطلبت منه أن أكون أول مَنْ يأخذ اللقاح ضد المرض، ولم تكن تعرف أنها تسلمني للمرض الذي كان يدب بجسدي دون علمنا، كنت قد عانيت قبل يومين من آلام كتلك التي ظهرت على والدي؛ لكن ظننت أنها آلامي الشهرية المعتادة، صداع بسيط، وألم في أسفل الظهر، وضع الطبيب يده على جبيني يتحسَّس درجة حرارة رأسي، ثم وضع يده تحت حنكي عند أول رقبتي، لم يتوجّس خيفة، سألني إن كان ثمة ألمٌ ما، جاوبته بالنفي التام، أخذ شفرة حادّة، ومسحها بمنشفة مبللة بماءٍ حارّ، ثم وضعها بالمصل الذي كان قبل قليل صديدًا وقيحًا يخرج من جلد أبي، أمسك الطبيب بساعدي، ووضع الشفرة على جلدي خادشًا ذراعي جروحًا عديدة سطحيّة متجاورة حتى نزف دمي، ضمد الجرح بلفافة قطنية بيضاء، ثم لَمْلَمَ أدواته، وحمل حقيبته، وخرج للناس يعطيهم لقاحاتهم.

لم تَحِدّ خطوة تلقيح الناس بالأمصال من تفشّي المرض فبعد عشرين يومًا انتهى مخزون الإرسالية من الأدوية الطبية، فتوقّفوا عن العمل، وعزموا على الرّحيل، وجب على الناس اتخاذ تدابيرَ أخرى في وجه هذا الموت الغاشم، كان لا بُدّ من عزل المرضى في حصون خارج البلدات المصابة، لفَّ عمال الصِّحِّية المدينة، وبالأخص البيوت المصابة، يسِمُون الأبواب بـ"مارية" بيضاء تظهر للعيان حتى يتمكن عمال آخرون من نقل المصابين إلى بساتين نخيل وادي البطحاء، حيث يوجد "قصر خريمس"، كنت وأبي مع الأوائل الذين أخذوهم إلى المضيف.

قبل العام الذي ضرب به الجدري الأسود البلاد والعباد كان "مضيف خريمس" الذي أسَّسه الملك عبدالعزيز بن سعود قصرًا كبيرًا في مساحته، أسواره عالية جِدًّا غير أنه من دور واحد فقط، وله ثلاثُ بوابات تفضي إلى ثلاثة مضايف واسعة جِدًّا، وعدة غرف متوسطة، ومن خلف القصر مطبخٌ كبيرٌ يذبح فيه يوميًّا خمسون خروفًا، وخمسة جمال.

أول المضايف كان "مضيف ابن مسلم"، وكان هذا المضيف ملكيًّا، وخاصًّا لم أشاهد منه سوى البوابة الخشبية الكبيرة المنقوشة بنقوش، ورسومات ملوَّنة ومزيَّنة بدقّ المسامير الذهبية فوق الجلود البنية، يقف على جنبي البوابة عاملان يلبسان اللباس الموحد نفسه لعمال المضايف، لا يفتحان البوابة إلَّا بأمرٍ من حاجبِ الملك، هذا المضيف للأكبارية من ضيوف ابن سعود الذين يفدون عليه كشيوخ القبائل، وأمراء المناطق والأجانب.

أما المضافة الثانية، فكانت لطلَّاب العلم، والمعلمين الذين يفِدُون إلى "مضيف خريمس" قبل الظهر ليتناولوا طعام الغداء ويرتاحوا قليلًا، ثم يعودوا إلى بيوتهم المتناثرة داخل وخارج الرياض في القرى والبوادي، كانوا يجدون الترحيب من الملك الذي كان يحثهم على طلب العلم والتفرغ له، وأن يقيموا في ضيافته حتى نهاية تعليمهم.

والمضافة الثالثة كانت لعامة الناس، فمن حضر إلى الرياض من غير أهله يقصد المضيف، ويقول للعمال: أنا ضيف على عبدالعزيز، فيسَجّل اسمه، ثم يقدمون له الطعام وينظرون في حاجته

الخاصة إن كان يريد أن يقابل الملك، أو يريد سداد دَيْنٍ، أو مساعدة له، ولبلدته التي قدم منها، يقدم العمال يوميًّا كشوفاتهم بأسماء الضيوف وحاجاتهم للملك، وبعد ثلاثة أيام من استضافتهم يصدر ابن سعود أوامره للمقابلات ولتقديم المعونات، والمساعدات الخاصة بكل طلب.

كان القصر مفتوحًا لفقراء الرياض كباقي بيوت كرام المدينة، حيث إنهم يقصدونه بقدورهم الصغيرة التي صقلها الفقر ليأخذوا وجباتهم مرةً قبل الظهرة ومرةً بعد المغرب ويذهبوا بها لبيوتهم ويطعموا عيالهم.

في تلك السنة، سنة الجدري الأسود توافد المرضى من خارج الرياض للمضيف بحاجة للعلاج، تكاثر الناس بالمضيف شيئًا، فشيئًا حتى خاف الرجل السليم أن يقصد المضيف لحاجته؛ خوفًا من العدوى بالمرض، حتى اتّخذت الصِّحّيّة من المضيف مكانًا لعزل مرضى الرياض والقادمين إليها.

اتّخذَ عمال الصّحِّيَّة من المضيف الملكي عزلًا للرجال، ومن مضيف طلّاب العلم ومضيف عامة الناس عزلًا للنساء والأطفال، تفرَّقت دروبي عن دروب أبي في ذلك العام الأسود، والنهار الأوحد في عذاباته وآلامه، كان حِمْلًا ثقيلًا على كتفين ذاوِيَتَيْن هزيلتَيْن في أول انتصابهما أمام تكاليف الحياة، كأنما ضُرِبَتَا ضربةً مبرحة ركَّعتني أمام الاستسلام، وسلبتني مقاومتي واعتراضي، رجحت كِفّة حسراتي، وأنَّاتي على حساب كِفّة أفراحي ومَسَرَّاتي، وما عاد في الحياة مثقالُ جبلٍ من مواساة يوازي بين كِفّتَيْ سعادتي، وأحزاني،

ساءت حالة والدي جِدًّا، وحدث معه بخلاف ما يحدث في دورة تطوُّر المرض، وتحوُّله من الاعتلال للشِّفاء، توقّفتِ البثور الحمراء عن إفراز الصديد، وصار جسمه ينزف الدم من داخل البثور! ومن بينها تشقّق الجلد، وتقطَّع وتساقط اللحم من وجهه، ويديه، ورجليه، وما عاد ذلك الرجل القويّ سوى كومة لحم تجمع من تحته لتدفن معه.

دبّ المرض دبيب النمل على جسمي، وأخذتِ البثورُ تتسابق على شقّ مسامّ جلدي والظهور بأكبر رؤوس ممكنة تثقب بشرتي الملساء كشرار تطايَرَ على قطعة حرير بيضاء منعمة، حتى أحدث بها ثقوبًا سوداءَ صغيرةً وكبيرةً. متقاربةً ومتباعدةً، صارت القطعة الحريرية الجميلة باهظة الحسن إلى "شيلة منيخل" مخرّمة عن يمينها، وعن شمالها، ومن فوقها وممزّقة من تحتها، لا تلفت انتباه أحد، ولا يرغب بها أحد.

كنت وحيدة في العزل. لا أعرف أحدًا، ولا أحد يعرفني، تسرّبت إليّ الوحدة منذُ ذلك اليوم حتى عانقت أدقّ شراييني، وتشبثت بها، عانيت، وتألمت، وتداويت، وتشافيت بمفردي، كنت أتناسى آلامي عندما أفكر بمصير الرسائل التي كتبتها بحروف حبِّي وبَصَمَتْ عليها حنّاءُ كَفّيَ الرّطب، كما كان أصيل يحب أن يضمّ كفّي إلى وجهه، ويشمّ رائحة شجر الجنة من بين يَدَيّ، لكنَّ مرضَ أبي، ومرضي لم يسعني أن أرسلها مع مرزوقة لحبيبي وابن عمّي، بقيت رسالتي بداخل رسالته مطويّة بداخل أحد أثوابي، عانق الحبر الورق، وسُجِنَ داخل الصناديق التي أضرمت بها نار كرهي وحقدي وغضبي عليه.

القوة التي حملتني على هذا كلّه تمُدُّني بها جدتي من خلف جدران المعزل، دقَّتْ أمي لطيفة وتدًا خارج المضاف تحت نافذة تسلقت إليها، راحت تنادي باسمي، وتسأل المريضات والممرضات عني حتى دلُّوني إليها، وضعت فراشي تحت تلك النافذة حتى لا يفصل بيننا جدار ولا يفرقنا مرض.

توسلت جدتي إلى عمال الصِّحّيَّة كثيرًا؛ لتتطوَّع كممرضة محسنة تخدم المريضات لكنهم رفضوها لكِبَرِ سنّها، ومنعوها من الاقتراب مخافة أن تلتحق إلى الداخل كمريضة وليس كطبيبة!

عناد جدتي وإصرارها أن تكون قريبةً مني ساقها إلى نافذة صغيرة على حائط المضيف يدخل عبرها ضوء الناس وهواؤهم، ويطل عليَّ منها وجه أمي لطيفة. شمسي الدافئة التي تشرق عليَّ بابتسامتها في عتيم الليل، ووضح النهار، وصوتها الذي يحتضن خوفي ورهبتي، وهي تقرأ عليَّ القرآن، وترقيني، وتدعو الله لي بالشفاء العاجل، حتى إذا فرغت أنشدت عليَّ الشعر وقصَّت لي القصص، وإذا تعبت من الوقوف جلست ومدَّت يدها إليَّ تداعب خصلات شعري وتؤازرني، وتمسك بيدي حتى أنام، كان الليل طويلًا علينا، ولن تظهر له شمسٌ سوى بالخروج من المعزل متشافين من المرض.

تعودني مرزوقة من خلال نافذة جدتي، وتحمل لي الطعام واللِّباس، وتنوب عن جدَّتي بعض الوقت حتى تذهب أمي لطيفة لمضيف الرجال تتفقَّد أمر أبي، كنت أسِرُّها القول: أسَأَلَ سائلٌ بعذاب واقع! كانت بالكاد تهزُّ رأسها بالنفي من ثِقَلِ الخيبة، لا أعرف أيَّة مأساة كانت تظهر على وجهي؛ حتى تجعل مرزوقة عينها في الأرض، ولا تنظر إلَيّ حتى تعود أمي لطيفة إليّ وتلملم نفسها وتذهب.

لأيام سعت جدتي بين نافذتي، ومضافة الرجال ترعى وحدتي، وتستقي سقيا ظمآن خبرًا عن أبي، حتى خرج عليها والدي من المضيف مُمدّدًا فوق نعش. مغطًّى جسمه بمشلح ورأسه بشماغ لم يغسَّلْ، ولم يكفّن لضيق الوقت، وكثرة الموتى، تمسَّكت جدتي بخشبات النعش وهي تطلب من حامليه الوقوف لتنظر إلى الميّت، كان الرجال يصدُّونها ويبعدونها يقولون لها: للميّت حُرمة، وتصرخ في وجوههم وتقول لهم: أنا أمه.

لم تكن تعلم لمن الجثة، لكنّ قلبها نَعَى ابنها، وأشار عليه قبل أن تسمع بأذنها وترى بعينها، لحقت بهم، وصلَّت على ابنها خلفهم. بكت عليه ودعتِ الله له ولها ولي، ثم عادت تحت نافذتي قوية متماسكة، أخفت عنّي خبر موت والدي، ورفضت أن يقام عزاء بغيابي.

كان الأسوأ علَيَّ من العزلة والمرض. الحرمان، لا أحدَ يعرف معنى أن تكون مسلوب العافية، ومُصادَر الحرية، ومَقْصيًّا في مكان تضيق به النفس، وتخنقها الوحدة في وقت يتسلَّى بك الموت، ويقطف أنفاس النفْس. نفسًا، نفسًا، متحيِّرًا بين فكرتين، أيتركك تواجه قدرك الحرش المرقَّش، وتستعدّ للأذى اللَّفَظِي، والحِسِّي، والناس الذين سيعايرونك بشكلك، وتجحظ العين من رؤيتك، وتخشى

اليد ملمسك، يكفر الناس أنعم الله عليهم إن عافاهم ممّا أصابنا، ويتنكّرون لنا كأنهم لم يعيشوا معنا مصابنا، ولم يتشوَّه لهم حبيبٌ، أو يفقدوا غاليًا.

أو أن ينهي الموت حيرته بأن يجهز عليك، ويجهضك عنوة من رَحِمَ الحياة كنطفة شيطانية تلقّحت عن طريق الخطأ! أو أن تلفظك الحياة إلى الدَّرْك الأسفلِ من الموت بقوة اشمئزازها من هيئتك التي ابتلتك بها بعدما تجرُّك فوق أشواك المرض لتتمزق تحت آخر رمق.

في زمانٍ فضفاض لا تعرف له حدودًا أو حوافّ، ترى سراب الضوء يشقُّ ثوب العتيم ثم يخيط انعكاسه على صبرك وصلابتك، مع متحوّلين كانوا في أحد أطوار حياتهم بشرًا. حتى تحوَّلوا لدمامل سوداءَ تتنفس الهواء، وتنزف القيح وتئنّ، تصلي صلاة الموت آناء الليل وأطراف النهار.

لا أحد يفهم ألمك، أو يسمع وجعك، أو يرى جرحك سوى مَنْ شاطَرَكَ القيد، وناصفك الأسر، واحترق بجحيم الخسائر.

كانت ولا تزال أصعب مراحل مرضي هي تكاثر أكياس الدمامل على وجهي وجسمي، كنت أجسها بأناملي وأجد أن الكيس الواحد يحوي عدَّة دمامل صغيرة، ومتراصَّة ومؤلمة تخرج من بين الأوردة الدقيقة، والمسامّ كالأشواك الصغيرة التي تظهر فوق جلد التين الشوكي، موجعة مزعجة. كان لبس الثياب كارثيًّا، وخلعها مدمّرًا، كان ماء الاغتسال كقطرات ديمة تتساقط على أرض محترقة بالكامل. تضمُّ جمرها تحت الرماد، لا الماء يطفئ الجمر، ولا يغسل رائحة الاحتراق؛ بل تكاد أن تُسْمِعُكَ النارُ بداخلي لَسْعًا لقطرات المياة، وترى تبخُّرها.

فقدي الأول كان نبضًا خفيفًا، ومؤلمًا بداخل عيني، أيقَظَ نومي المتقطع ألمٌ مختلفٌ في مكان مختلف، غير ذلك الألم الذي أرَّق نومي طوال الليل، وراحتي كلّ النهار، ثم شعرت أن قوة كبيرة تضغط من داخل عيني نحو الخارج، وكأنها تريد اقتلاعها من مَحْجَرِهَا. ألمٌ ينخر بها، ويكبُرُ تدريجيًّا داخل رأسي، نسيت كلَّ الأوجاع في جسمي كأقوام يتعلَّقون برقبة نبيهم يوم القيامة، وأنا ألوذ بالأوجاع عنّي، وأصرخ من هول ما بي: عيني. عيني، كان فقدان عيني سوءتي التي اجترَّها عليّ الزمن، ووصمة عارٍ فاضحة في صفحة أنوثتي وجمالي، ونقيصتي التي لا ترفعها فضيلة، ولا تمحوها شيمة.

بعد أيام من نموّ الألم المتواصل، وفقد الرؤية بعيني اليسرى المتورّمة، كنت آمل أن الرؤية ستعود يومًا ما، لا بُدَّ أنها ستعود لي بعد أنِ انقضى الوجع، واختفى الورمُ، وكما كانت جدتي تمنّيني، بدأ القيح يصبُّ من كل حدبٍ وصوب، تلاصق شعري في فروة رأسي وغطَّاه الصديد، تبلّلت ثيابي حتى جفّت كجلمود قيح حطَّهُ الموتُ من عَلِ.

بدأ الناس يتعافَوْنَ، وبدأت الغُمَّة تتكشف عن المدينة، وأخذت رائحة الموت تنحسر في المقابر، دماملي السوداء القاسية تحجّرت، وكأنها بقعُ زيتٍ متمدّدة على جسمي، مشبّعة برماد الفحم والحطب، تعلوها قشرة جافة، لو تحسّستها لوجدتها كطلع رؤوس الشياطين، كنت أتوق لفكِّ لفافة عيني؛ حتى أنظر للحياة بروحها التي تعافت حديثًا من المرض، سمحوا أخيرًا لجدَّتي بأن تدخل إليّ. عندما عاد المرضى الناجون من الموت إلى بيوتهم، لم يتبقَّ في المضيف سواي، وعدة مريضات طاعناتٍ في السّنّ لا يُرْجَى لهنّ عمرٌ مديدٌ.

قبَّلتني جدتي على رأسي، وقبّلت عيني اليمنى، ثم اليسرى من فوق الشاش، ضمَّتني إليها، وطارت من فمها فراشاتُ الحمد والثناء، وأغرقتني بغيمة تحمل الفرح من عينيها زخّاتٍ زخّات، أمسكت بطرف اللفافة، وفكَّتها بمهل؛ حتى كشفت عن عيني المغمضة، وتساقطت من ورائها دمعات، مسحت أمي لطيفة دمعاتي بشوق لرؤية تمام عافيتي وقالت لي: يالله! أمي شوفيني.

فتحت عيني بصعوبة ذلك النهار، وكأنّي اكتحلت بالصديد والقيح، كانت الرؤية نصف معدومة. عينٌ تبصر، وعينٌ عمياء لو أنَّ عيني اليمنى لا ترى وضحَ النهار، وكثرة الوجوه لقلت لنفسي إنها ليلةٌ دهماء أخفت بجلبابِ سوادِها كلَّ معنى.

لكنّ كلَّ شيءٍ كان واضحًا في عَبَراتِ جدَّتي التي بدأت تزمّ أطراف فمها مع وسط خدَّيْها، بدا واضحًا على يَدَيْ مرزوقة التي وضعتها فوق عينيها، وأدارت ظهرها عني، بدا واضحًا أكثر عندما سقطت بحِجْري دمّلةٌ كبيرةٌ سوداءُ، وظننتُ أنها سواد عيني.

شرعنا بالعزاء وقتها، سقطت جدتي على حِجْري، وانهارت بعد تماسكٍ طويل، بكتْني وبكت والدي، كانت صدمتي أكبر مِنْ أن أستوعِبَ ما جرى، وما يجري، وإلى أين سينتهي.

فقدي الثاني كان والدي الذي ترك فراغًا، قُسِمَ داخلي وما بين أضلعي باتساع واد يشقّ أرض نجد بطولها وعرضها، قد حبستِ السماءُ عنهُ ماءها، وجفَّت في بطنه الموردات، كان أبي حائطي الذي لا أخشى بعده تقلبات الزمان، أسند ظهري عليه، وأتَّكِئُ بناصيتي فوقه حين يدلِّلني بقوله لي: (أنا والحويط لتس) أين أنا من حائطي؟ وأين حائطي مني؟ غمره سيلُ المَرَض حتى تهدَّم فوق رأسي، وظهري.

كان سدرة أمان أتفيَّأ ظلّها المنقطع بأوَّل عمري البائس، قدر الفقد هذا حفر لي شقًّا ضيّقًا لا يسعُ أوجاعي وآلامي، ألقاني فيه بجروح عضال تمزِّق روحي، ولا تقتلني، بلا لحد يؤويني، أو ضريح يُشهِّد الزمن أن هنا مَنْ دُفِنَ بالحيا، تعرَّيْتُ تمامًا أمام ريح الابتلاءات نُزعت مني قوَّتي، وما يواري ضعفي وانكساري، لا يسدّ مكانَ الوالد أحد ولا يقوم مقامه أحد، كلُّ الرجال هم دون هذا الرجل الأوَّل في حياة ابنته.

بعد ما انقضت أيام العزاء همَّت جدتي إلى روشن والدي لتفرغَ صندوق ثيابه، وتتصدَّق بما فيه، وجدت بين الثياب البيضاء ثوبًا كرتة أحمرَ داكنًا بمقاسي تقريبًا، عندما وقعت عين جدتي على الثوب عانقته، وبكت بحرقة على محبَّيْن اجتمعا عند ربهما بعد فراقٍ طويلٍ ومريرٍ، سألتها: لمَنْ هذا الثوب؟ أخبرتني أنه لأمي، وقالت بنواحها الباكي: الدنيا تفرّق بعد اجتماع؛ لكنَّ الجنة تجمع بعد فراق.

وقعت عليها، وعانقتها، وتعلّقت بطرف الثَّوْب، وبكيت معها، وداخلي يرقص فرحًا رغم كلّ ما بي؛ لأن شيئًا يعود لأمي عثر عليّ، وعثرت عليه، أخذت الثّوبَ، ولبسته واحتضنت ضياعي، وشتاتي،

وأخذت مع ثوبها ثوبًا لأبي لأفترش واحدًا عن يميني وآخرَعن شمالي، وأنام بينهما، عَلَّ ثوبيهما يحفظان بداخلي حياة العائلة المفقودة منذُ يومي الأوَّل.

اكتفى أعمامي بوجودهم معنا في ساعات العزاء لثلاثة أيّام، ثم صار غيابهم يطول شيئًا، فشيئًا، حتى اختفوا من حياتنا بظهور متقطّع على مدًى بعيدٍ؛ حتى لزموني بعد وفاة جدتي، ثم تخلَّصوا منّي للأبد.

تب من قال إن كلًّا له من اسمه نصيب لم تكسب الأسماء في حياتي يومًا رهانًا مع معانيها، لا أصيلَ كان بمعدنه أصيلًا، ولا سعودًا حمل لنا السُّعودَ! ولا سعدًا جلب لنا السعد، ولا حبيبَ كان لنا حبيبًا، حتى والدي خبيبًا لم يكن يومًا خِبًّا، أو خبيبًا.

لا شيءَ يشبه ذاته، ترفع الأسماء ثيابها، وتتخطَّى بأطراف أصابعها المعاني. كأنها تخشى أنْ تتبلَّلَ بها، تحيد كلَّ الحَيْدِ عن القصد، وتضلّ السّبيلَ نحو المقصود، حتى أنا ضمّني قدر الاختلاف هذا إليهم، كان من المفترض أني وطفاء اسمًا على مسمًّى؛ لكن أكثرَ ما يشبهني سمعته من أطفال الحَيّ، وهم يركضون خلفي في السكك يتضاحكون ويصرخون وينعتونني بالسعلوّة!

لم أكنْ قادرةً على إسكاتهم، ولا إبعادهم، كنت أتحسّس وجهي بيدي، وأبكي على ما ضاع من حسني وجمالي، قَبَّحَ المرضُ وجهي، وغيَّر هُوِيَّتِي، نُفِيتُ خلفَ تشوُّهِي بروحٍ مُمَزّقة، وحظوظٍ خاسرة.

أما عن فقديَ الثالث كان كما رأيتُهُ البارحة يا شوع، لم ينقصْه شيءٌ كما نقصني، وربّما فقدي زاده أكثر ممَّا أخذ مني، فبعد شهرين من التعافي، ومحاولات جدّتي ومرزوقة رقع جرحي بفرح أو مسلاة همي بأغنية أو قصيدة وقصة، سمعنا من سطوح الجارات نميمة يردن بها أن تقع على مسامعنا بهدوء يشعل بنا الغيظ، والحرقة، كانت الرياض كلها تعرف عن نكبة جدتي، وأنها لم تفقد ابنًا واحدًا في سبيل الموت؛ بل تساقط من بين يديها ثلاثة آخرين في سبيل الطمع والجشع، كانت تلك النميمة تدار بشكل رخيص وجارح من نساء يتقرَّبن للشيطان بغبائهنّ، ويجهلن أنَّ في السماء موازينَ عدلٍ تقربنا لله بخطاياهن.

آتت كلّ واحدة منهنّ قولًا تلقيه على أذن مرزوقة أشعلن فضولها؛ حتى أصخت لهن السمع. قلن بلغة الشامت إن زوجة عمِّي خطبت لابنها أصيلَ ابنة أختها، وقلن في الفتاة إنَّها حمامةٌ بيضاءُ منعَّمة البدن، ومنغَّمة الصوت، كحيلة العينين، مستديرة الوجه، عاشت كلَّ حياتها في كنفِ عائلة محبَّة بين والدة تدللها ووالد يسعدها.

أقبلت علينا مرزوقة تسابق بنات الريح تصرخ من أقصى الحنجرة تنادي جدتي.

- عمَّتي لطيفة، يا عمة لطيفة.

لم تعطِ جدَّتي ردَّة فعل تناسب ثورة مرزوقة. جاوبتها ببرود، وبدون أن تلتفت لها

- هاهاء!

احتارت مرزوقة في خبرها تنظر إليّ، وتتردّد، ثم تبلع الكلام، وتنظر إلى جدتي وتشاور لها بيدها من خلف ظهرها، كان أمرها مضحكًا ومريبًا، أما خبرها فكان مبكيًا، وأكيدًا.

- تعالي معي بقولتس كلمة راس.

- تكلمي يا مرزوقة ما عندي شيّ اغبّيه عن وطفاء.

ضحكت عليها، ونظرت لها نظرة شموخ وغرور.

قالت مرزوقة: وطفاء قومي جيب مويه من الزير! التفتت جدتي نحو مرزوقة، وألقت في عينها نظرة أضاعت بها اسمها.

كانت تحاول إخفاء خبر أصيل عني، ولم تجد طريقًا تخلو به إلى جدتي ولو بعض دقائق تفرج بها عن حِمْل لسانها، تعثَّرتْ بخوفها، ثم سقطت في شِرَاكِ تسرُّعها.

أخذت تفرك يديها ببعضها، وتنفضها ثم تعود وتمسك يدها بيدها، تنظر هنا، وتلقي نظرة هناك، تبلع ريقها، وتلعق شفتيها!

نزرتها أمي لطيفة نزرة أرعدت بدنها، وجعلتها تهطل بالأخبار السوداء فوق رؤوسنا بلا شعور.

شهقتُ لحظتها بفاجعتي، وغصصتُ بوجعي، كنت أنتظر من جدتي كلمة، أو حركة تجعلني أستند عليها، وأنهار باكية؛ لكنها خالفت كلّ توقعاتي، عادت والتفتَت إلَيّ ماكينتها التي كانت تعتكف عليها قبل مجيء مرزوقة، وقالت ببرودٍ وثقة: الله يوفقه، جعله آخر ما نفقد.

كان حيُّنا كلُّه يعرف بأمر حبّنا الذي ولد من لحظات بكاء، وضعف فتاة صغيرة ضربها ابنُ عمِّها الذي يقارب عمرها، وأخذ منها كلَّ الحجارة التي تجمعها لفريقها في لعبة "سبع حجار" ، فزع واستنصر لها أخوه الذي يكبرها، ويكبره بفارق عدّة سنوات قلائل، أجبر أخاه أن يعتذر للطفلة اليتيمة، ويعيد لها حجارتها، منذُ ذلك اليوم وفي عينَيْ صبيٍّ شهم أصيل، بدأ بيننا اهتمام ملحوظ يدفع عني شرور الصبية، وأذكره بالتفاتات ونظرات بريئة مُحِبّة تلسع قلبه، وتدغدغ حيائي.

كان أصيل في عمرٍ حائرٍ بين أعمار الرّجال وأعمار الأطفال، لا يجد ما يخصّه في مجالس الرجال، ويعابُ عليه اللعب مع الأطفال، ولم يكن يستلطف الشباب وعراكَهم الدائم ومنافساتهم القاسية، تجدينه يقف وحده في "المجبب" يسند كتفه على الجدار، يتأمّل الغادي والرائح، بعينَيْ طفلٍ لا تهدأ ينظر للأطفال، ويصمت بهدوء رجلٍ لا يضجُّ بحضور الرجال، خجول، ويهب لنجدة الصغير والكبير، ويلبِّي حاجة مَنْ دعاه بخفة روح، كان جدي يحبه، ويقرِّبه إليه، ويسميه "طير شلوى"، فتى طيب، وليِّن للحدّ الذي يسلب قلبه، وعقله بابتسامة، وقاسٍ للدرجة التي يتحول بها إلى حادٍّ، ومنغلق إذا كدّرَتْ صفوَهُ كلمةٌ أو نظرةٌ.

يرقبني على الدوام ويُصِرّ لِيَ القريض، والملبس، والقروش، يشجعني إذا كسبت، ويشدُّ على يدي إذا تراخيت أو خسرت، يحيطني باهتمام دائم ويطوِّقني بحنان خَفِيّ، سألني يومًا إن كنت أتعلم الحروف عند المطوِّعَة، قلت له: إن المطوِّعَةَ لا تقرأ، ولا تكتب! تحفظنا القرآن

فقط، وأنا أتوق لتعلّم الحروف والأرقام، عاد إلينا بعد يومين ومعه لوحًا أسودَ وطبشور، علمني كيف أكتب حروف اسمي، وحروف اسمه، كنت رغم صغري أدرس معه أبجديّةَ الشعور الأول من عينيه، فهمت جيّدًا لماذا اسمي واسمه دون الأسماء، وجدت ذلك المعنى الكبير بين حروف الأسماء، هذا المعنى الذي لم يتكرر في حياتي.

كنا إذا خرج عمي سعد بسيارته "الفورد بك أب" تقافزنا إلى حوضها؛ حتى يصل إلى آخر الحيِّ، ثم نقفز منها على الأرض، ونعود لبيوتنا، كان أصيل يحملني أحيانًا، وأحيانًا يمسك بيدي، وأصعد بمساعدته للحوض، ثمّ يركب وسط حشد من الأطفال ليبقى إلى جانبي، مع أن مَنْ كان بعمره لا يقبل على نفسه إلَّا أن يرتصّ بجانب السائق، أو يتعلق بالباب.

بعدما بلغت مبلغ النساء، وجرت عليّ الأحكام والحدود، ومنعوني من اللعب خارج البيت، خمَّروني، وأقعدوني خلف الجدران، فقد أصيل رؤيتي خارجًا مع مَنْ في الحَيِّ صار يتردَّد على البيت كثيرًا، وعدة مرات باليوم، ألمحه مرة ويلمحني مرات، تغضّ عنا مرزوقة عين الرقيب، لم يفهم معنى صَدِّيَ المفاجئِ حتى أمسكت بنا جدتي عدة مرات، ثم قالت لأصيل كلماتها الصريحة:

-تنحنح وانا أمك قبلِ تدخلِ البيت صار عندنا حريم!

بقينا لمدة عامين نتبادل الرسائل، في السنة الأولى كانت رسائل أصيل تصلني من أخته وبعدما أقرأ رسالته وأكتب له رسالتي أعطيها مرزوقة توصِّلها له، حافظت مرزوقة على سِرِّنا؛ لكن ابنة عمّي أخت أصيل تخاصمت مع أصيل يومًا ما، وباحت لجدتي بسِرِّنَا انتقامًا منه، لم تتفاجأ جدتي أثبتت فاطمة لها شكوكها فقط.

دعت جدتي أصيلَ إلينا، وأمرتني أن ألبس عباءتي، وأقف خارج "اللّيوان" حتى تسمح لي بالدخول، وعندما نادتني غطّيت وجهي بغطائيَ الأسودِ الخفيفِ الذي لا يفارق رأسي أغلب الوقت، دخلت عليهما، ولم أكن أعرف لمن تدعوني، ولم يكن هو يعرف لماذا تدعوه، صعقت عندما دخلت ورأيت أصيلَ منكَّس الرأس يجلس بجانبها.

جلست هي بيننا، وألقت علينا درسًا في أخلاقِيّاتِ الحبّ، وبأيِّ شكلٍ يجب على هذه العلاقة أن تدوم، قالت لأصيل:

- هل ترضى بوطفاء ابنة عمك زوجةً لك، لم يتردد كثيرًا في الإجابة؛ لكن ابتسامته العريضة أخذت بعض الوقت؛ حتى يلملم أطرافها ويتسنَّى له الردُّ بالموافقة،

ضربت جدتي بيدها على فخذي عدة ضربات، وسألتني ذات السؤال، هل ترضين بابن عمك أصيل زوجًا لك، وهي تسألني سؤالها صار قلبي ينبض في أذني، ويغمغم صوتها من أن أسمعه، شعرت بدوار في رأسي وخفقات قلبي تجلس فوق أنفاسي، وتثقل دخولها وخروجها، تركت لهم الليوان وخرجت منه أركض إلى روشني.

كان ردي واضحًا لهم، أرادت جدتي أن تربطنا ببعض بشكل صادق أمام الله وتبرئ ذمتها أمام أبنائها، لم تناقشني في علاقتنا،

ولـم تحاسـبني عليهـا. تجـاوزت كلّ ذلـك ووضعـت لنـا نقطـة بدايـة جديدة، لـم أنَمْ تلك الليلة وددت أن أصـرخ مـن فوق السـطح بفرحي، وأخبـر بنـات الرياض كلهنَّ بأن حبيبـي صـار خطيبـي، وقريبًا سيكون زوجي وبعد عدة أشهر سيصبح أبَ ابنِنَـا الأول.

كان مـن شـروط جدتـي لتتـم هـذه الخطبـة أن نبقـى بعيديـن عـن بعضنـا لمدة عامين، ولا نتبادل الرسـائل، أو اللقاءات السرية في المطبخ، صمدنا ثلاثة أشهر، ثم ضعفنا عند أول صدفة تختبر حقيقة صمودنـا، العشـاق الحقيقيـون يوفـون بكلّ وعودهم. عدا وعـد الغياب.

اختبـأ أصيل خلف بـاب "المخيـزن" المطلّ على سـاحة البيت الجنوبيـة كان "المخيـزن" يحـوي بابيـن: واحـدًا يفتـح علـى المطبـخ، والآخـر يفتح على أسـوار البيت الخلفية مـن جهة الجنـوب، كان قادمًا مـن ليـوان الرجـال، وبيـده غضـار مـاء، وغسَّـال فنـاجين القهوة، همس باسـمي مـن بعيـد، كان وقـع همسـه عليّ كزلازل يهزّ الأرض من تحتي، بثَّتِ الخـوف فـي صـدري وضعفـت دقـات قلبـي، صـرت ألتفـت يمينًـا وشِمالًا. أخشـى أن يسـمعه أحدٌ غيـري، وقعـت عينـاي عليـه، وأشـار لي بيـده أن اقتـرب، كانـت خطواتـي تطيـر بجسـمي نحـوه، توقـف بمسـافة قصيرة تفصل بيني وبينه، سلّم عليّ، ورددت عليه السـلام، سـأل عن حالي وجاوبته، وسألته بمثل السؤال، ناولنـي غضار الماء، وتناولته من يده وظل ممسـكًا به ينظر إليّ بعين تغشـاها أشـواق، وأشياء لم أسـتطع تفسيرها، ثم اقترب.. اقترب واقترب. كاد يلتصق بي حتى أنيّ التفتُّ للجهة الأخـرى؛ كي لا تقع عينـي بعينـه، اقتـرب مـن أذنـي، سـكنت من خوفي، وحبست أنفاسي، ظننت أنه سيُسِـرّ لي قولًا ناعمًا، لكنه جعلني أضـع النجـوم موطئ الأقدام عندما سـرّ لـي قُبلـة، وتركني وهرب.

وضعت يدي على أذني ثلاثة أيام بلياليها أتحسَّسُ موطن القبلة، ومكان الشفتين، ودفء أنفاسه التي اخترقتني، وثقبتي، وجعلتني غير صالحة لغيره ما حييت.

كنت وما زلت في كلِّ ليلة من عمري أستعيد كلمات جدتي حين قالت لي، وهي تقويني بقسوة: (من أخذ حب خلاء عياف) أفسر جملتها في كل مرة، وأجد لها معنًى ثمينًا ومريحًا، لم أكن أجده وقتها.

ردّة فعل جدتي أنستني مصيبتي، أذهلني برودها، كان عليها أن تصرخ وأن تدعُوَ عليهم، وأن تركض إليّ تواسيني وتسلّيني، أن تخونهم، وتذهب إلى بيتهم، وتنقضه فوق رؤوسهم، لا يجب أن يكون الموقف بهذه البساطة، كان عليها أن تكون أكثر أفعالًا وغضبًا، أن تشعرني أن لي حقًّا مسلوبًا، وأن تقاتل لتردَّه لي.

خيَّبت أمي لطيفة ظنون الأحزان، ودحرت أصوات الندم، حبست العَبَرَات، وأطلقت عنان الخسران، تلاعبت بمجريات الموقف حوّلت ما كان ضدي لصالحي.

كان صعبًا جِدًّا على فتاة بعمري خرجت للتَّوِّ من معركة طاحنة بخسارتين متتاليتين أن تفهم فلسفة الفقد، وتستوعب الخسارة الثالثة بأعصاب هادئة تنظر إلى ما وراء الأقدار وتستبشر خيرًا، كانت الحياة مقبلة عليّ بكل أفراحها، لا أعرف من حرَّضها ضدي لتخالف وعدها، وتدير لي ظهرها بهذه القسوة.

علمتني جدتي بحكمتها بعد كلّ ما مرّ بنا ألَّا نجزع، ولا نحزن على شخص رَحَلَ من حياتنا باختياره، فمَنْ رحل باختياره وهو يدَّعي الحب لا شيءَ سيرغمه علينا بعدما تخلَّى عن حبّنا.

حزننا يجب أن يكون لأولئك الذين غابوا رغمًا عنهم، ولو كان لهم اختيارٌ في غياهب بُعْدِهم لاختارونا، وعادوا إلينا، لأنهم وهُمْ في أحضان موتهم يشتاقون لنا أكثر ممَّا نشتاق نحن لهم.

قالت لي: إذا شعرتِ بالضياع. لا تصغي لقلبك. ربَّما قلبك سيحدّثك بما يحب هو وما يتمنى لنفسه، ويوقعك في وهم لن تتخلصي منه أبدًا، في ضياعك أصغي لعقلك سيرشدّك للطريق الصحيح دائمًا، وستتعلمي منه أن تضعي الأمور في مقاييسها الصحيحة، ولو كانت هذه المقاييس تبخس مشاعرك؛ لكنها ترفع من شأن كرامتك.

في ذلك الوقت، وذلك العمر، وتلك الظروف لم أفهم كلّ هذه الخدع، والحقائق حتى كَبُرْت، وتألَّمْت، وتعلَّمت، وتغيَّرت.

كان الألم بقدر الوفاء، والتعلُّم بقدر الخُذلان، والتغيُّر بقدر الصِّدق، أما الكِبَرُفقد سابق كلّ التغيّرات وواكبها، شاخ قلبي سريعًا، وبدأت ألحظ على مفارقي شيبة تقفز هنا وشيبة تخرج هناك، ولا حرمةً لعمر الشباب، أو صبرًا حتى نوافي المشيب.

رفعت رأسي عن رأس شوع، وما كفيت أمسح ما ينساب من دمع عَبَرَ عَبْرَ عيني المبصرة، وعيني الكريمة، وأنفي الذي كان يسرّب الدموع التي لا تنتظر دورها بالخروج عبر عينَيَّ، أمسح وجهي تارةً بيدي، وتارةً أخرى بطرف شيلتي.

احتضنتني شوع بعد موشَّح بكائي في أمسية الفقد الطويل، صديقتي شوع متسرعة في أخذ القرارات التي تبني عليها حالتها النفسية، إذا قررت أن تحزن، ستحزن حتى تقرر هي أن تنسى حزنها، لعلّي في تلك الليلة كان لي أثر على قراراتها؛ حتى جعلتها تقرر أن تنسى حزنها، وتنشغل بي، وتنسيني حزني الذي جلبته لها من فوق رفوف الأزمنة الغابرة.

أمسكتني من كتفي، وجعلت عينيها في عيني، وقالت لي:

- باتسر ورانا عرس بغنّي فيه، وعروسٌ بتقومين بها ثلاث تيام ما نبي ندخل على الناس ووجيهنا متعوسفة، واوعدتس وعد بعد هالعرس نروح أنا وانتِ نعتمر، ونقعد شهر كامل بمكة بين الحرم، وسوق الليل، نصلي الفجر، وننزل السوق نشق هالأقمشة، ونشتري هالسجاجيد، والعطورات، والحناء، والسدر، وكل اللّي تبين.

ابتسمت لها، وهززت رأسي دلالة على الرضاء والموافقة، عدت لبيتي واضطجعت على فراشي، شعرت أني صافية الذهن كسماء ليلة زرقاءَ لا تضم قمرًا، ولا تتزيَّن بنجوم، خلية البال كبيوت بدوٍ غادرها أصحابها، وتركوها قائمة يلفحها هبوب سهيل، وفي صدري فراشة حرَّة تطير بخفّة لا تنتمي للصحراء القاحلة، ولا أعرف من أيِّ عالم سقطت بين جنبات الضلوع المتهالكة، كمَنْ أفرغ باخرة

تائهة في عرض البحر من صناديق متراكمة، وقديمة صادر اللصوص خيراتها، وتركوها تسكنها الفئران، وتنخرها سوسة الأرض، وتعشّش بها الصراصير.

كانت حادثة شوع أشبه بيد الجرَّاح التي لو سَنَّتْ مشرطها لأزالت ندوب الزمن، والخيبات، وفقاعات حروق القهر، والندم التي تكاثرت على سطح قلبي، وبين أوردته وبداخل شرايينه، تخلَّصت ليلتها من التشوُّه الداخلي، والكسر النفسي، والاعوجاج الروحي، شعرت أنيّ نهضت من بين المقابر، نفضتُّ عني الضعف والمهانة، ثم استقمت، وصفحت عن مبغضي، وعفوت عن معذِّبي، ومشيت على الأرض بعدما كنت قابعةً بلا معنى تحت ثكناتها.

دققتُ وتدًا بداخل أرضي المحرَّرة، وأشهرت عليه كلّ المرار. لا شيءَ سأخسره إذا ما ربحت دفاعي عمَّا تبقَّى من حياتي، علَّقت راياتي البيضاء، وعَقَلْت حبالي وتوكّلت.

طلعت شمس صباح يوم الخميس عليّ، وأنا راضية مرضيَّة، إلّا من حُلم أظن أنه عبث الأضغاث في رؤاي، رأيت أنيّ وشوع في صحن المطاف قد فرغنا للتَّوِّ من عمرتنا، متماسِكَتَي الأيدي، ووجهانا مُسْفِران ضاحكان مستبشران، حتى أقبل علينا رَجُلٌ ضخمٌ عابسُ الوجه، داكنُ البشرة. عليه إحرامُ العمرة، فجأة امتلأ الحرم بالناس، وأصبح الصحن مكتَظًّا؛ لكن هذا الرجل المخيف أبى إلَّا أن يمرَّ من بيننا، كنت أمسك بيد شوع بقوة حتى لا تفلت أيدينا محاولةً منع الرجل من الدخول بيننا، لكن قوة الرجل ضعف قوتنا. فرّق أيدينا حتى أني سقطتُّ على الأرض، وفزعت من حلمي بهذه السقطة.

كانت الأجواء الصباحية للوَسْم تساعد المعلول على التَّشَافي، والموجوع على التَّعَافي، وتساعدَ المفزوع من حلم على التَّنَاسي، كلُّ شيءٍ في هذا الصباح يقول: لا تلقي لشيءٍ بالًا. كلي، واشربي. وقَرِّي عينًا.

خرجت لساحة البيت أملأ رِئَتَيَّ برائحة المطر، وأمْتِّعُ عيني برسم الغيوم، أتتني النسائم تحمل على كفوفها صوت شوع، وهي تمرِّن صوتها، وحنجرتها لعرس الليلة على أغنية زفة المعرس عند دخوله على عروسه: (يا من باس العريس.. يا من باسها، يا من سطر اللولو على راسها.. على راسها، وزوجها طراد زين الشباب.. زين الشباب) تلاشت مخاوفي على شوع، وأيقنت أنها تجاوزت حادثتها، وصارت إلى خير.

عدت لغرفتي أضُبُّ حاجياتي. لثلاثة أيام سأترك بها بيتي وحارتي وجارتي، وسأنزل على عائلة لا أعرفها إلَّا بالذكر الطيب، ولا تعرفني إلَّا بالسمعة الحسنة، يأتمنونني على أسرار ابنتهم وزوجها، وعلى خصوصيَّة عُرسها ودُخلتها، لم تكن مهنة "الربعيَّة" بتلك البساطة التي يعتقدها الناس، امرأة تحضر الأفراح، وتنام في بيوت الناس تأكل، وتشرب بالمجَّان، تخالط النساء، وتسهر معهنّ، وتسامرهن وتكسب من ورائهنّ، وتقوم في نهاية اليوم بأعمال بسيطة لا تكلّفها تعبًا ولا مشقّة، إنَّ الذي لا يخطر على عقول الناس، وقلوبهم حضور الذّمَّة، وتحكيم الضمير، ومجاهدة النفس على سترعيوب الناس، وعوراتهم وأسرارهم، أن تغضَّ البصر عمَّا ترى، وتصمَّ الأذن عمَّا تسمع، تكفّ اللِّسان عن البَوْح.

أن تغادر الناس كما دخلت عليهم. لا تنقل منهم، ولا تنقل إليهم، وأن يكون لديها أدني مراتب الأمومة الحنان، والحماية والحكمة، أن الذي تعرفه الربعيَّة من العروس وعنها ربَّما لا تعرفه أمها، ولا أختها، ولا حتى زوجها الذي يكون سببًا في آلامها ومخاوفها، فربَّما يخرج منها كلمة خاطئة، أو نصيحة فاسدة تقضي على العروس في وسط خدرها.

أتذكر في أول مرات مزاولتي مهنتي رافقت عروسًا صغيرة في السِّنِّ ربّما في الثانية عشرة من عمرها زُفَّتْ لزوج بمثل عمر أبيها، أو يكبره بعدة سنوات، كان ذلك العجوز لا يريد من الزواج سوى متعة الدخلة، وحلاوة الخلوة، وأظن أنه راهن شباب الحارة على أن يتخلّص من الربعيَّة التي ضحكوا عليه، وقالوا إنهم سيدفعون لها لتنام بينه وبين عروسه.

فبعدما ولجت أنا والعروس الروشن الذي كان بابُهُ قبالةَ سلّم البيت. زُفّ العجوز لعروسته، كان من واجبي أن أتركهما يختليان ببعضهما لبعض الوقت، ذهبت لإحضار عشاء العرس لهما، ثلاثة قدور مطبقة، وصغيرة، ومشكَّلة من أصناف عشاء العرس، طبق من البطيخ الأحمر، وحلّتين من اللبن الطازج، وغضار ماء دافئ يميل للحرارة يغسلان به أيديهما، كان العرس الرابع الكبير لرجل متباه بفحولته وثرائه، نُحِرَ على شرف العرس من الأنعام ما نُحِرَ، وطُبِخَ به من الأصناف ما طُبِخَ، بعد مُضِيِّ النصف ساعة من خروجي عدت وطرقت باب الروشن عدة طرقات، وانتظرت لبضعة دقائق محمِّلةً بين يَدَيَّ سفرة ثقيلة من الخوص عليها أصناف العشاء.

فتح لي العريس العجوز الباب المقفل بسقّاطٍ خشبِيّ، يلهث من التعب وكأنه طاف أرجاء الحجرة هرولة سبع مرات مع القفز، بدأ عليه الحمق والضجر من حضوري، ظهر لي أنه قد خسر عدة منازلات مع حبال العروس الحريرية البيضاء التي صفدتها أمها على خصرها بقوة الأنس والجن حتى تثبت له عفاف ابنتها ونقاء بكريتها!

كان ثوبه مقطَّعَ الأزرار، وشماغه ومشلحه ملقيان على أرضٍ متفرقة شرقًا وغربًا، نظر إليّ بعينين غاضبتين جاحظتين لا ترمشان. بالشرار يقدحان، نظرت أنا بسرعة وخوف لداخل الغرفة؛ لأطمئن على حال العروس التي حشرت نفسها في إحدى زوايا الحجرة خائفةً ورافضةً للاقتراب.

كنت أقلّ معرفة وإدراكًا بقناعات الربعيَّات وتمجيدهن للرجل، كان من المفترض عليّ ألَّا أقلق على الفتاة الصغيرة، فهذا نصيبها ولو مُزقت، أو نزفت حتى الموت! هو زوجها يأتيها كيفما يشاء، ومتى شاء، فقد أصبحت حلاله، وضمن ممتلكاته شرعًا لهُ حقُّ الطاعة، ولها حريَّة الاختيار بين الاستسلام، والمتعة أو المقاومة والموت.

كان عليّ أن أضحك له ضحكة تحيي فيه أمجاد انتصاراته السابقة، وتربت على سنين مشيبه، وأن أقول: لا بأس. الليل طويل، والبنت مثل القطة بسبعةِ أرواح لو كسر لها ضلع ينبت لها سبعة أقوى وأصلب. عليك بما لديك.

لكن العريس الأحمق باغتني، ودفعني للخلف حتى فقدت توازني، وسقطتُ من سلّم السطح لبطن البيت، اندلقت عليّ القدور الثلاث، واختلط فوقي جريشها، وأرزها ومرقة لحمها، انكسر ضلعي أنا، وأصابني بالحروق، وألحقني بالرضوض، ارتميت على فراشي عدة أسابيع. زارتني في أحد أيامها تلك العروس المسكينة بصحبة أمها كانت زيارة آسفة على ما حدث لي؛ لكن الذي أدهشني وزادني حزنًا عليها، عندما تباطأت عنوة في الخروج لتسبقها أمها إلى الشارع، ولا تسمع أمنية ابنتها البعيدة.

قالت إنها تمنَّت لو أنيّ اشتكيت لدى الإمارة على زوجها العجوز حتى يُسجن لبضعة أيام، وترتاح منه! فبسببه كرهت أهلها الذين رفضوا أن ينتصروا لطفولتها الممزَّقة.

أذَّن الظهر وبدأت أتعجّل في جمع حاجياتي لرحلة العمل القصيرة. عدت لأكمل بسرعة خياطة آخر تفاصيل فستان العروس. بقي لي أن أفتح عراوي أزرار ياقة الرقبة الدانتيل من الخلف، أفكر كثيرًا في هذه العروس الجديدة. هل سأعرف كيف أتعامل معها فقد مرَّ وقتٌ طويلٌ، ولحق بالأجيال أجيالٌ جديدة بفكر مختلف، ولغة مختلفة ونظرة مختلفة، تعلموا أفضل من تعليمنا، وناموا على سُرُرٍ، وجلسوا على أرائكَ مرتفعة عن الأرض، ولو أن هذا التغيُّر بسيطٌ؛ لكنه ملحوظ في شخصيّاتهم، قلَّ حياء الفتاة، فلم تعدْ تفرق بين العزباء والمتزوجة، أصبحت الفتاة العزباء تلبس التنانير الضيِّقة على الوركين، ومفتوحة من الخلف، وتسدل ضفيرتها فوق كتفيها وظهرها، وتزيّن وجهها بأدوات ومساحيق تجميلية كالتي تضع منها شوع، أحمر شفاه وكحل قلم، وحمرة خدود، وأشياء أخرى لا أفهمها، كفوفهن بيضاء ككفوف الرجال لا حنَّاء تزينها، ولا رائحة تعطرها؛ بل استبدلن ورق الجنة، ورائحة الأمهات بطلاءٍ ملوَّنٍ يصبغن به أظافرهن الطويلة.

قبل خروجي من بيتي إلى بيت العروس، أدَّيْتُ صلاتي ودعوت الله أن يوفق هذه العروس، وينزع من قلبي هذه الخيفة، وأن أطمئنّ لها وتطمئنّ لي، بخّرْتُ فستانها ولففته بكيس "نايلون"، ودلفت للشارع وقعت عيني على باب شوع، فسوَّلَتْ لي نفسي زيارتها، ضربت بابها، وفتحت لي بوجه لا يظهر منه سوى حباب العين.

فتحت جيب صدري ونفثت فيه:

- بسم الله علي، وش لاطتن بوجهتس.

جاوبتني بغمغمة غير مفهومه كان وجهها متماسكًا ومشدودًا ممَّا لا يسمح لشفتيها بالتكلم، أشارت لي بالجلوس والانتظار، وعيناها شاخصتان للأعلى، لا تقوى أن ترمش رمشه واحدة، غابت عدة دقائق غسلت بها وجهها، ونشَّفته، ثم تناولت "عود ديرم" ومضغت أحدَ طرفَيْه بأسنانها، وبلَّتْه بريقها حتى لان، وأخذت تفرك به أسنانها وتدقّ به شفاهها.

دفعها فضولها أن تفتح كيس النايلون الذي يحوي الفستان، أخذته منها بسرعة، ومنعتها من أن تفتحه، أمسكت ذقنها بيدي، وقلَّبت وجهها الذي كان يشعُّ صفاءً يمينًا ويسارًا.

-اللحين ما تقولين لي وش حاطتن بوجهس؟

-روب وعسل.

-انعبوتس ما تخافين الله؟ تلطِّطين وجهس بالنعمة؟! حرام، حرام، يقلبنا الله قرود!

-وخّري اهوه! سمعت نوال بخش تقوله في صباح المملكة تلفزيونّا ما يقول شيّ حرام.

أدرت لها ظهري متوجهةً للباب، فتحت جيبي للسماء، وأنا أدعو الله، وأنظر إليه:

-ي الله أنيّ برية منها براءة الذيب من دم يوسف.

أوقفتني عند الباب، وغرست في فمي "عودَ الديرم" الذي تمسكه بين شفاهها:

-دوتس دقي هالديرم في خشتس. هالمصوفره اللّي يشوفتس يقول رايحتن عزاء.

ظللت طوال مشيي على شارع العصارات متجهة لبيت العرس أمضغ وأمصّ عود الديرم لتخرج منه المادة الصبغية، أمررها على شفاهي وأسناني، يساوي هذا العود في مكانته عند المرأة مكانة السّواك عند الرجل، تصبغ هذه القطعة المأخوذة من لحاء شجرة الجوز الشفتين باللون الأحمر، وتنظف الأسنان، وتلمِّعها، وتعطي الفم رائحة عَطِرة.

على امتداد هذا الشارع الطويل والمتفرع تنتشر محلات بيع العصير الطازج الذي يقدم للزبون من العصَّارة بكاسات للمشروبات الباردة بشكل جديد، فكرة جميلة. كاسات بلاستيكية للاستخدام الواحد. بيضاء تغطَّى بغطاءٍ أبيض مفتوح من المنتصف يدخل فيه أنبوبة بلاستيكية تدعى مصَّاص يُمَصّ منها العصير من الكأس للفم مباشرة.

تزيَّن واجهاتُ محلّات العصير الزجاجية بتشكيلات من الفواكه المصفوفة بشكل هرمِيّ، هرمٌ من التفاح الملوّن. تفاح أحمر وأخضر وأصفر، وهرم البرتقال الحلو لعصير الكبس، وآخر من "برتقال أبو دمّو" ومثله من "برتقال أبو صرة" لعصير البرتقال الخلاط، وعناقيد موز معلقة على جذع خشبِيٍّ طويلٍ تعطي الرَّائي إيحاءً بأنَّ شجرة الموز طرحت موزها هنا في منتصف المحل، عند

أبواب المحل توجد حاويات كبيرة تحوي عيدان قصب السكر الطويلة، كانت محالُّ العصائر تشبه بديكوراتها دكاكين الخضراوات والفواكه؛ لكنها هنا مخصَّصة للفاكهة المعصورة والمقطَّعة.

داخل المحل توجد برَّادات عرض زجاجية يُخزَّن بداخلها أنواع أخرى من الفواكه كالأناناس والعنب والمانجو، خلف هذه البرَّادات يقف البائع ومدير مكائن العصَّارات، يُستخدم سطح البرادات العلوي كطاولات استقبال، ودفع واستلام بين الزبون والبائع، بداخل المحل أيضًا تجد طاولات بلاستيكية بيضاء حولها كرسيان، أو ثلاثة لتوفر مكانًا يتناول فيه الزبون وجبته، فبعض محلات العصير تقدم مع العصائر وجبات الخبز المحشو بالجبن والعسل، أو اللَّبْنَة والزعتر، أو حتى البيض المقلي، ويطلبها الزبون باسم "الساندويتشات".

على ضفَّة رصيف شارع العصارات توقفت للحظة تحت غيمة مُزْنٍ ركامي حجبت حدَّة الشمس العمودية، فتحول بها الظهر الحارُ إلى غروب بارد، وطويل كاذب وجميل، توقفت مكاني أسمع نفسي تسوِّل لي قطع الشارع العام، والاتجاه لضفة محال العصائر، كنت أشتهي أن أدخل إلى "عصارة أبوللو" أكبر العصارات الموجودة على الشارع، تضع "عصارة أبوللو" لافتة ملفتة ومميزة، عبارة عن رسم لسماء معتمة سوداء، وأرض صخرية ذات حفر صغيرة ومتفرقة، يقف عليها رجلٌ يلبس بدلة بيضاءَ مميزةً وخوذة للرأس شفافة من الأمام وعلى ظهره شيء يحمله أظن أنه حقيبة سفر ويحمل بيده كأسًا من العصير الذي يقدمه المحل. كتب عليها باللون الأزرق أبوللُّو، كانت اللَّافتة تعطي شعورًا بأن هذا العصير جُلِبَ من أرض بعيدة جَدًّا، وليس لأيّ شخص أن يحصل عليه.

قررت أن أفعل كما يفعل المتجوّلون. أشتري شيئًا من هذه العصائر، وأشربه، وأكمل طريقي لبيت العُرس تحت هذا الطقس الذي تتزيَّن به الرياض أيامًا معدودات.

لا أذكر متى آخر مرة أخذت بها فسحة من الزمن، وتجوَّلت بصحبة نفسي، عندما أكون وحدي يكون كلُّ شيء مختلفًا. أنا وهذا الكون الضَيِّق الفسيح نصبح بحالة تَمَاه كاملة، أسمع منه أصواتًا تتردَّد عبر الزمن القادم والآفل، وأرى صورًا توقَّف عندها الوقت، ولم يجد طريقًا للمُضِيّ لا من فوقها، ولا من تحتها، اشعر أني جِرْمٌ وحيدٌ يسبح في مدارات الكون، يدور حول نفسه وحول القدر، إنِ ابتعدت عن مركز جذبي ضعت بين الأقدار، وإنِ اقتربت منه احترقتُ بنصيبي البائس، علِّي أحافظ على قياسات هذه المسافة المخطَّط لها قبل وجودي، لا ركضَ ولا وقوفَ. ربَّما هرولة فوق الصُّرُوف.

مع ذاتك لا شيءَ يختبئ تحت ثنايا الضلوع، أو يلتحف بطرْفِ اللِّسان، ويرقد للأبد، كلُّ ما لديك يظهر لما لديك، أنت العارف، وأنت الجاهل، أنت المخذول، وأنت العضيد، أنت من دفن السِّرَّ بعيدًا، وأنت محلّ الدفن البعيد.

رفقة النفس لا تأتي هكذا جزافًا دون أن تدفع لنفسك، وعن نفسك العذابات، ولن تصل لِلَّذتها بالهُونِ، وأنت منشرح الصدر، سعيد الحظ، موفَّق الدرب، على الحياة أن تقتلع منك ما تقتلع؛ حتى تجد لنفسك مكانًا لها فيك.

علَّ هذا الشارع من أفضل الأماكن التي تصحب بها نفسك، فهو مكانٌ لالتقاء الناس وتبادل الأحاديث، ولتستمتع بمناظر الشباب

الذيـنَ يُحْيُـون شـارع العصـارات بتجمُّعَاتِهـم مكوِّنيـنَ مناخًـا حَيَويًّـا مميّـزًا يشـبه عنفوانهـم، وملابسـهم وقصّـات شـعورهم وموديـلات سـياراتهم العصريـة، يتباهَـوْن بأنفسـهم، وممتلكاتهـم أمـام سـينما، ونـوادي ومطاعـم الشـارع الجديـد.

يقـرأ المشـاهد تمـرُّد الشـباب مـن ملابسـهم التـي يخلطـون بهـا التقليـدي مـع الحديـث، وكأن مظاهرهـم تقول إنَّ كلَّ شـيءٍ مباحٌ، ألوان صارخة ومتعددة، وغير متناسقة في القطعة الواحدة، قمصان جميلة جِدًّا لعلنـا -نحن النسـاء- نشـتهي أن نلبس هـذه التشـجيرات والألوان التـي تليـق بنـا أكثـر مـن أن تليـق بالرجـل المحافـظ، يعمـدون أن يتركوا أزرار قمصانهـم مفتوحة؛ لتظهر صدورهـم النحيلة بشـكلٍ مهمل وغير متعمّـد، بناطيلهـم واسـعة وفضفاضـة برتقاليـة، وصفـراء، وزرقـاء، تضمّهـا علـى خصورهـم محازمُ جلديـة أنيقة.

يضعـون بأيديهـم الخواتـم الرجاليـة التقليديـة، ويحملـون المسـابح، يخرجـون عـن المألـوف ويتمسّـكون بأطرافـه.

شـعورهم مقصوصـة مـن الجانبيـن، وطويلـة مـن المنتصـف المسـرّح للخلـف للحفـاظ علـى ضخامـة الشـعر مـن الأعلـى بشـكل قُبَّـةٍ مرتفعـة، وآخـرون يحـدِّدون السـوالف بشـكل مبالـغ ذلـك الشـعر الـذي يصـل شـعر رؤوسـهم بشـعر وجوههـم بمحـاذاة الأُذن وإلـى نهايتهـا.

تضفـي عليهـم هـذه التسـاريح مزيـدًا مـن التفـرُّد فـي الهيئـة، حتـى أن الآبـاء الشـباب حاولـوا تقليـد أبنائهـم فـي المظهـر الشَّـبابِيِّ البعيـدِ عـن قالـب الثـوب، والشـماغ التقليـدِيِّ.

هنا تصطفُّ سيارة "مرسيدس بنز" ذهبية ومجنَّحَة، تفتح أبوابها للأعلى كأنها ستتحول لطائرة، وتطير فور تشغيلها، وبعد غلق الأبواب تعود لشكل السيارة الطبيعي تمشي فوق الأرض، ولا تطير، وهناك سيارة "بونتياك" الأمريكية مكشوفة السقف بباب واحد ومقعدين: خلفيٍّ وأمَامي، وهذه سيارة الكاديلاك طويلة، وفخمة ذات لونين خارجين سقفها أبيض، وهيكل أزرق فاتح بلون السماء، مغلَّفة من الداخل بشكل كامل بجلد أحمرَ.

تأثر الشباب بالأفلام المصرية التي تُعرض في بيوت السينما، وتعلَّقوا بأغنياتها، فلن تجد سيارة بها مجموعة من الشباب إلَّا ويصدح بها أغنية كـ"قاضي البلاج ودقوا الشماسي" للعندليب الأسمر من فيلم أبي فوق الشجرة الذي لاقى نجاحًا ورواجًا واسعًا بين أوساط الشباب بسبب إيقاعاتها المتسارعة، وكلماتها البسيطة، ورقصاتها الاستعراضية الخفيفة.

حمل الشباب على أكتافهم الشماسي كنوع من إضافة مختلفة يتميَّزون بها، وعلقوا على رقابهم "كاميرا ديانا" الفلاشية، كان المصور وحده مَنْ يدير مشهد التصوير ويقترح حركات تصويرية شبابية مفتعلة، كأن يطلب من صديقه أن يستند على السيارة ويفتح شمسيته، ويلتقط له صورة تحت الظلال، أو يمتطي السيارة المكشوفة قفزًا من فوق الهيكل، وصديقه يوثِّق هذه الحركة الرشيقة بصورة جنونية.

وبصورة أخرى يقف وقفة ينفخ بها صدره، ويصلب ظهره، ويضع إحدى قدمَيْه على الدعامات الأمامية للسيارة مستعرضًا حذاءه الجلدي ذا الكعب قليل الارتفاع، ويبقي يده تحت ذقنه، وينظر بعيدًا،

وكأنه في حالة تأمُّل عميقة.

وصورة رابعة تؤخذ لصديقين قضيا جُلّ النهار يتسكَّعان هنا وهناك، ثم يهِمَّان للسلام على بعضيهما، وكأنهما تقابلا للتّوِّ صدفةً لا يجب أن تفوتها عدسة الكاميرا.

كنت أشاهد من بعيد شابَّيْن تآمرا على صديقهما الذي أحبَّ أن يصوَّر، وهو جالس على غطاء محرك السيارة، اتَّفق المصوِّر مع صاحبه. ما أن يجلس صديقهما على غطاء محرك السيارة؛ حتى يضرب بوق السيارة المزعج بيده ضربة قوية، ومتواصلة ليفزع صديقهما الغافل، وتخرج صورة صادقة ومضحكة لحالة فزع حقيقية!

كان الشباب يهتمّون لأدقِّ التفاصيل التي ستظهر في الصورة، والتي لا تظهر، يبخُّون عدة رشّات من العطورات الفرنسية قبل أخذ الصورة، ويحرصون على وجود موسيقى عالية وراقصة أثناء التصوير.

يوجد على هذا الشارع أهم وأكبر النوادي الرياضية الثقافية في الرياض، النوادي هنا جديدة، وحيوية تهتم بالفرد بدنيًّا وعقليًّا شعارها: "العقل السليم في الجسم السليم"، فلا سلامة لعقل جسمه معلول، ولا سلامة لجسد عقله مخبول، تجد بين الجموع الشبابية لاعبين، والمعجبون يحملون صورًا شخصية لهؤلاء اللَّاعبين يطلبون منهم كتابة كلمات تذكاريّة خلف الصور وتواقيع مؤرَّخة، المشجعون يحملون الأعلام واللَّافتات ويلبسون زيّ النادي الذي ينتمون إليه بأرواحهم.

يضمُّ النادي مكتبة للأعضاء القرَّاء تعير، وتبيع الكتب، ومقاهِيَ حديثة تقدم مشروبات ساخنة وباردة، وصالة سينما تستقبل الأعضاء بالمجان، وبقيمة ما بين ثلاثة إلى خمسة ريالات للشخص من خارج النادي، تعرض الأفلام في صالات مفتوحة لتخفيف روائح الدخان المتصاعد من أفواه وأنوف الحاضرين، قلَّل أيضًا الفضاء المفتوح من ضوضاء الكراسي الحديدية المتحركة بفعل الحماس، والتفاعل مع أحداث الأفلام، وضاعت في الهواء تعليقات المتابعين وأصوات ضحكاتهم، كما أن سكان البنايات المجاورة للنادي يستمتعون بمشاهدة صامتة للأفلام، يشاهدونها صورة من غير صوت يصل لأسطحهم ومع هذا يتابعون العرض دون أن يدفعوا ريالًا واحدًا.

اشتريت كأسًا من عصير الكوكتيل بالعسل، عدة أنواع من الفواكه محلَّاة بالعسل مُزِجَتْ مع بعضها، وتقدَّم كعصير واحد، كما شرح لي البائع التركي، كنت مترددَةً في اختيار شيء لم يسبق لي تذَوُّقُهُ، كنت سأكتفي بعصير برتقال كبس، أو خلَّاط لا تفرق عندي طالما أنِّي في النهاية سأتناول عصير برتقال، لم أكن أعرف أساسًا الفرق بين الكبس والخلاط، لكن البائع شجعني على كسر القالب المعتاد وتذَوُّق شيءٍ جديد، وقال إنّي لن أندم على تجربته، ثم سألني: إن كنت أحب أن أتناول كأس العصير في الجلسات المخصصة للزبائن، أو سآخذه معي في طريقي.

أخذت بضع دقائق أفكر بجواب على سؤاله الذي لا يستحقُّ التفكُّر هو قرار لحظيّ نعم أو لا، كنت بداخلي أحب أن أجلس في جلسات المحل، وأَشْبِعُ هذه النشوة الخفيفة والجسارة التي أشعر بها،

هنا أنا وحدي لا أحدَ يقودني إلى مكان، لا أحدَ يُمْلي عَلَيّ تصرفاتي. لا أحدَ يدبر لي أمري، وأنا أتبعه، كانت لحظة من العمر أعطيتها المقودَ، كنت مَنْ يقترح، ومن يشاور، ويتشاور، ومن يقرر، ويتصرَّف، لكنَّ شيئًا خفيًّا يكبِّلُني ويبطئ سرعتي في حسم أمري، كنت أفتقد للياقة البَتّ في قرارات بسيطة بحجم كأس العصير هذا، شخصيتي المتردّدة تشدّني للوراء، ولا تسمح لي بالاستمتاع بشيء.

مشيت بهدوء نحو الكرسيِّ، وسحبته من تحت الطاولة، وجلست بهدوء أيضًا من غير أن أبلغ البائع بقراري العظيم، كان يفدُ للمحل شبابٌ وشابَّات يتبادلون النظرات المشتتة آبهين، وغير آبهين، شعرت منهم بالخجل لكِبَرِي، وجلوسي في مكان لا يشبهني؛ لكنْ في الحقيقة لم تكن مشكلة انسجامي مع المكان؛ بل كانت مشكلة انسجامي مع ذاتي، أنا التي لم أكن أشبه نفسي في هذا المكان!

أقبل عَلَيّ البائعُ، وبيده صينيّةٌ حديديَّةٌ دائريَّةٌ فوقها كأس زجاجية كبيرة ذات عروة تشكَّلَتْ عليها طبقةٌ صقيعيةٌ من فرْطِ برودة الشراب الأحمر الغليظ الذي بداخله، وبداخل الكأس يتنصب مصَّاصٌ طويل، وشمسية كالتي يحملها الشباب في الشارع ويتراقصون بها، صغيرة ومصنوعة من عيدان الخشب والورق، سرني منظر الشمسية جِدًّا، ورحت أفركها بين أصابعي، وأستمتع بحركتها الدائرية السريعة.

وضعت المصَّاص بين شفتي، وارتشفت بكل ما أوتيت من عمق النفس، انساب بداخل فمي سائلٌ باردٌ شديدُ الحلاوة. يمزج طعمه بين الموز والمانجو والفراولة، وضعت كلتا يَدَيَّ حول الكأس، وأخذت أرتشف ارتشافًا متواصلًا بدون انقطاع، عيني تنظر للأعلى وقدماي على الأرض. واحدة ترتفع، والأخرى تهبط بإيقاعٍ متوازنٍ، وكأنهما ترقصان، شعرت أن بداخلي قبيلة أطفال لأول مرةً يشربون معي العصير، لم أعِ أنِّي شربت العصير دفعة واحدة، وإلى آخر قطرة حتى امتلأ فمي بالهواء، وخرج من الكأس بشكل فاضح ومزعج. صوت خشخشة قطع الثلج!

جالت عيني في المكان؛ خوفًا من ضحكات الشباب الساخرة، حتى اطمأننتُ أنْ لا أحد سمع صوت الخشخشة في الكأس، تناولت أغراضي، وخرجت بسرعة أكمل طريقي لبيت العرس، مشيت على الشارع تمامًا كما وصفت لي شوع مكان بيت العرس، حتى أوقفني قصر أبيض كبير حوله جلبة رجال، وعمال يدخلون للقصر محمَّلين ويخرجون من القصر ليحملوا إليه من السيارتين "اللُّوري" التي تقف بمحاذاة القصر، واحدة محملة بقعود، وعدة خراف واللّوري الأخرى

محمَّلة بسجَّاد أحمرَ وعقود طويلة معلق عليها مصابيح خضراء وزرقاء، وحمراء وصفراء.

فرشت السكة كلها بالسجاد، وعلِّقت عقود المصابيح من بيت العرس للبيت المقابل له، وأضرم الطبَّاخون نيران العشاء، ونصبوا القدور فوق الحطب، واتَّخذت بائعات البسطة أماكنهن في مدخل السكة، يفترشن قطعة من الورق الصفيق المقوَّى، يعرضن عليها بضاعتهن من حلوى، سكاكر، عصائر، غازيات، مقرمشات وكور بلاستيكية وجلدية، وألعاب تجعل الطفل يعتقد أن هذه البسطة هي العرس وأن البائعة أجمل عروس.

أمسكت بيد أحد أولاد الحارة الذي يحوم عند بسطة امرأة عجوز؛ لأتأكد أن القصر لشيوخ "آل مشباش" قبل أن أدخل إليهم.

-ايه هذا بيتهم شوفي الحارة عندهم عرس، أكّد لي، وأعطاني المارية الواضحة لي وله.

هممت بدخول القصر من أحد أبوابه المشروعة، فجأة اصطدمت ركبتاي بعصا اعترضت طريقي، مدَّها أمامي رجلٌ عجوز تبدو عليه وسامة مشت فوق العمر الطويل حتى تراخت، وجثت على سنوات المشيب، يجلس على كرسيٍّ عند مدخل القصر يوجِّه العمال ويُحيِّي الرجال، لم يكن قدوم امرأة في هذا الوقت لبيت العرس مستهجنًا وغريبًا كما أوحى لي والد العروس، فنساء الحارة والجارات والقريبات يفزعن مع أهل العروس بقدورهنّ وأباريقهنّ، والصواني منذُ صباح يوم العرس كلٌّ يَسِمُ "معاميله" بوسْمٍ حتى لا تضيع وتُفقد بين الأواني، لاطفني بسؤاله:

-من إنتِ ووش جايبتس؟ !

لم يربكني سؤاله مثلما أربكتني نظراته الحارَّة، وفتلة شنبه الطويل!

- أنا الربعيَّة والخيَّاطة ..

قاطعني وقال:

- وطفاء؟ !

نطق اسمي بجَلافَةٍ، وجفاف، وحشرجةٍ في صوته. شعرت أن عصافير السدرة طارت من قلبي فزعة من نعيقٍ غراب.

أشار بعصاه للداخل، وقال:

- ادخلي الحريم مناك.

كان واضحًا من جلسته وسؤاله أن لا طير يطير فوق هذا البيت إلَّا بعلمه، ومن تخطيطه وتدبيره.

بقدر ما هذا القصر كبير وجميل، فهو مريبٌ ومخيفٌ. ما أن تخطو إليه حتى تشعر بأن قلبك يُعتَصَرُ مكانه بين يدين وحشيّتين شيطانِيّتين وخفِيّتَيْن، سوره واسعٌ وفسيحٌ يضمُّ إلى جانب الثلاثة بيوت المصطفَّة على خطٍّ واحد ربعة شعر منصوبة فوق أربعة أعمدة بدون محرم، حفر حولها الوني، وتتوسطها النقرة بشبَّة نارها التي توحي للناس في الشارع خارج القصر أن هنا مكانًا للكرم والضيافة، يجلس أمام شبَّة النار شابٌ في مقتبل عمره يبلس ثوبًا، وقد ربط بطنه بغترته. يحمّس القهوة، ويُعِدّ الدِّلال ويدقُّ الهيل، أظنه يعمل صبِيًّا عند أصحاب القصر.

أوقفتني الحيرة عن بُعْد عدة أمتار أمام أبواب متفرّقة. ثلاثة أبواب كبيرة لثلاثة بيوت، أسأل نفسي، وتسألني من أيِّ الأبواب

سأدخل، وإلى أيِّ البيوت قَدِمْت.

العمال يتخاطفون حولي. يحملون، وينزلون يعلقون، ويفرشون. كلٌّ منغمس بما بين يديه، وكأن فوق رأسه مشعاب لو قصَّر قليلًا في عمله سيُضرب به، لا أحد ينظر لأحد، أو يبطئ الخطوة ليدلَّني على بابٍ واحدٍ أدخله!

تَبًّا لشوعٍ التي لم تخبرْني من أيِّ الأبواب أدخل، وقفت بحيرتي عدة دقائق حتى لمحت من خلف الباب الأوسط امرأة تشاور لي بيدها، وتدعوني للدخول.

رحت لها مسرعة، وفرحة أن أحدًا انتشلني من الضياع لطريق الهدى، صعدت ثلاث درجات، ودخلت من الباب الخشبيِّ الكبير الذي تقف خلفه المرأة، لقد قضيت منتصف عمري أتفرج على بيوت الأكابر من الخارج، تهديني شوع واحدًا، وأردُّ لها الهدية بآخر.

قبل أن أدخل القصر كنت مؤمنة بأن لكلّ ضياع داخلي، وتخبّط روحيّ هدًى يأتيك من الخارج، كنصيحة عقلانيّة من صديق، أو دعوة صادقة من مُحِبّ، وبعد دخولي للقصر تعمّق إيماني بألَّا يمكن لمعجزة خارجية أن تهدي ضياعًا داخليًّا أعمى لا يلتمس لنفسه في الظلمات قبسًا من هدًى.

سلمت عليّ المرأة في مدخل القصر صافحتني، وعرَّفت بنفسها أمًّا للعروس، وقبَّلتني عن خدي اليمين ثلاثَ قُبَل مُتتالية. سألت عن حالي بالأولى، وعن أولادي بالثانية، وعن أهلي بالثالثة، كنت أجيبها بالحمد والثناء بكلٍّ واحدة، اطمأننت أنهم لا يعرفون عني أكثر من اسمي ومهنتي.

عن يمينِ وشمالِ مدخل القصر من الداخل مجلسان متقابلان، ومفتوحان أمام بعضهما يجبران العين أن تجول بهما جولة تدقيق وتفصيل، أبواب منحوتة، زرابيُّ مفروشة، مطارح موضوعة، مساند مصفوفة، نمارق مبثوثة، وبنادق مرفوعة، بدا لي أنهما مجلسان يستقبل فيهما سيد القصر ضيوفه، في كلّ ركنٍ من أركانِ المجلس تجد حيوانًا حقيقيًّا محنَّطًا من حيوانات البادية والصيد، ثعالبُ وصقورٌ، أرانبُ وغزال، قطط وحشية، وفهود، وعلى جنبات الممرّ علِّقت رؤوس بقرٍ وحشيٍّ بقرونها المفتولة، وعلى الأرض رُكِزَتْ أنيابٌ عاجية بيضاء وطويلة.

جدران المجلسين بيضاء، وملساء معَلّق عليها عدة صور كبيرة ومُؤَطَّرة بإطارات مذهَّبة لرجال من البادية عليهم سيما الهيبة والمشيخة، كانواعاقدي الحواجب، زامّي الشفاة، صارِّي الأحداق. متأبِّطي المشالح، وملقين بأطرافها فوق المناكب، متقلدي البنادق، ومتوشّحي السيوف، متحزّمين بالحَقْوِ على الخصور، تظهر من تحت أيدي بشوتهم أكمام المرودن الطويلة، وعلى صدورهم تُربط أحزمة جلدية متعاكسة. خِيط فوقها فتحات صغيرة لصفّ ذخيرة البندقية عليها كعساكر دفاع.

بعضهم عراة الرؤوس شعورهم طويلة ومضفَّرة ضفيرتين فوق أكتافهم، وبعضهم حفاة كأن حرارة الرمضاء بردٌ وسلامٌ تحت أقدامهم، صور لرجال قاعدين خلف شبَّة النار ودِلال القهوة وصور لرجال يمسكون برسن الخيل، ويستعرضون بجمالها وكثرتها، كان المجلسان ينضحان بصور الكرم والشجاعة.

طلبت مني سيدة القصر كما كنت أعتقد أنها سيدته أن أتبعها للداخل. تعجبت أنه ما زال بالداخل داخل أكثر من الذي رأيته عند الباب، بعدما قطعنا الممرّ الذي تقشعر من رؤوس بقره الأبدان. توهَّمت أنيّ سمعت صوتًا خفيًّا بعيدًا، وأنا أنظر في عيون البقر الشاخصة، أغلقت عيني من عيونهم، واستعذت من الشيطان وقرأت المعوِّذتين ونفذتهما في جيبي.

وافانا بابٌ ينتهي عنده الممرّ، وتقع خلفه صالة واسعة نوافذها كبيرة يتوسطها درجٌ لولبيٌّ كعامود نُصبَ في منتصف البيت، طلوعًا يأخذك للدّور الثاني، ونزولًا ينزل بك للأسفل في جوف القَبْو، صالة القصر وسلالمُهُ مفروشةٌ بسَجَّاد أحمرَ منقوش بنقوش ذهبية، ومطارح ومساند بيضاء مطرَّزة بخيوط ذهبية كما الستائر الطويلة المخمَليَّة التي تغطي النوافذ والجدران، وبالصالة عدة أبواب تأخذك لأماكنَ أخرى أجهلها.

صعدت أم العروس درجات السلم للأعلى. تبعتها بصمت منها ومني، كانت تلتفت لي كل خطوتين لتتأكد أنّي خلفها وأتبعها، لم أرتَحْ لهذه المرأة كنت أشعر أنها تعد الكلمات التي يجب عليها أن تقولها لي!

انتهت بنا درجات السلم عند مقدمة يتفرّع منها عدة ممرّات، اتّخذت المرأة الممرّ الأماميَّ، لم يكن بهذا الممرِّ أبوابُ غرف كما لمحت في الممرَّات الأخرى عدا مصابيح جانبية، هو بابٌ وحيدٌ يقبع في نهاية الممرّ، طلبت مني المرأة أن أقف أمام الباب قليلًا، ثم دقَّت الباب عدَّة دقّات فتحته، ودخلت من غير أن تنتظر إجابة، أو تسأل سؤالًا وغلقت بوجهي الأبواب!

بعد مُضيّ دقيقتين تقريبًا فتحت لي فتاة شابة الباب، بعينيها بريقٌ، وعلى شفتيها ابتسامة، بها شغف ما يشتعل بقلبها ويشعلها، تصوّر لي أنها العروس بنفسها، لكن بعد أن دقّقت النظر في ثيابها الرَّثَّة، وشعرها المدهن وأسنانها الصفراء شككت بفكرتي، فلا يمكن للقصور أن تنجب أميرة كهذه.

رحّبت بي وأدخلتني لداخل الغرفة، حقيقةً لم تكن غرفة كانت بيتًا يُسمّى غرفة مساحتها فقط بمساحة بيتي كاملًا، جدران مجلَّدة من الأرض للسقف بورق وردِيٍّ عليه مسحة ذهبية لامعة بطبعات لبحيرات صغيرة زرقاءَ حولها شجيراتٌ طويلةٌ وطيورٌ بيضاءُ في أحوالٍ مختلفة بعضها يشرب، وبعضها يطير، وبعضها يدسُّ منقاره تحت جناحه.

وفي الركن القريب كنباتٌ ورديَّةٌ مُكَوِّنَة نصف دائرة متصلة، عند نهاية كل مقعد طاولة فوقها مصباح فوقه غطاء أبيض يخرج من خلفه ضوءٌ أصفرُ هادئٌ، وفي نصف الدائرة طاولة مستطيلة فوقها دواوين شعرية، وروايات وتحتها مجلات وصحف وكتب مدرسية.

طلبت مني الفتاة أن أستريح في هذا الركن الذي يبدو أنه مخصَّص لضيوف غرفة العروس، ثم استأذنت بأدب ومرح لا أعرف كيف للمرح أن يقفز من كلماتها العادية، أشارت على الكيس النايلون:

-هذا فستان العروس؟

-إيه.

- عطيني إياه عمتي ترفة وصتني آخذه.

كانت تتكلم وكأنها تقول طُرفة مضحكة، عضلات وجهها

بحالة شَدٍّ دائمة، ومستعدة للابتسام، ناولتها الكيس النايلون، واستدارت وهي تتضاحك، ثم غابت عن ناظري.

حاولت أن أطيل بصري هنا وهناك علِّي ألمح شيئًا يفسر غرابة المكان، لمحت ستائر خفيفة، وشفَّافة؛ لكنَّ مكانها كان غريبًا. متدلِّية من السقف للأرض بمنتصف الغرفة حيث لا نوافذ في المنتصف، كانت إحدى قطع الستائر الوردية محكمة الرباط بحبال من القيطان الأحمر على جانب عامود خشبي.

رفعت نفسي قليلًا عن الكنب، وركبتاي لا مَثْنِيَّة، ولا مُمْتَدَّة ممّا يسمح لي بالوقوف على هيئة الجلوس، وقوفًا بسيطًا يجعلني أتلصَّص خلف الستائر، وجلوسًا يوحي للقادمين بأنِّي في حالة تململٍ، وانشغال.

بدا ليَ سريرًا مرتفعًا بحوالي المتر عن الأرض. محاطًا بالستائر الشّيفونية، وأعمدة خشبية من أربع زوايا، مغطًى بفُرُش بيضاءَ لها طبقات صغيرة مزمومة، متتالية ومطَرَّزة، تقع على الأرض من فرط طولها.

ظهر السرير عبارة عن لوح خشبِيٍّ يصدر صوت مذياع. ظننت أنه فُتح خلفه؛ لكن تبيَّنت لاحقًا أن السرير ملحقٌ بجهاز راديو، تلمع من ظهر السرير أضواءٌ خفيفةٌ كأنما هي نجومٌ صغيرةٌ نزلت من السماء، وأسندت ظهرها لتستريح، وعلقت عليه" مارية" قصَّت على هيئة شظايا مكسورة عكست لي صورتي عدة مرات متداخلة، كنت أرتفع وأهبط لأرى صورتي المكسورة قبل أن ينقلب البصر على انعكاس بريق ذهب، ولمعة ألماس، وصناديق مخمَليَّة فُرِشَتْ على السرير بالكامل.

وكأنَّ مغارة علي بابا فتحت أمامي، فُغِرَ فمي، وتوقَّف عقلي، وأخذ لساني يسبّح اللّه، ويصلي على رسوله حتى أعاد لي رشدي صوت فتح الباب بجانب السرير، جلست بسرعه خوفًا من القادم أن يراني أسترق النظر.

في عِزِّ النهار خرج من وراء الباب قمرٌ في ليلة تمامه، جِنِّيَةُ الجمال لدرجة أن عيني المبصرة تحدِّث عيني العمياء عمَّا ترى، جلدها صاف كالصدف، وأسنانها بيضاء كالخزف، واسعة شقة العينين، سوداء الشعر والرِّمشين، في ثغرها رقَّةٌ، وفي عنقها شهقة، طويلة النحر مرتكزة الصدر، كأنما وضعت أنثى صقر بيضتين مبرومتين متقاربتين. لا فراغ بينهما تحت انحدار سفح جَبَلِيٍّ عالٍ، أكل رُدْفَاها اللَّحم عن خصرها حتى سَمِنَتْ وتركته ضامرًا في مجاعة.

خرجت من الحمَّام تنفض الماء عن شعرها الطويل المبلَّل، جلست فوق كرسِيٍّ خشبِيٍّ صغير عليه مرتبة إسفنجِيَّة وضع أمام مرآة معلَّقة على الجدار بطول ذراع، وبعرض ذراع، تحتها طاولة خشبِيَّة أطول، وأعرض من المرآة بذراع آخر.

وُضِعَ على جَنَبَات الطاولة بنوران كرويان من الكريستال لكلٍّ واحد منهما قاعدة محفورة على شكل أوراق شجر، وداخل كلّ ورقة خطوط ذهبية صغيرة، وعليهما أغطية مقبَّبة صنعت بعناية كقبَاب لدورٍ مقدسة، فوقها مقابض كريستالية مخروطية طويلة، قد مُلِئَت بالبخور الأزرق الثمين، واللِّبان العُماني العربي، وصُفَّ بين البنورين طقمٌ من كولونيا "روح الروح"، وطقم آخر من كولونيا "خمس خمسات" و"أبو طير" و"ليالي باريس"، و"ريفدور".

تناولت هذه المترفة فرشاة شعر، وراحت تسرّح شعرها للوراء من منابت مقدمة الرأس حتى أسفل ظهرها، تجري الفرشاة بين خصلاتها بانسيابِيَّة، وانسجام لا تشابُكَ، ولا تعارك مع خصلة واحدة.

لمحتني في المرآة أثناء تمشيطها لشعرها والتفت إليَّ فَزِعَةً.

-من أنت؟

-أنا وطفاء الخيَّاطة والرّبعيّة.

- من دخلتس هنا؟!

-الوالدة.

عادت تلتفت للمرآة، وأخذت تكمل تسريح شعرها الغزير، ثم قالت هذه ربيبتي منذُ طفولتي.

ملأت فمها بكلام همَّت بقوله؛ لكن أوقفها ذلك الصوت الخَفِيّ البعيد الذي توهّمت سماعه عند دخولي للقصر، هذه المرة تأكدت أنِّي سمعته أنا وهي معًا، عندما لاح بصرها في الأرجاء، وتغيَّرت ملامح جمالها الساكنة، وضعت رأسها فوق الطاولة ودخلت نوبة بكاء حارقة، كان الصوت يأتي عابرًا فتحات التهوية، كانت ترفة تعرف مصدر الصوت، ولمن هذا الصوت، وهذا سبب حرقتها وبكائها.

أتت ربيبتها مسرعة من باب في الغرفة يأخذ لغرفة أخرى بداخلها، طبطبت على العروس، وأمسكت بيدها، وأخذتها بعيدًا، وأغلقت الباب.

تركوني مرة أخرى في غرفة نومها وحيدة، أخذت أقلب نظري، وأفكّر في أمر الصوت، مَنْ يصرخ بهذا الألم؟ ولِمَ يصرخ صراخًا عابرًا للمجهول؟! وقعت عيني، وأنا أتساءل على طرف صورة بين صفحات كتاب بدا لي من غلافة الأبيض، وصورة الفتاة عليه أنه رواية عنوانها زينب، دفعني الفضول إلى أن أدقّق النظرة بطرف الصورة التي تظهر منها يدٌ لرجل أنيق، ومهنْدَم بعناية شديدة، ثوب نظيف وناصع البياض، خاتم فضي بحجر زمرّد أخضرَ، وساعة معصم فِضِّيَّة، يمسك بمسباح كهرمانيٍّ أخضرَ.

تناولت الكتاب، وفتحته وأنا أتحرَّز من دخولهم عليّ فجأة، بدا كما هو ظاهر صورة لرجل في منتصف العشرينيات من عمره، حنطيّ البشرة، نحيف العود، يضع على أنفه نظّارة أخفت وراءها نصف وجهه النحيل، أمرد لا شعر فيه إلَّا من ظلال شعيرات خِفَافٍ فوق شفتيه، عيناه ناعسةٌ كأنها تغازل النوم، تبدو عليه سمات برود الأعصاب والحماقة والبلاهة، يلبس شماغًا لونه أحمرُ فاقعٌ مائلٌ للبرتقاليّ.

دُسّتِ الصورة بين صفحتين قد خُطِّطَ ما بين سطورها، وتحت كلمات كأنما تعني شيئًا للقارئ:

(تمرُّ علينا ساعات وقلبنا ملك غيرنا، ولكن لثالث على أنفسنا من السلطان ما نوَدُّ لو أعطيناه كل حياتنا، فيحزننا الإحساس أنها ليست لنا، إن أيامنا على الأرض وما تُكِنُّه من سعادة، وألم وحزن وفرح انتقلت من حَوْزَةِ يدنا، وأصبحت في حيازة غيرنا – في تلك الساعات، ونحن ننظر لهذا الثالث. تعرونا قشعريرةٌ حين نحِسُّ

بالعجز دون كل شيء نريد أن نهبه إيَّاه) دُوِّنتْ على هامش الصفحة ملاحظة مكتوبة بخط صغير، أعدك بأننا سنكون ثلاثتنا معًا فوق هذه الأرض أو تحتها ٦/٦

نظرت للصورة، ثم قلَّبتها، إذ كُتِبَ على ظهرها: (حبيبك الأبَدِيّ، وزوجك المستقبلي.. بسام ٣/٣)، صفنت باسم الشاب، وبملامحه، وبالكتابات على هذا الكتاب، أخذت أفتش بصفحات الكتاب عن كلمات كتبت على هامشه؛ لتضعني في مضمون هذه القصة، أوقفني إهداء كُتب خلف الغلاف: (ترفتي المترفة.. هذا أول إهداء لكِ قبل أن تصبحي زوجتي، أعدك أن أهديك مكتبة كتب كاملة تنتقيها بنفسك في بيتنا الصغير.. مُحِبُّك المخلص بسام ١/٣).

تساءلت ما تاريخ اليوم، حاولت أن أعود بالذاكرة إلى آخر مرة سمعت بها التاريخ لأتمكن من فهم هذه الرسائل المُؤَرَّخة، نعم كان صباحًا عبر الراديو في فقرة استهلال البرامج اليومية، اليوم هو الخميس الموافق ٦/١٦ تعقَّد عليَّ الأمر، وكَثُرَت الأسئلة برأسي، إن كانت ستتزوج اليوم حبيبها الذي يراسلها هذا، فلماذا هي شاحبة وباردة؟ وإن لم يكن هو، فمَنْ يكون العريس؟ ثمَّ من هم الثلاثة الذين سيكونون معًا أحياءً، أو أمواتًا، ولِمَنِ الصَّوْت الخَفِيّ الذي أخافني، وأبكاها؟ !

لـم أجـدْ لتسـاؤلاتي إجابـة واحـدة كاملـة، ولا ناقصـة، أنـا لا أعـرف عـن حياتهـا إلَّا مـا أخبرتنـي بـه قبـل قليـل، أمـرٌ يُتْمهـا، وربيبتهـا التـي تدَّعـي أنهـا والدتهـا، نعـم هـي ربيبتهـا لا بُـدَّ أنهـا تعـرف الأمـر كلـه، كيـف سـأفهم منهـا تفسيرَمـا يحـدث، ومـا حـدث، وهـي شـديدة التحَفُّـظ وعاليـة التكلف.

دسسـت الصـورة بيـن صفحاتهـا، وأغلقـت عليهـا كتابهـا، وأعدته مكانه الذي أخذته منه، صورة الشاب، اسمه وصفته، عبارات كتبت، وعبـارات حُـددت، تواريـخ ومواعيـد، صـوت غريـب، وبكاء ترفة عليه، اختلطت عليّ الأمور، هل أدخلت نفسـي في شـأن لا يخصني؟ أو أنَّ تحدِّيًا عظيمًا أعَدَّتْهُ لِيَ الحياة، وألقتني فيه شوع، طردت الهواجس والوساوس من رأسي، وأقنعت نفسي بفكرة أنِّي أتيت هنا لغرض معلوم في أيام معلومات، سـأتَّخذ بعدهـا قسـمتي، وأمضـي لشـأني، وأتركهمً لشأنهمً.

أثنـاء تمَلُّصـي مـن التفكير، والتحليل. دخلت عليّ الفتاة الشـابة الشـغوف، لـم أتعـرف عليهـا فـي المـرة الأولى، ولم أسـألها عن اسـمها، هذه المرة دعتني لتأخذني للغرفة التي سأقيم فيها بهذا القصر حتى تنتهي مهمتي.

خرجنـا مـن مَمَـرّ غرفـة ترفـة المترفـة، ودخلنـا مَمَـرًّا آخـرَ بـه عِدَّةُ غرفٍ أُعِدَّتْ للخَدَم، أثناء مشينا عرَّفتْ رابعةُ بنفسـها، وعرَّفتها بنفسـي. سـألتني إن كنـت أريـد أن أقيـم بغرفـة مسـتقلّة أو أن أقيـم معها لنَتَأنس، فشـريكتها فـي الغرفـة غـادرت القصـر لخُلُقٍ لـم تقبَلْـه منهـا السـيدة رابحـة، كانـت رابعـة تمشـي بخِفَّـةٍ وكأنهـا تطيـر، تشـبك يداهـا

ببعضها، وهي تتحدث كأنها طفلة تحكي عن أحلامها، تبتسم وتضحك وتتكلم في آن، تنظر هنا وتنظر هناك تشرد وتعود لوعيها في ثَوَانٍ، تقول كلّ شيء يخطر على بالها، أكانت له علاقة بما تتحدث عنه أو لم يكن، تدخل معها في متاهة كلاميَّة لا خارطةَ لها.

توقَّفنا عند غرفتَيْنِ متجاورتَيْن. في كلِّ غرفة سريران متقابلان، وطاولات جانبية عليها مصابيحُ وخزائن للملابس، بداخل كلّ غرفة حمَّامٌ خاصٌّ بها، دخلت رابعة غرفتها ودعتني للدخول، وضعت حقيبتي على الأرض، وجلست على السرير المقابل للباب، أنزلت عباءتي من فوق رأسي، تنفّسْتُ وتلفَّتُّ حولي أتعرف على المكان وأستأنسه، جلست رابعة قُبالتي على سريرها، نظرت خارجًا إلى غرفة تقابل غرفة رابعة قد تَرَادَفَ باباها، وظهر منها سريرٌ كبيرٌ مزدوج، سألتها لِمَنْ هذه الغرفة. وقالت إنها للسيدة رابحة ربيبة السيدة ترفة.

استرسلت رابعة بقصة حياة السيدة رابحة، وتفاصيل أخرى دون سؤالٍ منِّي، أو استفسار، قالت: (رعت السيدة رابحة السيدة ترفة بعد وفاة والدتها في "سنة الهدام" وهي طفلة، ما لا يعرفه الجميع أن السيدة رابحة من نساء آل مشباش قريبة بالدم لوالد السيدة ترفة "الشيخ بطي".

ثم خفضت رابعة صوتها، ووضعت يدها حجابًا جانبيًّا عند فمها ونظرت هنا وهناك ثم قالت بوَشْوَشَة من بعيد، وهي تمُطُّ فَمَهَا، وتُرْخِيهِ: السيدة رابحة ما زالت بِكْرًا، لم تتزوج في حياتي مرة واحدة

ولم تنجب، فأبناء عمومتها عَضَلُوها عن الزواج بغيرهم، ولم يرغبوا بالزواج منها، تركوها معلّقةً لأسباب لم أستَطِع الوصول إليها منذُ حدَّثتني أمي التي أتت لاحقًا بعد السيدة رابحة؛ لتعمل طبَّاخة عند" الشيخ بطي"، كانت السيدة رابحة على قدر من الجمال وقدرٍ من العناد، وبعد وفاة أمها التي كانت تسكن معها لم يبقَ لها أحدٌ سوى أعمامها الذين أبت أن تكمل حياتها معهم، فاستغاثت بالشيخ بطي، وأغاثها.

عرض عليها "الشيخ بطي" عملًا وهو رعاية ابنته، أقنع الشيخ أعمامها بطفلته اليتيمة وبحاجتها الماسَّة للأمّ، وأن السيدة رابحة ستكون في بيته من أجل حاجة طفلته حتى لا يعيب الناس على أعمامها ترك ابنة أخيهم في بيت رجلٍ أعزبَ.

لم يكن الشيخ يستأمن الغُرب على ابنته البِكْرِيّة والوحيدة، فكان "الشيخ بطي" يصحب السيدة ترفة معه خارج المدينة لمضارب الأبل، وفي أسفاره بمتاجرته بالسيارات، حتى دخلت السيدة رابحة حياتهما، واستقرَّتِ الطفلة معها في بيتهما الخاص.

تزوج "الشيخ بطي" مرتين. في المرة الأولى بعد خمسة أعوام من وفاة زوجته الأولى أم السيدة ترفة؛ لكنه ما أحبَّ زوجاته كحبِّه لأم ترفة، وتزوَّج في المرة الثانية عندما بلغ الخمسين عامًا، أنجب من كلّ زوجةٍ خمسة أبناء كلّهم ذكور، وقد حافظ الأبناء العشرة على مكانة السيدة ترفة عند والدها من حيث لا يعلمون.

زوجة الشيخ الثانية لم ترغب بتربية ابنة زوجها؛ لأنها تكرهها، وتكره والدتها، وتغار منهما، "أم طحنون" من قبيلة تعادي آل مشباش... تزوّجها "الشيخ بطي" ليس رغبة بها؛ لكن من أجل أن يضمن الصلح بين القبيلتين، فهي تعرف هذا الأمر، ما دعاها إلى أن تكره الفتاة التي قسمت لها والدتها من جمالها قسمةً تساوي الكلّ، وقسم لها والدها من المحبة قسمة تساوي الضعف.

أما زوجته الثالثة، فكانت بعمر ترفة تقريبًا، أو تكبرها بعامين. حين تزوَّجها الشيخ قبل عشرة أعوام، أراد أن يجدّد شبابه بها، لكنها خسرت حين سعت كلّ مسعًى لتغلب مكانتها مكانة السيدة ترفة، وخاب مسعاها.

حين تقبل ترفة على والدها يتحوَّل لرجلٍ آخرَ، يُسَرُّ عند رؤيتها، ويقرّبها إليه، ويقبل رأسها، تهرب منه شياطين الرجل البدوي الحازم، يلين لها وتنفَكُّ عقدة حاجِبَيْه، ويهدأ صوتُهُ، ما يحدث لها لا يحدث لغيرها، وهذا كان يغيظ زوجاته، ويعطيهنَّ سببًا كافيًا لمعاداتها.

بسبب عداءات زوجاته لابنته المحبوبة بنى الشيخ هذا القصر لابنته، واتَّخذ في بيتها غرفةً نومه، ومجالس ضيافته، وربعة قهوته، واستقرّ هنا في البيت الذي تُديرهُ رابحة وكأنها سيدته، بعد ما كبر "الشيخ بطي" في السِّنِّ صَعُبَ عليه التنقُّل من فراشٍ إلى فراش، كما أن الناس نسوا أمر حرمة السيدة رابحة، أمر الشيخ زوجاته أن يَزُرْنَهُ في بيت ابنته من بيوتهن المجاورة كلٌّ حسب ليلتها.)

عندما أخذتِ النميمةُ منحًى أكثرَ حساسيةً، واشتعالًا قفزت رابعة من سريرها، وجلست بجانبي على السرير الذي أجلس عليه، وأكملت وهي تغالب صوتها المرتفع وكلامها السريع مرة ويغلبها مرات، حتى أشير لها بيدي أن تخفض، وتهدأ لأستطيع أنْ أفهم هذا التعقيد.

تظنُّ رابعةُ أنها تعرف أسرار القصر، وما لا تعرفه هذه المسكينة أن أسرار القصر أكبر من مداركها البسيطة و"الشيخ بطي" أكثرُ مكرًا، ودهاءً من فضول الخدم ونميمتهم.

أكملت نميمتها، بتصنُّعِ الذكاءِ، وثقةٍ وهميَّةٍ عاليةٍ، وعلمٍ محدود: (ما لا يعرفه الجميع أعرفه أنا، وأخفيه عنهم؛ لكني لنْ أخفيه عنك، أنتِ امرأةٌ وقورة، ويبدو أنك لا تتحدثين كثيرًا، ولن تخبري أحدًا بما سأقوله لك، إنّ السيدة ترفة في خصام كبير مع والدها، بعد ما أجبرها على الطلاق من حبيبها بسّام قبل أن يدخل بها، وقَبْلَ أن تنقضي عِدّةُ الطلاق أجبرها على الزواج من ابن عمرها "طراد" الذي سعى وراء العريس حتى أثبت لـ"لشيخ بطي" أن نسب بسّام أقلّ من نسب آل مشباش ولا يكافئهم! فأجبر "الشيخ بطي" بسَّامًا على طلاق حبيبته ترفة!)

عندما نطقت رابعة اسم بسّام تعثّر انتباهي بصورته المدسوسة بين صفحاتِ الكتاب، ما عدت أبصر أمامي سوى الكلمات والوعود المكتوبة، تلاشى صوت رابعة، وما عدت أسمع سوى بكاء ترفة، كاد يجري الكلام على لساني، وأفضح أمر الصورة لرابعة، وأن

أسألها وأصف لها بسّامًا لأتَثَبَّتَ وأتبَيّن؛ لكني عندما نظرت في عينها رأيتها تجثو فوق جثث أولياء نعمتها. تأكل من لحمهم، وتشرب من دمائهم بهَمَجِيَّة وجهل! تخبط اللحم بالكأس، وتلعق الدماء السائلة، وتتمسّح بها، رأيتها تنهَشُ اللحم، وتشمُّ رائحة الدم وتضحك بجنون!

أغلقت عيني في عينها، واستعذت بالله من الشيطان ثلاثًا، ونفثت في وجهها ثلاثًا أُخَرَ، كمش وجهها، ووضعت يديها عليه، ضربتها على كتفها، وطلبت منها أنْ تَكُفَّ نميمتها وتنهض من أمامي، في اللحظة الذي رفعت بها عيني للباب. إذْ بالسيدة رابحة تقف بالباب مكتَّفة اليدين، وتنظر إلينا بعينٍ جافّة قوية، ومسيطرة كأنما قضت كلّ عمرها وهي تحبس الدمع حتى تَحَجّرَ في حدقَيْها، وأكسبها حدّةً وهيبة.

عندما سمعتْ رابعة صوت رابحة من خلفها تأمرنا أن نتبعها؛ لتعطي كلّ واحدة منا عملًا تؤدِّيه، لطمت رابعة صدرها، وشهقت شهقةً كالذي يُغشى عليه من الموت، وكأن عزرائيل نظر في وجهها وهرب.

وجّهت السيدةُ رابحةُ رابعةَ للمطبخ تساعد الطبّاخين هناك في إعداد عشاء العرس، وأخذتني معها لغرفة السيدة ترفة.

دخلنا عليها قد وضعت مصففة الشعر إكليل الورد على رأس ترفة، والطرحة فوق شعرها المنساب على ظهرها كليلِ الشتاء الطويل.

وقفت بحزنٍ أمامها أتأمَّلها، كان وجهها مثل قمر السماء الحزين، وحيدٌ، وعلى أرضه سِرٌّ مدفونٌ بعيد، ليس للأنس يد يمدونها ويطولون، ولا حراس السماء يسمحون للْجَان أن ينفذوا.

لـم يكـن لوجـودي أيَّـةُ قيمـة عنـد هـذه الأميـرة الحزينـة التـي أحضرَ لها والدُها نساء المدينة لخدمتها. هذه تغسلها، وتلك تدلّكها، ومَنْ تزيِّنُها، ومَنْ تلبسها حُليّها وثيابها، أظن أن قبولهم بي ليس إلَّا من أجل التّبَاهي أمام الناس وزيادة العدد، أقف الآن مكتوفة اليَدَيْنِ شاهدةً على الزمن الذي قفز من فوقي، ولم أقفز معه. بقيت حيث بقيت، وسبقني حيث استبق.

عندما شارفت الشمس على المغيب، وانتهتِ الجموع العاملة مِنْ وضع كلّ شيء في مكانة الصحيح، خرجتُ لساحة البيت أستأنس بانتظاري قدومَ شوع علِّي أنسي بها ما يزاحم وحشتي في هذا المكان المختنق بغموضه، تراكم بداخلي كلُّ شيء، أُقْحِمْتُ بداخل فقاعة من التساؤلات، تشبَّع رأسي بالأصوات وعيني بالصور، ودماغي يلِحُّ عَلَيَّ أن يفهم، وأنا لا أملك من أمري قولًا ولا فعلًا.

حاولت أن أضع لكلِّ شيءٍ سببًا، أن أرتِّبَ الأحداثَ، وأمسحَ عنها فواصل الشكوك، لكن لماذا كانت تطفو على سطح التعليل، كان حضور" لماذا" في عقلي البسيط يضاهي حضور كلِّ البهرجة حولي، صوتها أقوى من طلقات النار من أسلحة المحتفلين في الشارع، سطوعها أوضح من الشموس المعلّقة على عقود العُرْس، لماذا القصر الجميل غير مريح؟ لماذا كلُّ هذا التكَتُّم على وجوه سكانه؟ لماذا أسمع صوتًا وأرى عَبَرَات؟ لماذا الفتاة تُطَلَّقُ من حبيبها وتُزَوَّجُ غريمَهَا قبل أن تَقْضِيَ عدَّتَهَا؟!

وقفت عند باب القصر الخارجيِّ المُشْرَع أمامي سيارةُ أجرةٍ صفراءُ، فتحت أبوابها الخلفية، وترَجَّل منها أربعُ بناتٍ أعرف أعوادهنّ النحيلة، وأذرعهنّ الطويلة، وكركرتهنّ العالية، وحقائبهنّ ذات الأقفال الحديدية والمقابض الجلدية، عن جنبَي الحقيبة جلدٌ بنِّيٌّ فاتحٌ، وعلى ظهرها قماش كروهات أحمر، كان ينقص البنات "مارية". لا أخطئُهَا، ولو رأيتها عن بُعْد ثلاث ليالٍ.

فُتِحَ البابُ الأماميّ، وحلت على الأرض قدم تلبس حذاء مكشوفًا عن أمامه ومن خلفه وله كعبٌ عالٍ نحيفٍ وسيور بسيطة تضم أصابع القدم بالحذاء، وتظهر الحنَّاء الأحمر على القدم، والأظافر المصبوغة بطلاءٍ أحمرَ لامع، لا أعرف كيف لصاحبتي أن تجمع بين أصالة زينتها وحداثتها، لها فلسفتها الخاصة تضع الحِنّاء وطلاء الأظافر معًا، وتقول: على اليد التي تضرب الطار أن تكون مميزة، وتضع الديرم، والحمرة في آن؛ لأنَّ الديرم يعطي الحمرة لونًا أقوى وثباتًا أعلى، تضع الكحل تحت عينها، وتسحبه لخارج العين، وتقول في هذا إنه يجعلها أكبر وأجمل، وكلّ العيون تغازل عينيها المختلفتين عن بقيّة النساء.

نزلت من السيارة جميلة الفرقة ورئيستها، متوشّحَةً عباءتها الحريرية الخفيفة، تظهر من تحتها لمعةُ ثوبها الفِضِّيّ المزرى، لفّت رأسها المفروق من المنتصف عدة مرات حتى استقام بشيلة منيخل مشكوكة بفصوص لامعة، ووضعت ما تبقَّى على وجهها لتواري حسنها.

نزلت تسحب ثوبها، وتركز صدرها، سفطت عباءتها تحت ذراعها، ثم وقفت البنات خلفها على صفٍّ واحد، وهي تتقدمهن يغمرها جلال الأناقة والجمال، مشت مشيتها المتكسرة من فرط الدّلال والغَنَج الذي تحشو نفسها به، دخلت القصر؛ لكن قلبها وعينيها بَقَوْا خارجًا، أقبلت عليّ وهي تنفض يدها من هَوْل ما بها، وتلطم على خدّها وصدرها علَّ نار قلبها تنطفئ!

-يووه يا وطفاء. الله لا يوريتس ما رأت عيوني!

كنت أعرف جَيِّدًا ما جعلها تتوقَّدُ، وتندب سنوات عمرها، نزلت عدة درجات وسألتها عمّا رأت عيناها.

-هي شوارب مشخوطة يوقف عليها النسر، هي تستوف وزنود مبرمة يمشي عليها التيس، هو طول هو جمال. وش أقول وش أخلّي!

تفتح السّبَّابَةَ والإبهام، وتضعها من فوق الحاجب إلى نصف الخَدّ، وتقول:

- العيون هه، ثم تضع كفَّها طولِيًّا في منتصف وجهها وتقول:

- الخشم هه.

أمسكت بيدي واتّكأتْ عَلَيّ وقالت:

- ودِيني ودِيني عند البنات ما عاد أقوى أمشي قلبي صويب يا وطفاء قلبي صويب!

اتَّخذت البنات في الربعة متَّكَأً، أعدَّه لهنّ الصبي هبوب بالقرب من شَبَّة النار من أجل تسخن "الدُّفّ"، جلست شوع متوسطة. البنات عن يمينها اثنتان وعن شمالها اثنتان، وجلست أنا خلفها، ونفسي تأمرني أن أخفف عنها، وأبوح لصديقتي علّها تهدأ.

-شوع.

-هاها.. شفتي بس العز اللي جبتس له، شفتي الجخ عندهم والجمال فيهم، الله عطاهم من كلش اجواد يا وطفاء. اجواد!

كان انتباهها كله في القادم والذاهب من المعازيم والخُدّام، تمدح هذه، وتعيب على تلك.

- شوع اسمعيني وش بقولتس.

- هاها قولي.

- انا ما ارتحت لهم!

التفتت إليّ متخصّرَةً يديها، ونظرت بعيني نظرة غاضبة وقوية

- خابرتس يا صديقتي تحسدين عمرتس وجه فقر، وخّري اهوه!

تركتني لحيرتي، وطلبت من إحدى البنات أن تناولها الدُّفّ، تناولته ومسحت عليه مسحات دائرية. توزع حرارته براحة كفها، وضربت عليه عدة ضربات لتتأكد من جودة صوته، ثم أخرجت من حقيبة آلاتها الموسيقية كما تسمّيها جهازًا صغيرًا يوصَّل بالكهرباء، ما أن تتكلّم من خلاله حتى ينشر صوتها في الهواء عبر مكبّرٍ للصوت، جلبه زويد لها من مصر. أذكر أنه قال لها ضاحكًا:

- شفت ذا في السوق وذكرتس، والله إن صوتس بيلعلع في عروس الإنس والجن.

أظن أنه لم يسبق شوعَ أحدٌ على هذا الجهاز، فأول ما تفتح شوع الجهاز تكبّر وتهلّل، ثم تصيح بالحاضرات:

- يا حريم إمسكوا بزرانكم!

تصاب النساء بالفزع، والأطفال بالبكاء، وما أن تصدح شوع بالغناء، وتزول عنهن رهبة الصوت المكبَّر حتى يلتفَّ حولها النساء يصفِّقن بأيديهن، والفتيات يرقصن ويلفحن بشعورهن الطويلة هنا وهناك.

تغني شوع بطريقتها الخاصة كفنانة مسارح متمرّسة. من يسمع أغنياتها التي تنتقيها لا يتخَيَّل أن هذه المرأة تجلس في حلقة بين أربع بنات يضربْنَ الدُّفَّ، وحولهن عشرات النساء المتمايلات، والبنات الصغيرات اللَّافحات، ومخلّفات الأطفال المترامية هنا وهناك علب عصائر، وأكياس بسكويت وكعك، وقشور "الفصفص" المتطايرة من أفواه النسوة الكبيرات اللَّاتي لا تكفّ أعينهنّ عن معاينة جسم هذه، ولا ألسنتهن عن السؤال لتربية تلك، فالأعراس بيئةُ عرض وطلب خصبة بين الأمهات والفتيات.

كان صوت عرضة الرجال، وأغانيهم وأصواتهم تغالب صوت شوع، تركت ساحة المنزل تعجّ بالحضور الوافدين على العرس، معازيم من الرياض والبوادي المجاورة لها، أُغلق الشارع من أوله إلى آخره بسيارات آل مشباش. وما بينهما أقيم عرس الرجال في منتصف الحارة وكأنهم يملكونها، طباخو قصورهم الثلاثة، وثلاثة طباخين آخرون يشرفون على العشاء.

قهوجي يُعِدُّ القهوة للرجال، وصبيانه الآخرون يُعِدّونَها للنساء، وصبيانٌ وصبيّاتٌ يصُبُّون القهوةَ ويحيُّونَ الضيوف، كانت رابعة لا تنْفَكُّ عن "هبوب" تعينه وتعاونه وتخاصمه، ويرضيها ويضحك لها، أمَّا آل مشباش" العائلةُ المقرَّبةُ" زوجات "الشيخ بطي" فكنَّ حاضرات كالضيوف البعيدين تمامًا، لبست زوجات الشيخ كلَّ ما يملكْنَ من الذهب، وأجمل ما اشترَيْنَ من القطع المطرَّزة، واتَّخذن لأنفسهن مكانًا قَصيًّا، وكأنّ أمر العرس لا يعنيهنَّ! كان الخدم هم أهل البيت. هم الذين يُعِدُّونَ، ويقدمون، ويأخذون ويضيِّفون!

حاولت أن آخذ طريقًا آخر للداخل، غير الطريق الرئيسي المخيف الذي ينقلك عبر الزمن للحياة الفطرية البرية، الطريق الآخر لدخول القصر كان من أبواب المطبخ الخارجية المُطلَّة على ساحة القصر والداخلية تضعك بالصالة مباشرةً عند الدرج اللَّوْلَبيّ.

وضعتُ يدي على أعمدة السُّلَّم، ونظرت للقَبْوِ المظلم تمامًا، وكأنه ليس من هذا البيت المشتعل كشمسٍ تتوقَّد في الليل والنهار، رفعت رأسي لأتَّخذ طريقي للأعلى حيث مكاني الطبيعي بجانب العروس، لكنَّ ثمَّة شعورًا يجرُّني للأسفل، صوت ينادي أن اقتربي،

خفت أن يراني أحد المارة، فالصالة خالية إلَّا من الخدم الذين يروحون ويجيئون، تغافلت خوفي والعيون، ونزلت أول درجتين، لكن توقفت وسألت نفسي عمَّا أبحث، ومن ألبِّي، ولأي شي أفتش، حاولت أن أقنع نفسي بأن تبتعد، وتترك أمرهم لهم، وأثناء مناجاة نفسي سمعت صوت رابحة تنزل من الطابق الثاني، وتتحدث إلى عدة نساء طاعنات من آل مشباش كنَّ في غرفة ترفة لمباركة ليلتها، ارتبكت وخفت من أن تراني أتسلَّل للأسفل، فآثرت أن أتسلَّلَ أكثرَ حتى أختفي عن الأنظار.

انتهى بِيَ السلّم في بداية دهليز مظلم طويل، وتأتي من آخره جلبة أصوات رجال وضوء خافت، استعنت علىً وحشته بالله. ومَشَيْتُهُ، كان خاليًا من كلِّ شيءٍ عدا مفكّات ومعدات ملقاة بمحاذاة الجدار، إطارات سيارات، ومراتب خلفية وأمامية كبيرة تمزَّع جلدها عنها ،وخرجت منها أحشاؤها: إسفنجها وقطنها، في نهاية الدهليز بابان متقابلان. غرفتان للخدَّام والسائقين، يتوسطهما بابٌ ثالثٌ له مقبض حديديٌّ طويل بعرض الباب عند ضغطه للأسفل يفتح الباب، وعند تركه يعود الباب للخلف ويقفل، كان الباب الأوسط مواربًا، ومصدر الجلبة والضوء، وقفت عند ظاهر الباب، وحاولت أن ألقي نظرة على باطنه، وجدت خلفه ساحة كبيرة مليئة بالسيَّارات الفاخرة مثل موقف للسيارات في مكان عام يرتاده أكبارية الناس، سقفه بعيد جِدًّا، كما لو أنه حفر تحت سطح الأرض خمسة أمتار، في أعلى السقف نوافذ تهوية جانبية يدخل منها الهواء والضوء الخفيف، ونجف أبيض طويل معلق بسلاسل معظمها مطفأ.

كان الصوت الجماعي لأغاني الرجال، وضربات أرجلهم على الأرض التي يرقصون عليها، وطلقات أسلحتهم تصبُّ بالمكان كما لو كان الداخل بالخارج، لكنّ صوتًا آخرَ يحدث بالقرب مني، كما لو كان حدائد تحتكُّ ببعضها وتصدر الصوت، خفت من الاقتراب. أرعبني الاكتشاف. شعرت أن هذا آخر خطّ أمان يمكنني الوقوف عنده، عدت أدراجي وتسلَّلتُ للأعلى بخِفّة، وهدوء كما تسلَّلتُ للأسفل.

كانت رابحة تأخذ نساء آل مشباش كوفود للسلام على العروس، رابحة التي تنظم الصفوف، ورابحة التي تختار النساء، رابحة تتصرف وكأنها السيدة الأم، تصرفات هذه المرأة تغيظني، لا يلوح بعينها طيفُ حنانٍ، ولا تلَوّن وجهَهَا ألوانُ حبٍّ، تبتسم بمقاس محدَّد لو توسَّعت ابتسامتها قليلًا تصدّع خدُّها وانشقَّ، وتتفوَّه بكلمات منتقيات مدروسات لا تزيد حرفًا ولا تنقص تشكيلًا، عند وصولي غرفة ترفة كان وفدٌ جديدٌ يهِمّ بالدخول دسَسْتُ نفسي بين النساء ودخلت، وقفت إلى جانب رابعة التي تمسك بدلّة القهوة، وتقف خلف الكنب الوردي النصف دائري تحيِّي نساء آل مشباش الجالسات حول ترفة وتضيفهن.

كان مجمل حديثهن يختصُّ بذكر "الشيخ طراد" الفارس الشجاع والتاجر الذكي، والمحبّ القديم، والشاعر العاشق، المقرّب من عمه "الشيخ بطي" وذراعه اليمنى وعصابة رأسه، تظهر النسوة لترفة غبطتهن، ومن ينظر في أعينهن يجد شرار الحسد يقدح

ويتطاير منها، كانت أم طراد تحكي للنساء أن طرادًا أحبَّ ترفة حبًّا جَمًّا، منذُ توفِّيَتْ أمها. ترك بيت أبيه، وسكن بيت عمه؛ كي لا تبقى ترفة وحيدة، ومن هنا تشكَّلتْ علاقته العميقة مع عمه وابنة عمه، ثم أضافت أم طراد، وهي تنكز ركبة ترفة:

- وأنا أدري إن ترفة تحبه. بس تستحي تقول.

- لاحظت أن ترفة تشد على أسنانها بقوة، وتنظر بحِدَّة، وتقبض بيدها على فستانها وتمسح على بطنها بيدها الأخرى، وكأنها مغتاظة من كلام أم طراد الذي يقهرها ويمزق قلبها.

همست رابعة بأذني وهي تدفع بضحكتها لداخل فمها:

- هذه امرأة كاذبة. كان حبًّا من طرفٍ واحد، طلبها للزواج مرات عديدة؛ لكنها أبت أن تتزوج من آل مشباش، ولم يتدخل والدها بقراراتها، كانت تريد زوجًا مختلفًا متعلمًا، ومتحضرًا مثلها ولا يكتحل، قالت لي ذات مرة إنها تكره الكحل بعيون الرجال؛ لكنَّ ثمّة أمرًا قلب المعادلة.

أكملت الوالدة بتباهٍ: (كنَّ، ولا يزَلْنَ صبايا آل مشباش في المدينة والبادية، يحلمن بنظرة من طراد الفارس الوسيم، ويحسدن ترفة على حبه لها، وهو يحسد نفسه على حبها له، ضحى ابني بعمره في سبيل حبه، كان من المفترض أن أرى أبناءه قبل عشرة أعوام لكنه بلغ الثلاثين، ولم يقبل أن يتزوج حتى تكمل ترفة دراستها، وتلتحق بالجامعة كما ترغب، وهذه هي كبرت أمام عينه وبرعايته وحبه.)

كانت رابعة تتذمّر من سماعها هذه القصة الكاذبة مع كلّ وفد يقدم لتهنئة العروس، تغير وجه ترفة حتى ظهر عليه الحنق، وتعكّرت معدتها، وأصيبت بالغثيان المفاجئ، وضعت يدها على فمها تقاوم إرادة معدتها المتكررة بالتقيؤ، لم تستطع المقاومة وسط نساء مشغولات بحديث يستفزُّ معدتها، نهضت ترفة نهضة أفزعت الثرثارات وأسكتتهن ويدها لم تفارق فمها، وراحت تركض للحمّام، ركضت وراءها علِّي أنفع بشيء وأساعدها.

وقفت أمام حوض المغسلة، ووضعت وجهها فيه، وأنزلت كلّ ما في بطنها الخاوي إلَّا من عصارة معدتها الصفراء، وقفت بجانبها، ووضعت يدي على جبينها، قالت لي بصوت مختنق:

-اقفلي باب الحمّام علينا. لا يدخل أحد!

كان في طلبها شيء من الغرابة؛ لكني حاولت تفهم حالتها لعلها لم ترغب بأن تتطفل عليها النسوة، وهي في وضع خاصّ وغير لائق، نفّذت ما أمرت وأمسكت يدها وأجلستها على طرف حوض الاستحمام الكبير، ثم أسندت رأسها إلى حوض المغسلة وسكتت برهة من الوقت جلست بجانبها، ومسحت على ظهرها، وصرت أطمئنها أنَّ ما جرى لها كان طبيعيًّا بفعل الجوع والتوتُّر والخوف، كانت تحبس العَبَرَات، وتدافع الشَّهْقات حتى انفجرت بالبكاء وقالت: أنا حامل!

ردَّدَتْها.. أنا حامل!

- تضرب يديْها على فَخِذَيْها، وتضرب بقدميْها على الأرض، تضغط بفكَّيْها على بعضهما، وتبكي كالمخنوق بحبال مشنقته.

- زوجي وأبو طفلي مقيَّد بالسلاسل، وملقًى على الأرض أسفل القَبْو مع الجرذان والصراصير وبين السيارات، وأنا هنا أتزوج زواجًا باطلًا، يجب أن يكون هذا الفستان من أجله.. أن يكون هذا العُرس من أجلنا، أن يكون هو هنا بجانبي من أجلي، وضعت رأسها في حِجْري، ودخلت في شهاق ونواح.

طرقت رابحة الباب، وأمرتني أن أفتح لها من أجل أن تتولَّى أمر ترفة، لكن ترفة تتمسك بثوبي كتائبٍ من العشق تعلَّق بأستار الكعبة يتوب كلّ يوم بعقله، ويذنب كلّ دقيقة بقلبه، تتمسّك بي، وتقعدني، وتطلب مني ألَّا أفعل، ثم قالت: رابحة لا تعرف شيئًا، لا يعرف بأمر حملي سوى والدي وطراد، أرجوك ساعديني وبسّام على الهرب من هنا لقد عذبوه وضربوه، وربما يقتلونه، وعذبوني ببُعده عني، خلِّصينا من هنا، وسأعطيك ما تتمنِّين وما تطلبين.

فهمت من اعترافها لي بحملها مَنْ هم الثلاثة الذين ستدفع عمرها من أجل أن يَبْقَوْا معًا أحياءً أو أمواتًا، عرفت مصدر الصوت المخيف من أين ولمن، ولِمَ السردابُ مظلمٌ وموحشٌ، تخيَّلت وجه أبيها العابس عند باب القصر، لم أكن أعرف كيف أقول لها لا لا يا ابنتي إن هذا أمرٌ فاضحٌ ومشينٌ، ويجب أن تقبلي ما اختاره والدك لك؛ لأنه أعلم منك رغم ما اقترفه في حقك وحق زوجك وطفلك، أن أظهر لها بعباءة الناصح الجليل الذي يحثُّ الموعظة حثًّا في عيون الناس، وأفواههم، وآذانهم حتى تصيبهم الفضيلة بالعمى والخرس، ويصمُّ سمعهم عن صوت قلوبهم، ويمدُّهم في ضلالهم يعمهون.

لكن كلمة "لا" توقفت كمقصٍّ فاتح ذراعيه في منتصف حلقي، غصصت بصوتي وتلعثمت بكلماتي، وقعت في مأزق الواجب والحق: هل أرتكب الواجب، وأستبيح حرمة الحق؟ أم أنصر الحق، وأضرب الواجب عرض الحائط حتى وإن ضرب بي عرض جهنم، كيف أقول لها نعم، وأوفقها في أمر أكبر من طاقتي وحيلتي، وأنا التي لا يجرؤ ظلها أن يظهر من خلف حائط خوفها، وضعفها.

لماذا التي تجلس هنا ليست شوعَ، فهي تحسن القول والفعل، لماذا لستُ رابحة التي باستطاعتها أن تثقب ثقبًا في جدار المستحيل الذي يقف عائقًا في حياة هذه الحبيسة؟ لماذا تثق بي أنا وتستنجد؟ لا نفعًا، لم يضع القدر في يدي مفاتيح قرارها وهو الذي كسر في يدي مقبض قراري، هل تتآمر عليها الحياة بزجِّي بطريقها الشائك؟ وأنا التي جرَّتني النواصب فوق الاشواك، انغرست بي حتى تكسَّرتْ تحت جلدي، واتَّصلت بالعروق.

ما كنت أملك لها إلَّا أن أعلِّقَها بالله، فهذا طريقي ومسلكي، وما خاب من سلك طريقًا يضيء بنور الله.

- توكّلي على الله، والله يفرجها يا بنتي.

واصلت رابحة الضرب على الباب، وهي تخبرنا أن "الشيخ بطي" وإخوة ترفة العشرة سيحضرون الآن ليزفوا عروسهم لزوجها كما هو العُرف عند آل مشباش، رددت الخبر على رابحة بأننا قادمتان.

أخذت مناشف صغيرة رُصَّت في سلَّة بجانب عطورات، وكريمات وأشكال مختلفة من صابون الجسم المعطَّر فوق خزانة صغيرة بجانب المغسلة، مسحت بها خطوط الحزن السوداء التي رسمت فوق خَدَّيْها المَرْمَرِيَّيْنِ من جرَّاء بعثرة الدمع لكحلِ عينَيْهَا، حاولت أن أهدِّئَ ثورة غضبها بالإذعان للاستسلام؛ لكنها كانت في المكان وليست فيه، لا تسمعني، ولا تنظر إليّ كمن شعر بالخذلان، والتخَلِّي، فحمل ما تبقَّى من عزَّته، وآماله ورحل، سافرت بفكرها، وقلبها للمقيَّد بالسلاسل أسفل المنزل يبحثان عن سبيلٍ للهرب.

لعلِّي إن استطعت أن أقنعها بأن في الأمر ألطافًا خفية، نسيت وعاشت بقية عمرها تلتمس اللطف الخفيّ. إن وجدت في حياتها مذاقًا حلوًا ستقول هذا اللطف الخفي وإن لم تجد ستتذوق المُرَّ، وتعتاد حتى تجدَ اللطفَ بنهايةٍ أو بأخرى.

أنزلت يدي من على خدها، ووقفت أمامي.. نظرت في داخل عيني بحزم وكأنها كتبت سطر قرارها، ومسحت ما تحته، وما فوقه وقالت:

- بتساعديني أتخلص من هالشياطين.

توجّهت لباب الحمّام.. خرجت، وتخطَّت رابحة والنساء اللَّاتي معها، نزلت من السلم بخطًى موزونة كأميرة تتوّج على عرش، وليست الفتاة الجميلة مسلوبة حق الاختيار، إلى أن وصلت آخر درجات السلم. تناول "الشيخ بطي" يدها، ثم وضع ساعدها تحت ذراعه. مشى بها، ومشى من خلفهما عشرة إخوة لها بالصُّلْب دون الرَّحِمِ، أعطتني رابعة مبخرة تعجّ بالطيب المتصاعد للفضاء

القريب، كما كان في يدها ويد رابحة مثل مبخرتي المشغولة بالذهب، تبعناهم بالمباخر حتى توقفنا في الخارج أمام ساحة المنزل وإذا بشوع والبنات قد اصطففن: اثنتان على اليمين، واثنتان على اليسار بأيديهنّ دفوفُهُنّ وشوع تقف بينهنّ تغني:

- (من باس العريس يا من باسها، من سطر اللولو على راسها، وطرَّاد يا زين الشباب بيده قلم يكتب كتاب، يركب الخيل ويسرج الفرس ويدخل على ترفة بيوم العرس)

ما أن نطقت شوع اسم ترفة في أغنية الزفاف حتى سحب إخوتها أسلحتهم، ووجّهوا أفواهها للسماء، ثوروا هنا وهناك. ضجوا بنيرانهم هدوء السماء، كان بإمكاني أن أشعر بالطلقات التي تخطئ هدفها البعيد الفارغ، وتصيب مجازيًّا قلب ترفة، وكان بإمكاني أن أشعر بذلك النحيل الضعيف المسجَّى على أرض باردة في الظلمات، والأفراح تقام فوق قبة رأسه، وكرامته، وحقه.

بعدما أفرغوا عدة أمشاط في كبد السماء، زاحمت أصوات طلقاتهم أصوات أخرى قادمة من الشارع، حيث يقام عرس الرجال، كانت أصوات طلقات نارية، وحوافر خيل وأبواق وأضواء سيارات، تقافزت نساء آل مشباش نحو بوابات القصر بالتهاليل والزغاريد، ودخل من البوابة خمسة فرسان. يمسك كلّ واحدٍ منهم بيدٍ رسن الخيل وبالأخرى بندقية موجَّهه للأعلى، ويتقدمهم سادسٌ على رأسه شطفة فيصل، وغترة بيضاء متلَثِّم بها من أسفل الذقن، وفوق كتفيه مشلحٌ أسودُ خفيفٌ، رافعًا يده اليمنى كما لو أنه يحيِّي الجموع، كانت الفروسية، والهيبة، والجمال، والثقة، والغرور تتجسّد في رجلٍ اسمه طراد يمتطي فرسًا جميلة.

وقفت شوع أمام الفرسان، وأمام الإخوان وغنَّت لهم:

(كل آل مشباش خيّالة.. عليهم رزة الراية.. كل آل مشباش كلهم .. لا فرق الله شملهم.. إخوان ترفة يا صقور.. حكمة ودراية بالأمور.. كلهم رجال مخلصين.. والمدح فيهم ما يبور).

ذهلت من أداء شوع غير التقليدي. متى تعلمت أن تمسك برسن الخيل، وترقص معها في الوقت الذي كان به شباب آل مشباش يرشُّونها بالجنيهات الذهبية السعودية، نزلت إحدى بنات الفرقة للأرض، وأخذت تجمع الجنيهات في بطن الدّفّ، أخرج "الشيخ بطي" من جيب ثوبه عدة سبائك ذهبية، وراح يوزّعها على مَنْ تقدّم لتهنئته من كبار المدعُوِّين من عمومة ترفة وأخوالها، طاف "هبوب" ومعه صبيٌّ آخرُ بأكياس مخمَليّة مليئة بالجنيهات، يضعون جنيهًا واحدًا في يد كلّ حاضر. كبيرًا كان أم صغيرًا.

من فوق فرسه أشار" طراد" بيده نحو شوع أن توقف غناءها، توقفت شوع، ورجعت للصفوف، وسكتت جموع الحاضرين، أنزل الرجال بنادقهم، وصهلت فرس "طراد"، ثم جمحت من الأرض للسماء تستعرض جمالها ومهارة خيّالها، لم تَرَعيني في الخيول أجمل من هذه الفرس، كانت كالغزال في شدَّة متنها، وكالنعامة في قصر ساقيها، وكالثور في عرض جبهتها وسواد عينيها.

جالت الفرس عدة جولات قصيرة أمام الفرسان وأمام الإخوان، ثم صاح "طراد" يتلو شعرًا وهو ينظر في الجموع ..

مرحبا ما أشرقت على جبينها شمس
ومرحبا ما نبت النفل أسفل خطاها
الله طمس زين العذراء بعد زينها طمس
وضاعف زينها ما تحرَّك في حشاها
ترفة بقلبي من قبل لا يخلق اليوم وأمس
وها هي عروس الفارس اللّي تِلَوَّعْ في هواها

كان "طراد" متأثرًا بحبه لترفة جِدًّا، ويظهر تأثُّره على وجهه وانفعالاته، ترجَّل من فوق خيله تَرَجُّلًا لخيَّالٍ أتقن فنون الفروسية، ألقى بطرف مشلحه فوق كتفه، واقترب من ترفة، خطواته واثقة يمشي كالملك، اقترب ممسكًا برسن فرسه، كان ينظر إلى ترفة وكأنه ينظر إلى كوكب دُرِّيٍّ، لو أن للنظرات أصواتًا لسمعنا من نظراته تسبح وتنزيه المحبّ الغارق في بحار الشوق العميقة، كان بإمكانه أن يرى الجميع في الوقت الذي لا ترى عينه سوى ترفة.

أمسك بيد ترفة وقبَّلها، وعيناه معلقة في حسنها لا يطرق لهُ طرف، وضع الرسن في يدها وقال:

- هالفلوة هدية عرسك الأولى.

ثم أشار بيده، دخلت في ساحة البيت الكبيرة سيارة كاديلاك سوداء طويلة جِدًّا لها ثلاثة أبواب من الجانب الواحد، ناول ترفة مفاتيح الكاديلاك وقال:

- وهذه الهدية الثانية، وتمنيت لو إن الثالثة قصر تباركينه بموطئ قدمك؛ لكن عمي لا يقوى على فراقك.

ربت "الشيخ بطي" على كتفه، وبارك له اختياره، وقرّبه مكانه بجانب ترفة، وتنحّى هو جانبًا.

التقت عيني بعينيْ شوع بحديث بصريٍّ عبْر المسافات كما هي الحال حين نشترك أفكارًا، وخواطرَ في الإعجاب أو الاستغراب، ولا نملك إلَّا نظرة العين.

رفعت شوع جهازها الصوتي، وأومأت لبنات فرقتها أن يبدأن معها، وغنّت: (مبارك عليك ضربات الإيمان.. مبارك عليك فتشت غطاها)

انقسم الإخوة العشرة إلى خمسة لليمين، وخمسة للشمال، وأخذنا مكانًا جانبِيًّا أنا ورابعة ورابحة، واستدار العريسان، ودخلا القصر.

أعطيت رابعة المبخرة التي بيدي، وتبعناهما أنا ورابحة، حتى دخلنا غرفة ترفة قالت رابحة للشيخ طرَّاد:

-جهّزنا لك الغرفة الداخلية يا شيخ زي ما قال "الشيخ بطي".

-اتركونا لحالنا شوي.

قالت ترفة بفزع.

- لا، وطفاء تجلس معي!

خرجت رابحة وهي تجرُّ أذيال الحنق، كانت المرة الأولى التي أنظر بها لطرّاد من قرب، جبينه عالٍ، وحاجباه أسودان كثيفان مقرونان ببعضهما في نقطة منتصف الجبين، عيناه كعيني صقر واسعتين صافيتين غريقتين بالكحل، ونظرتهما محدَّدَة إلى ما يشتهي

النظر، مسلول الأنف كسلّة سيف هنديٍّ مستقيم النصل، حادّ الفكَّين. طويل الوجه والرقبة، تبرز في منتصف حلقه تفاحة آدم التي غصّ بقضمتها والدنا الأول، وكتبها الله ذريته من بعده حتى لا ينسوا ذنب أبيهم الذي أخرجهم من الجنة، ويتحدَّر شعره فوق كتفيه المرتفعتين للأعلى، وأطراف الشعر مترامية على صدره المشدود والبارز للأمام، له ابتسامة جميلة وخبيثة تمسك بأطرافها اللؤم والتكبُّر، يتصل شاربه الطويل المعكوف للأعلى من نهايتيه بشعر ذقنه الأطول نسبيًّا من لحيته المشَذَّبة.

بعد أن نظرت عيني الفقيرة لهذا الحسن اليوسفي لم أعد أرجو من الله سوى رضاه وحورعين جناته، دعوة الله في سِرّي أن يكافئ صبري وصديقتي على وحدتنا، ويهب لنا في جناته من ذكور العين ما تشتهي أنفسنا.

نظر طراد إليّ وقال:

- انتِ الربعية اجل؟

-إيه طال عمرك.

اقترب من ترفة، ووضع يده على بطنها وقال لي:

- في أمانتس روحين يا وطفاء.

أنزلت ترفة يده عنها، وقالت وهي تنظر بكل قوة في عينه:

- ما راح نقعد لك.

نزع مشلحه من فوق كتفيه بمسكة واحدة، وألقى به فوق سرير، وضحك في وجهها ضحكة سخرية، ثم ترك غرفة النوم لترفة، ودخل للغرفة الأخرى، ركضت ترفة للباب وقفلته بالمفتاح قفلتين متتاليتين.

جلست ترفة على سريرها، ونزعت من رأسها طوق الورد، والطرحة، وألقتهما على الأرض، ثم داست عليهما برجلها، كانت تبكي وتنادي ربها أن يهديها طريقًا، ويسوق لها منقذًا.

أخرجت لها من خزانة الملابس ثيابًا جديدة، ونظيفة لتبدّل بها فستانها الذي لم تعدْ تطيق ارتداءه، قلت لها أن استعيذي بالله من الشيطان، وتعالَيْ غيّري ثيابك، وتوضّئي وصليّ لله ركعتين. يفتح لك بها فرجًا، ويزيل همًّا، ويرفع بلاءً.

كانت ترفض فكرة أن يكون طراد زوجها، وتموت كل لحظة؛ خوفًا على زوجها من طراد قالت: (أنا لن أعيش مع رجل زواجي به باطلٌ، ولن يكون أبًا لطفلي كما يحلم، كل عمري أنظر له كأخي الكبير عوَّضتْني أخوَّتُهُ غيابَ أبي المنشغل بتجارته بعد وفاة أمي التي ترك رحيلها بي ندبةً لا تختفي.

كان والدي يأخذني وطراد معه في أسفاره، ويأمنني على طراد عندما يخرج للعمل، كان طراد مُحبًّا ودودًا يشغل جلَّ وقتي، ويسلّيني. لم يشعرني أبدًا بالفراغ. كان أخًا وصديقًا، علَّمني ركوب الخيل، والرماية، والسباحة أيضًا، حتى كبرنا، واعترف لي بحبه وطلبني للزواج ولم أقبل، وفي كل مرة يحاول بها أبي إقناعي أتعلَّلُ بدراستي، ورغبتي بإكمالها، كان والدي طويل البال عليّ. عكس طراد الذي كان يزداد جنونًا في كل عام يمر دون زواجنا، حتى كبرت المسألة في رأسه، وأخذها تحدّيًا لن يخسره، وكأنني رهان في أحد سباقات الخيل والرمي، والسباحة التي يتفوَّق في ممارستها، ومن

حقه هو فقط أن يكسبه، غروره بحسنه، وكبرياؤه بنسبه والمكانة العائلية، ثم التجارية التي أعطاها له والدي صقلت جنونه بنفسه أكثر ممَّا كان عليه.

كان وما زال طراد هزليًّا، متسرعًا، مندفعًا، هجوميًّا، لا يملأ عينه أحد، ولا يعترف بخطئه، ويظن أن الله شق له عمَّا في صدور الناس ليعرف نواياهم ويتحكّم بهم، لأنه أفضل منهم منطقًا، وأكثر ذكاء!

بعدما التحقت بالجامعة كان"هبوب" يأخذني لها كل صباح، وفي أحد الصباحات عندما خرجت بالسيارة لمحت رجلًا اندَسّ نصف جسده القصير النحيل داخل الصندوق الأماميّ للسيارة محاولًا إصلاحها على ما يبدو من غترته وعقاله اللَّذَيْنِ وضعهما بجانبه على الصندوق المفتوح.

وفي صباح اليوم التالي رأيت الرجل نفسه يحمل حقيبة أوراق جلدية ويركل السيارة، كاد أن يسقط على الأرض لولا أنه تدارك نفسه، ورفع نظارته التي سقطت إلى أرنبة أنفه، مشى بطريقه على قدميه بعيدًا عن سيارته المعطوبة، أضحكني تصرفه العفوي وسألت "هبوبَ" من يكون هذا الرجل؟ قال: إنه جارنا، قلت: هل تعرف عنه شيئًا؟ لا أظن أننا نعرف عائلته، قال: نعم هو ليس من هنا، إنه أستاذٌ جامعيٌّ قَدِمَ من إحدى قرى الرياض بغرض التدريس في الجامعة. لقد عرَّفنا عليه إمام المسجد قبل أسبوعين.

قلت لهبوب: يبدو أن سيارته لا تعمل. اسأله إن كان يرغب بالركوب معنا، فالجامعة بعيدة من هنا وطريقنا واحد، اقترب منه هبوب.. كان بسَّام يمشي مغاضبًا منشغلًا بالحديث إلى نفسه، لم ينتبه للسيارة التي تقترب منه، فتح هبوب نافذة السيارة، وسلّم عليه، نقز بسَّام، وخُضّ فكرُهُ وقلبه، وكأننا نزلنا عليه من كوكب آخرَ، كان رجلًا لطيفًا، سمْحَ الوجه، وعلى ملامحه براءة الأطفال، قال له هبوب: تفضل نوصلك بطريقنا للجامعة، رفض، وتعلَّلَ بأنه سيمشي لآخر الشارع، ثم يركب سيارة أجرة توصّله.

أقسم عليه هبوب أن يركب ثم قال: عمتي ترفة اللّي طلبت، وعيب عليك تردّها.

لم يكن بسام منتبهًا لوجودي في المقعد الخلفي حتى نبَّهَهُ هبوب، نظر إِلَيّ بطرف عينه ثم كسر نظرته مباشرةً، كان مختلفًا بلطفه عن الرجال الأجلاف من حولي، بل بالغ اللطف وشديد الخجل، جذبني إليه من أول نظرة مكسورة لم يستطع صلبها في عيني.

ركب بسَّام بالمقعد الأمامِيّ، وسرنا في طريقنا، فتح معه هبوب حديث تعارف، كان بسام مطأطِئَ الرأس، متكومًا بمقعده. يضع كلتا كفيه بين ركبتيه كطفل خجول تركه أبواه يواجه مجالس الكبار! كانت طبيعته الغضّة تشعرني بذاتي، فلم أستشعر أنوثتي يومًا بأشعار طراد الغزلية التي كنت فيها ليلى قصائده، ولا بمديح أبي الدائم لجمالي، ولا من أوراد رابحة وحجاباتها.

خجلُ بسام، بعثرةُ نظراته، تلعثُمُ كلماته، سرعةُ أنفاسه وحرارةُ مشاعره أشعرتني لأول مره أنيّ أنثى كاملة مؤثّرة على كيان

رجل، تملكتني رغبة الاقتراب منه، واكتشافه أكثر، لم أصادف في حياتي رجلًا قادرة على لخبطته نفسيًّا، وعقليًّا نظرة امرأة، كسر الحاجز البارد بيني وبين قلبي، أشعرني أنِّي طاغية الحضور، لقد صالحَ بسام بداخلي إناث الشياطين مع آلهة الحب والجمال.

قال هبوب لبسام: هذه عمتي ترفة ابنة "الشيخ بطي" تدرس عندكم في الجامعة، عندما عرفت أنك جارنا طلبت أنْ نوصّلَكَ بطريقنا، قلبها كبير، ويداها بيضاوان كأبيها.

كانت سوداء عينه تقترب خائفةً ومتردِّدَة إلى آخر نقطة من زاويتها، ثم تهرب بعيدًا خوفًا من أن أمسك بها تسترق النظر إليَّ.

سألته: ماذا يدرِّس في الجامعة؟ وأجاب: اللغة العربية، حكيت له عن مدى تعلُّقي وحبي للغتنا، كما أنيّ أحب قراءة الروايات والشعر والتاريخ، كان يبتسم لحديثي للحَدّ الذي يخجل من مبادلتي أطرافه، لا يتكلم حتى أسأله أنا، ولا يسأل حتى وإن صغت السؤال أنا وقدمته له.

أدبه ورزانته وحياؤه لم تفارق تفكيري طول ذلك النهار، كانت صفاته هذه تحرض جرأتي وجنوني ورغبتي، قبل بسام لم أكن أعرف أنِّي أمتلك هذا الجنون كله، حتى أزاح بسام ستائر السكينة عن جنوني، أتذكر أنِّي فور وصولي للجامعة ركضت إلى المكتبة، وبحثت عن الدليل الجامعي، ثم بحثت بين صفحات هيئة التدريس حتى عثرت على صورته، واسمه وتفاصيل أخرى بسيطة تخصُّه، نزعت الصفحة من الدليل وخبَّأتها بين كتبي، وظللت أنظر إليها خفية بين كل فينةٍ وأخرى.

وعلى مدى أسبوعين كنت أبحث عن اسمه في الجداول المعلَّقة على أبواب القاعات، وأحضر له المحاضرات الصوتية التي يلقيها على مسامع الطالبات، أهملت دراستي وتغيَّبْت عن الكثير من محاضراتي، جننت به، وافتعلت كلّ الطرق من أجل أن ألقاه صدفةً أخرى؛ لكن الصدف لا يصنعها البشر، الصدف من صنع القدر، وقدرنا شحيح أكرمنا مرة، وغلّ يده للأبد.

كنت أطلب من هبوب أن ينتظر أمام البوابة عندما نخرج بالسيارة من القصر لعلِّي ألمحه من بعيد ذاهبًا للجامعة، أيامٌ كثيرة لا أجد سيارته أمام بيته يكون قد غادر قبلنا، وأيام قليلة أنتظر أمام الباب متعللةً بدوار كاذب من الشمس لنقف نصف الساعة، ولم يغادر بيته.

حاولت أن أوقع هبوب بفخٍّ غير مباشر، وادفعه بسؤالي عن حال ذلك الجار الذي تعطلت سيارته، وهل أصلحها أو تخلَّص منها، قلت بتصنُّع اللَّا مبالاة إنَّ عليك أن تتبادل معه أرقام الهاتف علَّ الجار الوحيد يحتاج شيئًا، ويتواصل معك، حاولت أن يقول شيئاً يطعم أشواقي الجياع، لكن لا جدوى. لا خبرَ ولا وسيلةً للقاء.

بعد عدة دقائق صامتة لمعت في رأسي وسيلة كانت أمامي كل الوقت ولم أنتبه لها، طلبت من هبوب أن يعود للبيت، فقد ألغيت فكرة الذهاب للجامعة اليوم، عدت أركض بسرعة من السيارة لصالة القصر للسلَّم الطويل، ولغرفتي البعيدة، كانت رابحة تسأل هبوبَ عن سبب عودتنا قبل ذهابنا، قال: إن العمة ترفة مصابة بالدوار!

أغلقت الغرفة، وتناولت الهاتف، أخرجت من دفاتري ورقة الدليل الجامعي، اقشعرّ رأسي وانكمش جلدي، وحبس قلبي نبضاته وتضخم بالفرح والخوف، دار أصبعي بقرص الهاتف سبعَ دورات على سبعة أرقام وهو متجمّد لو أنه انثنى لانكسر، على مدى دقيقة ونصف يرنُّها الهاتف في أذني ومكتب بسام في الوقت نفسه، لم أستطع التنفس، شعرت أن الزمن كالفراش المبثوث، والمكان كالعهن المنفوش، وكل ما حولي أصبح مائعًا على نفسه متداخلًا ببعضه كالسَّراب البعيد بعينِ التائهِ الوحيد، رنين الهاتف كان مركز الكون الذي يتهاوى حولي شيئًا، فشيئًا مع انقضاء الدقيقة والنصف بلا إجابة، كدت أدخل في حدود خيبة التجربة الأولى لولا أن يدًا التقطت السماعة في الثواني الأخيرة.

تحدث بثقة: (مكتب الأستاذ بسَّام أهلًا بك) كانت صباح الخير مني كافية بأن تهدَّ ثقته وتنقل عدوى بعثرة كوني إلى كونه السابح في أمان الله، صمت طويلًا، ثم تردَّد بالرد وأخيرًا تلعثم بقول صباح النور.

- عرفتني.

-أظن ذلك.

-من أنا؟

- .....

- ألو!

- مُنقذتي.....

كنت أتكلم بفرح وجنون. بعفويَّة، وبلا تكلُّف، وكأني أعرفه منذُ زمن، أما هو، فكان يتكلَّم بتحرُّز، وبحركةٍ مفرطَةٍ كالمرتبك.

-بماذا أستطيع أن أخدمك آنسة ترفة؟

-أممم. ولا شيّ اتصلت اتطمّن على سيارتك، وإذا تحتاج شيّ من جيرانك.

صارت اتّصالاتي عليه عادة نهارية، أبحث في دراستي عمّا أسأله عنه، أن يعرب لي جملة، أو يفسِّر لي معنًى، أو يسأل أستاذًا آخرَ عن مادة أخرى، وكم حصَّلت بها، حتى توسَّع الأمر للقراءات النَّصِّيَّة، ثم الأشعار العامودية، تبادلنا الكتب، ثم تبادلنا الكتب والرسائل، ثم تبادلنا الكتب والرسائل والصور.

بعد لقائنا الأول كنت أسأل نفسي كل ليلة: كيف لي أن أنجذب إلى نقيضي في الطباع؟ وبعد كذا ليلة تساءلت: كيف لنقيضي أن يكون شبيهي في اهتماماتي وأفكاري؟ وبعد عدة محادثات أجريناها، وعدة رسائل كتبناها، وتبادلٍ للكتب، والأغنيات، والأفكار والنظريات، وجدت أن نقيض الإنسان هو نصفه الآخر.

لا يمكن لشخص يشبهك بكلِّ شيء، أو أن يناقضك بكلِّ شيءٍ أن يكملك، لا يمكن أن يتحقق التناغم في الضِّدِّيَّة الكاملة أو المعيَّة الكاملة، كانت جرأتي تلتقي بخجله، ومعرفته تلتقي بشغفي، وهدوؤه يلتقي بصخبي، وعاطفته تلتقي بعقلانيتي، وطموحي بدعمه وطمعي بعطائه، لا اصطدام ولا انقياد، بهذا كنا متناقِضَيْنِ ومتكامِلَيْنِ. فإن كان الاختلاف واضحًا يبقى الاتفاق جَلِيًّا بيننا.

وفي محادثة ما قال لي بسام إنه يفكر بأن يشتريَ بيتًا في حيِّنَا، ويستقرَّ في الرياض، قلت له بسرعة وبلا تفكير. نعم استقرّ

لنتزوج، سكت هو، وضحكت أنا، سألني بتردد وخوف حقًّا تريدين الزواج بي، كان لسان حاله يقول: لا تلعبي بي أيتها البدوية القوية المجنونة، وأنا القروي الضعيف المسكين، قلت له بكلّ حبٍّ ورغبة: أرغب بأن يكون بجانبي وأكون بجانبه في كل أمور حياتنا وتقلُّبات أهوائنا.

أخفيت عن بسام خوفي من رفض والدي الذي وإن كان لم يغصبني على الزواج بطراد إلّا أنه لا يرضى لي زوجًا غيره، دفعته ليتجرَّأ على خوفه هو الآخر، وخجله، وأن يتقدّم لخطبتي من والدي مع إمام المسجد والمؤذن، والمفاجأة كانت أن أبي لم يرفض! بل قَبِلَ ورحَّب، وشكر في بسامٍ وأخلاقه، بعكس طراد الذي كاد أن يقتله بسبب غيرته وغيظه.

تخاصم طراد مع والدي، وترك المنزل والعمل، وابتعد عدة أيام عنَّا، إلا أن أبي كان أكثر دهاء ممَّا كنت أتوقّع، أمر رجاله ألَّا يعودوا للبيت إلّا ومعهم طراد، بحثوا عنه ثلاثة أيام حتى وجدوا عتيق خيل طراد عند أحد مضاربنا البعيدة الخالية إلَّا من الإبل ورعاتها.

حضر طراد بين يَدَيْ والدي، وأفصح أبي لطراد عمَّا في نفسه، وعن سبب موافقته زواجنا، وأنها ليست إلَّا مكيدة، قال له كما نقلت عنهم رابعة إن موافقته مؤقتة حتى يجد أمرًا يُفشل هذا الزواج، فأبتعد أنا عن بسام بلا تدخُّل منه، وإن هذا الفتى- يعني بسامًا- عوده طري، ولا يشبههم بشيء، وإن الزواج سيصل منتهاه قبل أن يبدأ، وإن وإن وإن، حتى اقتنع طراد، ورضي، ثم أوكل والدي لطراد مهمة البحث عن شيء يبعدنا عن بعضنا.

عندما نقلت رابعة لي الأخبار صُعِقْتُ، واحترق دمي، كيف لوالدي الذي يناديني برأس مالي وصحتي، وأفراحي أن يدبِّرَ لي هذا كله، تأرَّق ليلي بحيلة أحتال عليهما قبل أن يمكرا بي، وفي الليلة التالية طلبت من بسام أن يزورني في البيت، فهو الآن بحكم الشرع زوجي، فلعلَّ وجوده عندي وفي غرفتي يبعد عنهما فكرة التخلُّص منه، وأن أضعهما أمام الأمر الواقع.

جاء بسامٌ في الوقت الذي اتَّفقنا عليه للقائنا الساعة الثانية بعد منتصف الليل، كان يسألني إن كانت زيارته مرحَّبًا بها من والدي في هذا الوقت قبل أن نقيم عرسًا يسمح له بدخول بيتنا، والخروج منه أمام الأشهاد، قلت له: إن العرس ليس إلَّا شكلًا احتفاليًّا لإعلان هذا الارتباط الذي تمّ من قبل، طمأنته، ودعوته لغرفتي. أذكر ليلتها أنه من فرط الخجل لم يرفع عينه في عيني، لكنهما كانا يتلصّصان النظر من خلف الزجاجتين المظلّلتين في التفاتاتي. كنت أتعمَّد الالتفات مرارًا حتى أشعر به ينظر إليّ بلا خجل، كانت رجولته تعني كيف أظهر بكلّ أنوثتي جنبًا إلى جنبه، وليست كما يعتقد الرجال، أن تطغى رجولتهم على أنوثة المرأة وتخفيها تحت جناح سطوتها.

ما خشيت ليلتها رابحة التي تنقل إلى أبي كلّ ما يحدث في القصر، ولم أخشَ رابعة التي تصبّ في آذان الخدم كلّ ما يحدث بين أفراد العائلة، لكن اللحظة التي لم أخشَ فيها أحدًا كانت تخيفني!

كنت أعلم أن بطريقي هذا لا يوجد موطِئُ خطوة للوراء، وأنَّ عَلَيّ تحمُّل تَبِعَات قراري الذي دُسْتُ به على عادات ما أنزل الله بها من سلطان، وتقاليدَ قيَّدَتْ أرواحَنَا وحريَّاتِنَا، ومؤامرات ذكورية باسم الوصاية والولاية.

كان على أحدنا أن يتشجَّع ويقتحم المحظور، أن يدمِّر مخططاتهم بخطوة لا رجعةَ فيها، وإلَّا سيفعلون بنا فعلتهم، ونحن في لذَّات الحبِّ غارقون، كنت أحاول ألَّا أفكّر بما قبل وبما بعد، شتّتُّ كلّ احتمالاتي، وأبقيت على اللحظة الراهنة، وكيف سأقضيها بكلِّ المتع المباحة.

تحدثنا بأسماء أبنائنا الخمسة! تحدثنا بتفاصيل بيتنا الصغير، تحدثنا بشجاراتنا الافتراضية وطريقة معالجتنا للأمور، إذا قلت إنها أجمل ليلة عشتها منذ ولدت، فلم أكذب، كان من الرائع أن تتحدثي لشخص يحلم بك بقدر حلمك به، أن يذَلِّلَ كبرياءه من أجل أن يسمعك تضحكين، أن يتخطى قربه المودة والرحمة، ويتسلق للحبّ والرغبة.

بات بسام ليلتها عندي في غرفتي، وعلى فراشي، نمنا على حلمنا العذري إلَّا أن الصباح أيقظنا على كابوس شديد السفور، لقد اقتحم علينا أبي الغرفة، ولم يتوقَّف إلَّا أمام السرير، شدَّني من يدي من جانب زوجي. من سريري بملابس نومي، أخذني للغرفة المجاورة قسرًا وإجبارًا، وأمر رجاله أن يأخذوا بسامًا من فراشنا، كانت آخر مرة أرى فيها بسام منذُ شهرين، أخفَوْهُ عني أسفل البيت، ولم يستطيعوا إخفاء صوته وصراخه عن مسمعي.

ما يستفزُّ جنوني، وحسرتي أن والدي كان يصرخ في وجه بسام ويقول: (منت كفو تأخذ بنات الحمايل) ويبصق بوجهه، لا أستطيع أن أنسي نظرات بسام إليّ بعدما حاول أن يرتدي نظارته، ولم يسعوه وقتًا. سقطت نظارته من يده، وسحقوها تحت أقدامهم، سحقوا قلبي كما سحقوا نظارته التي ما زالت مسحوقةً في درجي تسألني كلّ ليلة بأيِّ ذنب سُحقتْ!

تعلقت بثياب أبي أن أشرح له سوء الفهم، أصرخ فيه أنيّ أنا من دعوت بسامًا، وأنا من طلب أن يبيت عندي. فهو زوجي، ولم يتخطَّ حدوده معي، لم يكن والدي يريد أن يسمع حقيقة الأمر أو أن يصدقه، كان هو الآخر يصرخ في وجهي بأفكاره، وظنونه التي وجدت مكانًا مناسبًا لتضع بيوضها الشيطانية فيه، أشاع والدي بين الناس أنه طلقني من بسام لعدم تكافؤ النسب، ثم استعجل بزواجي من طراد حتى ينسب ابني إليه، إن الحجة التي أردتها أن تكون حجةً لي صارت حجةً عليّ، لقد أصبحت في زمرة من أخذهم الحب بالإثم.

مع لفظها لآخر حروف جملتها الأخيرة، وبردَّة فعل غير متوقَّعة ضربت بمفاتيح الكاديلاك التي كانت بيدها منذُ سلمها إيَّاها طراد ضربتها بباب الغرفة بكل ما أوتيت من حزن وقهر، ثم ضمت وجهها بيديها، ودخلت نوبة بكاء عميقة، تناولت أنا كأس ماء وبدأت أنفث فيها المعوذتين، وآية الكرسي حتى انتبهت أن نوبة البكاء تخفُّ شيئًا، فشيئًا اعتقدت أنها تعبت من البكاء، ودخلت في أولى مراحل النوم، لكنها نهضت للباب مسرعة، ووقعت على مفتاح الكاديلاك الملقى على الأرض. أخذته كأنما ألقي عليها من السماء، ضمته بيديها، ووضعته على صدرها، تغيَّر وجهها الجميل العابس من البكاء، ورسمت على شفتيها ابتسامة النجاة، تحت خرائط الكحل المالح التي زادتها جاذبية وبهاءً.

أمسكت بيدي، وأجلستني وجلست إلى جانبي وقالت: ستساعدينني على الهرب أنا وبسام بهذه السيارة، لكننا نحتاج إلى شخص نثق به ينام هنا بفراشي من أجل أن يطمئِنُّوا لوجودي، وأنتِ تساعدينني للخروج من القصر، وتأمين الطريق.

قلت لها بتردُّد، وحذر: إنِّي تسلَّلت قبل ساعات للقبو لا أحدَ من رجال "الشيخ بطي" في الدهليز. جميعهم يحتفلون بالعرس، ففرِحَتْ أيّما فرح، وقالت بحماس عالٍ لم أَرَهَا عليه منذُ وصلت القصر، اذهبي الآن التمسي لنا شخصًا يساعدنا على مهمتنا، وأنا سأجمع ما أحتاج من هنا.

كان العرس قد شارف على الانتهاء، فعندما نزلت للساحة وجدت النسوة يأخذن أماكنهن أمام صواني العشاء الكبيرة، مُدَّت السُّفَرُ على الأرض بطول ساحة القصر، كان بين كلّ صحن قعود، وصحن قعود آخر، صحنيّ خراف مفطحة، تحت اللحم فُرش الرز الأبيض المطبوخ بماء اللحم، وفوق الرز الأبيض خلطة أخرى من الرز المخلوط بالكركم والبهارات، والزبيب والمكسرات، والبصل المجفّف والزبدة، وحول اللحم فوق حشوة الرز صفت حلقات الليمون والطماطم والبصل، وعلى جنبات السُفرة وضعت صحون الفاكهة: برتقال وتفاح وموز.

لوَّحَتْ لي شوع من بعيد بطرفِ عباءتها أن تعالَيْ، واجلسي هنا إلى جانبي، قدمت لها وأنا مثقلةٌ بالسِّرِّ وكأني أكلت قعودًا كاملًا وحدي دون مشاركة أحد.

-ريحة هالعشاء يا وطفاء تشق الخشم شق، شوفي ما شاالله هالرز الأبيض يتفلفل تقل قطن، ولا هاللحم يتمزلق مثل الزبدة.

أخذت شوع تقطع لي من اللحم أطيبه وتضعه أمامي فوق الرز، ثم غمزت لي ونكزتني:

- هاه شلون المعاريس صَكُّوا بابهم؟

-شوع لازم تساعديني.

- لا والله يا اختي حلقي انبَحّ وانا أغنيّ لهم. هالاشواط بروح لبيتي انام.

-شوع، المسألة حياة أو موت!

أمسكت بطرف جيبها، ونفثت بصدرها:

- باسم الله علينا من الموت، تدرين انيّ ما حب طاريه لا عاد تطرينه قدامي.

-المهم إذا خلصتي عشاتس تعالي وراي بانتظرتس جوّا القصر.

كانت الساعات الأولى لتلك الليلة المشؤومة من أجمل الساعات التي قضتها شوع في حياتها، كانت بأبهى حُلَّة كما لو أن العمر عاد بها للوراء عشرين عامًا، غنَّت بأجمل صوت وشعور. أسعدت الطفلة والعجوز والفتاة وأدخلت السرور والفرح لقلوبهم بحركاتها ورقصاتها، ضحكت وأضحكت، أكلت أطيب الطعام، وأخذت عن عملها أحسن أجرة، كانت تنوي بها أن تشتري لأخيها جمعة سيارة يأخذنا عليها لمكة.

أعطت بنات فرقتها قسمتهنّ من الأجر، وناولتهن شنطة الآلات، وأوصتهنّ أن يخبرن أباها أو أخاها أنها لن تعود للبيت هذه الليلة وستكون برفقة وطفاء.

-هاه لحقتس لجوا القصر وشبتس اشغلتيني.

أخذتها بيدها، وصعدنا الدّرَجَ اللولبِيّ، لم تتكلم صديقتي. لم تسأل أو ترفض كانت تمشي بهدوء وسكينة على غير عادتها كمَنِ استسلم لقدر يجهله.

دخلنا غرفة ترفة التي كانت قد بدلت ملابسها، واغتسلت من وعثاء الحزن وكآبة البكاء، كان وجه ترفة يشعّ بالنور والفرح كوجه مُحرِمٍ تقبَّل الله سعيَهُ، وعفا عنه وغفر.

-هذي صديقتي شوع أثق فيها زي ما أثق بنفسي.

سلمت شوع على ترفة وتحفت بها وقالت:

- هاو يا وطفاء أنا أعرف العمه ترفة. وتعرفني تقابلنا قبل اليوم.

كانت شوع منبهرة من جمال غرفة ترفة، عيناها تلمعان. تتلفت هنا وهناك، تقف امام السرير وتذكر الله على حجمه وارتفاعه، وتلمس الكنب الوردي المخملي، وتذكر الله على نعومته، وتنظر إلى طاولة التسريحة وتذكر الله على امتلائها.

جلست ترفة إلى جانب شوع، وقالت لها: (يجب أن تسمعيني جَيِّدًا، وتنفذي كلامي حرفيًّا!)

سمعت شوع من ترفة قصتها باختصار شديد، وعلى عَجَلٍ لم يمنعها من البكاءِ من جديد عند كل مرة تنطق فيها اسم بسام،

لكن ردَّةَ فعل شوع كانت كبيرة وحماسية حين قالت: - أفديتس بروحي يابنتي، الله حسيبٍ رقيب على من ظلمكم، قومي خلصي أسر زوجتس ولا تخافين من أحد.

سمَّت شوع بالله ثم دخلت مخدع ترفة، كان خلف ابتسامتها معانٍ لا تُفَسَّرُ، كلمات لن تقال، هممت لوداعها؛ لكني قلت في سري: لِمَ الوداع، وأنا سألقاها غدًا؟ نظرت لها من الباب ونظرت إليّ، ثمَّة شيءٌ يصل لي منها ولا يصل! لم أكن أملك إلَّا أن أودِّعَها في أمان الله، وأذهب.

عند الساعة الواحدة والنصف نزلت مع ترفة من الطابق الثاني للدور الأول ومنه للقَبْو، كانت شعلة القصر قد انطفأت، ومضى الناس لبيوتهم منذُ الساعتين، ودخل الخدم غرفهم، وسكن الليل.

نزعنا أحذيتنا ومشينا على أنامل الأقدام، خوفًا من أن نصدر صوتًا يوقظ الخدم النائمين والحراس الغافين، عبرنا الدهليز بسلام، وكان التحدي بفتح الباب الكبير الذي ينقلنا لموقف السيارات حيث حُبِسَ بسام.

حبسنا أنفاسنا ودعونا الله تبتُّلًا ورحمة ألّا يمسك بنا أحدٌ بعدما قطعنا شوطًا متعبًا من الجرأة والتهور، ضغطنا على مقبض الباب سويًّا، وفتح بهدوء، كانت ترفة تضحك وتبكي في آنٍ من فرط فرحتها، وقوة خوفها، وكثرة حزنها.

دخلنا الموقف التي صفت به السيارات صفًّا صفًّا، انتقلت ترفة من موقف لموقف، وهي تركض وتنادي باسم بسام همسًا، وأخيرًا وجدناه مربوطًا بسلاسل بأحد الأعمدة، وقد جُلد وأهينت

كرامته، كانت تفوح منه رائحة البنزين الذي صُبَّ على رأسه، ولطِّخ وجهه وجسمه بزيت السيارات المتَّسخ من كثرة الاستخدام!

جثت ترفة على ركبتيها أمامه، ووضعت يديها على وجهه، نظرت إليه. بكت وقالت: (بسام زوجي وحبيبي. أنا آسفة لما فعلته بك، وما فعلوه، أرجوك سامحني ها أنا أتيت لخلاصك منهم، قم معي افتح عينيك وانظر إلَيَّ).

كان بسام بمثابة خرقة ربطت بالعامود، يداه مكتوفتان للوراء، ورجلاه ممدَّدَتان على الأرض ومقيَّدتان ببعضها، ورأسه يترنَّح فوق هذه الكتف وتلك، لكن ترفة لم تيأس من حاله، كانت مُصِرَّة على الهرب، خبَّأت في كمِّ ثوبها منقاشًا صغيرًا جِدًّا، أخرجته ونقشت به القفل حتى فتح وفكَّت وثاقه.

أذهلتني أميرة القصر، أنَّى لها أن تعرف حيل أبناء الحارة؟

سقط في حضنها، وضمَّته لصدرها ضمةَ أمٍّ تحتفل بعودة طفلها الضائع.

أخذت ترفة يدَ بسّام، ووضعتها على بطنها، وقالت: انظر ماذا خبَّأ لنا القدر، قمْ معي أرجوك من أجله نهرب بعيدًا عن القهر والكبت، ببطء فتح عينيه المُلَكّمتين، وابتسم ابتسامت سقطت منها أسنانه، وسال اللعاب والدم.

اتَّكَأ بسامٌ على كتفي، وعلى كتف ترفة، وكانت رجلاه تسحبان على الأسفلت، وتنزف دمًا، لم يستطع الوقوف عليهما؛ لأنهما مضروبتان ومقلّعة الأظفار! كانت سيارة ترفة موقوفة بطرف الموقف بجانب بوابة الشارع.

أجلسناه على مهل في المقعد الخلفي، وفتحنا البوابة للسيارة، احتضنتني ترفة حضنًا يملؤه الامتنان والشكر والدموع، وقالت: (لن أنسى معروفك هذا يا وطفاء، ثم ناولتني كيسًا مخمليًّا مليئًا بالذهب! وقالت: هذه ذكرى بسيطة مني لك ولشوع، أما جزاء معروفكما فلا يقَدَّرُ بثمن، ثم قالت خذيه، واذهبي لغرفتك في القصر، ونامي وكأنَّ شيئًا لم يحدث.)

أوصيتها خيرًا بنفسها، وابنها وزوجها، وودَّعْتُها وذهبت، وأثناء سَيْري في الدهليز سمعت صوت السيارة تشتغل، ثم صوت العجلات تفرُّ مسرعة.

عدت غرفتي، واستلقيت في فراشي فَرِحةً بنصري المظلوم على الظالم، كان أجمل شيء فعلته في حياتي، شعرت بقيمة رغبة الإنسان، وإصراره على أن يكون بجانب من أحبّ.

نمت مبتسمةً وأنا أستشعر سعادتي، وأحلم: ماذا سنصنع في غدنا أنا وشوع حين نغادر هذا القصر في ساعات الصباح الأولى، لكني صَحَوْتُ مرتعبةً من أصوات الصراخ والبكاء، فتحت عيني على سرير رابعة المبعثر، وكأنها صَحَتْ على فاجعةٍ لم تسعها أن تعيد ترتيب فراشها، نهضت أنا الأخرى ألتمس مصدر الصوت، وإذا الصوت قادمًا من غرفة ترفة حيث تنام شوع.

باب الغرفة مُشْرَعٌ، والخدم متزاحمون أمام الباب، تخطَّيْتُ الجموع حتى وصلت للغرفة، دخلت وإذا بشوع محشورةً بإحدى زوايا الغرفة وطراد قد وضع المسدس على رأسها ويصرخ فيها (وينها، ترفة وينها؟)

كاد يغمى عليّ من الخوف، تحولت صورة الشاب الوسيم إلى شيطان رجيم، احتقنت عيناه الكحيلتان بالدماء، واحمرَّ وجهُهُ بالكامل، وقد برز عِرْقٌ في جبينه وآخرُ في رقبته يكاد أن ينقطع ويطش الدم بكلّ مكان من كثرة الصراخ، ثوبُهُ مفتوحُ الأزرار وشعره مُبَعْثَرٌ، ويداه ترتجفان من عظيم الغَضَبِ!

أكثر ما كان يرعبني ليس طَراد المجنون؛ بل صديقتي الواثقة التي كانت تقف أمامه بلا خوف أو رهبة، كانت تنظر له كما لو أنها تنظر لأبي صالح صاحب بقالة حَيِّنَا، نظرة لا تحمل أيَّ معنى.

اقتحم الشيخ بطي المكان وأمر رجاله أن يتفقدوا بسَّامًا، كان الشيخ بطي وطراد يستهينان بترفة وبسامٍ لدرجة أنهما لم يضعا فوق رأس الرجل حراسة مشددة!

ما لبث الرجال حتى عادوا يجرُّون ذيول الخسارة، صرخ "طراد" في الغرفة صرخات الجنون، كان يدور في أرجاء الغرفة، ويصرخ، ويوجِّه سلاحه لشوع ويقول بهلوسة: (بتموتين بتموتين!)، ثم أطلق عليها رصاصة اخترقت رأسها، وتطشر دمها على الحائط.

قتل طراد العاشق المجنون شوعَ صديقة وطفاء، وأختَها ومَنْ تبقَّى من أهلها وصحبها، فقدت وطفاء القدرة على الكلام والقدرة على الحركة، وقعت شوع ميتة، ووقعت وطفاء مشلولة.

١٢ أبريل – ٣ ديسمبر ٢٠١٨م

تمت.